مسيرة طويلـ
نحو الحريـ
السيرة الذاتية لنيلسون مانديـ





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

NO.534 - JU-1995 العدد ٥٣٤ ـ محرم ـ يونية ١٩٩٥

FAX 3625469 فاكس

اسعار بيع العدد فئة ٤ جنيهات

سوريا : ١٣٠ ليره ، لبنان : ٨٠٠٠ ليرة، الاردن : ٣٠٠٠ فلس ، الكويت : ٢٠٠٠ فلس ، السعودية : ٢٠ ريالاً ، تونس : ٣ دينارات، المغرب: ٣٥ درهماً، البحرين : ١,٥٠٠ دينار، الدوحة: ١٥ ريالاً، دبى/ ابوظبى: ١٥ درهماً، مسقط : ١,٥٠٠ ريال، غزه/الضفة/ القدس: ٢ دولار، لندن : ٢,٥ جك.

مسيرة طويلة

نحو الحرية

سيرة الذاتية لنيلسون مانديلا

ترجمة

د. فاطمة نصر

دار الهلال

الغــلاف تصــميم
الفنان حلمي التوني

سيرة ذاتية أم وثيقة سياسية ؟

السيرة الذاتية في بدايتها كانت كتابة اعترافية دينية يسبر فيها الفرد أغوار ذاته للتعرف على مواطن ضعفه الإنساني وليقيم علاقة سليمة مع الخالق . ورغم أن تلك الكتابات انفصلت لاحقا عن أصولها الدينية وأصبحت شكلا من الأشكال الأدبية طرقه الأدباء والمفكرون والساسة فقد احتفظت تلك الكتابات بسمتين أصيلتين وهما محورية الذات وصيغتها الاعترافية . وفي زمننا هذا نحت السيرة مناحي مختلفة وتعددت أساليبها وأهدافها . فإلى جانب السير التي مازالت تلتزم بالسمات الأساسية ظهرت أخرى تهدف إلى الاثارة والكسب السريع . أيضا نجد أن هناك من بين القادة والمرموقين من الأفراد من يحاول استباق التاريخ بكتابة سيرته الذاتية حتى لا يترك لأقلام الآخرين حرية تسجيل الكلمة الفاصلة عنه ، وقد ظهر في السنوات الأخيرة عدد غير مسبوق من سير القادة والملوك والمشاهير من الأفراد .

وتستدعي طبيعة وأهداف ذلك الشكل من الكتابة التساؤل عن مقصد مانديللا من نشر سيرته ولم تمض شهور على توليه السلطة . فسيرته كما نقرأها ليست اعترافية والذات ليست محورها فهي ترتكز على الحدث .

كما أن مانديللا أصبح رمزا تمتلكه البشرية جمعاء لذلك يستبعد أن تكون سيرته محاولة منه لاستباق المؤرخين خوفا من التشويه أو سوء الفهم .

في سياق سرده للأحداث يذكر مانديللا أنه أثناء تواجده في المعتقل اقترح زملاؤه عليه كتابة مذكرات احتفاء ببلوغه الستين على أن يتم تهريبها خارج السجن والبلاد لنشرها كى تعمل على إزكاء شعلة المقاومة التي كانت قد خفتت آنذاك . ونجح مانديللا وزملاؤه فيما اعتزموه . غير أن تلك المذكرات لم يكتب لها أن ترى النور . يقول مانديللا أن تلك المذكرات هى العمود الفقرى لكتابه الحالي ، وعلى ذلك فلنا أن نفترض أنه رغم أن كلتى السيرتين قد تحوى نفس الأحداث الرئيسية إلا أنه ربما قد جرى تعديل بالحذف أو بتغيير بؤرة التركيز لأن المذكرات الحالية أريد بها تحقيق هدف مختلف عن ذلك الذى هدفت إليه المذكرات الأولى .

وبقراءتنا للسيرة الحالية يتبين لنا أن هدف مانديللا الأول هو تبيان وترسيخ وتبرير سياسته التوفيقية التى التزم بها واتبعها . وتلك السياسة ليست وليدة الساعة ، وليست مسايرة للظروف والمتغيرات لكنها تنبع من عقيدة التزم بها المؤتمر منذ نشأته واعتنقها مانديللا فكرا عقلانيا وأساسا واقعيا لكفاحه منذ بداية تسييسه ، كما عمقتها التجربة وقوىّ التزامه بها نضج الفكر وشمولية تجربته الإنسانية .

لم يشب مانديلا على كراهية للبيض . بل على العكس ، فإن تجربة طفولته وصباه كما يصورها هى تجربة رعوية لم يفسد صفوها أى شعور بالقهر ولم يكتسب من نشأته الأولى عوامل أثرت فى اختياره طريق الكفاح سوى حس راسخ بالعدالة وإيمان بالديموقراطية وكبرياء لكونه إفريقيا أسود . أما خلال سنوات دراسته بالمدارس والكليات الإرسالية فقد زاد اعجابه بالرجل الأبيض وكان منتهى طموحه أن يصبح "چنتلمان" انجليزيا أسود .

ولعل من الأهمية بمكان ملاحظة تزامن تفتح وعيه والتزامه السياسى مع دراسته للقانون فى جامعة Wits وقد تزامنت تلك الفترة أيضا مع اجراءات قمعية متزايدة من قبل السلطة لترسيخ نظام الأبارتايد . وربما يسترعى الإنتباه أيضا أن زملاء مانديلا من غير السود قد لعبوا دورا كبيرا في تسييسه . أى أن اختيار مانديلا لطريق الكفاح لم يقرره شعور شخصى بالظلم ورغبة شخصية فى مقاومة من يمارسونه لكنه نتج فى المقام الأول عن عقيدة ايديولوجية فى عدم عدالة الأبارتايد ورغبة منه فى اقرار العدالة . فهو يذكر فى كل مناسبة أن عداءه لم يكن لأشخاص معينين أو لإثنية بذاتها ، لكنه اختار أن يكافح نظاما باطلا ليقر نظاما عادلا . بل إنه كان يرى أن البيض أنفسهم وهم يمارسون الأبارتايد هم ضحايا للكراهية والتحيز وضيق الأفق .

لا عجب اذن أن مانديللا في سرده للأحداث لا يتوقف لوصف تفاصيل الممارسات الدموية الشريرة للبيض والتى نقرأ عنها حتى فى كتابات بعض البيض أنفسهم ، ولا يتخير وقائع بعينها كأمثلة لمعاناة الأفارقة . فإن أكثر الأمثلة التى يذكرها دموية هى مذبحة شاربڤيل التى اقترفها نفر قليل من رجال الشرطة تملكهم الخوف ، كما يقول ، من كثرة عدد المتحديين من السود فأطلقوا الرصاص وكان عدد الضحايا أقل من مائة قتيل ، وفى المقابل فإن مانديللا يسرد بإسهاب وحشية الممارسات الدموية لأعضاء الإنكاثا من الزولو بطريقة تقشعر لها الأبدان .

ومن ناحية أخرى يعطى مانديللا أمثلة عديدة لعظمة وعدالة بعض رجال القانون البيض ومن بينهم بعض القضاة الذين حاكموه . كما يسجل كفاح ومواقف عدد من البيض الذين عملوا معهم وتعرضوا للسجن والنفي والموت .

يتضح إذن أن مانديللا لا يريد التركيز على أو إحياء ممارسات بشعة لنظام وصفه هو بأنه من أعتى الأنظمة التى عرفها التاريخ بل يريد التأكيد على لاإثنية عناصر الشر وعناصر الخير وأن يؤكد تلك المبادىء التى قام عليها المؤتمر والتى كافح هو وغيره من أجلها لإقامة نظام عادل ديموقراطى تعيش الأعراق المختلفة فى ظله حياة عدالة وكرامة وأمان .

وعلى ذلك فسيرة مانديللا ليست ذاتية لكنها تأطير وتأصيل تاريخى وعقائدى وواقعى لسياسته التوفيقية التى التزم بها منذ توليه السلطة .

وقصة كفاح مانديللا وشعب جنوب إفريقيا كما ترويها السيرة هى "أوديسا" الواقع المعاصر قادها شعب عاش مغلوبا على أمره لمئات السنين وسلب حقوق مولده وكيانه الانسانى ضد نظام من أشرس الأنظمة وأشدها قوة وثراء وصلفا . وتمكنوا وهم الضعفاء الفقراء المحتقرون ليس فقط من زعزعة النظام والاتيان عليه بل أيضا من كسب مؤازرة شعوب الأرض وحكوماتها ودفعها لتبنى قضيتهم سواء كان ذلك عن عقيدة أم مسايرة للتيار العام .

لم ينظر مانديللا للمعركة على انها معركة بين مجموعتين من البشر فقط لكنه نظر إليها على أنها معركة بين ايديولوجيتين يميزهما التباين والتشابه فى نفس الوقت . فقد قام الأبارتايد على أساس عقيدة سمو الجنس الأبيض ودعمت تلك العقيدة إسطورة دينية تصنف البشر تصنيفا هرميا يتربع الجنس الأبيض فيه على القمة ويرتب بقية البشر فيه بين القمة والقاع الذى يحتله السود . وعلى هذا فرغم تقديس الأفريكان للعدالة والديموقراطية فإن القوانين التى تجسد هذين المفهومين هى قوانين مصدرها البيض ولحماية البيض . وعلى الجانب الآخر تتلخص ايديولوجية المؤتمر ومانديللا فى

التأكيد على المساواة بين البشر وأن العدالة والديموقراطية هما من أجل حماية حقوق الفرد والمجتمع بغض النظر عن اللون والعرق . ومن خلال كفاحه أثبت شعب جنوب إفريقيا حذقا غير عادى ومهارة فى التنظيم والتنظير والممارسة مما أجبر عدوهم والعالم أجمع ليس فقط على الاعتراف بهم كنظراء بل على الاعجاب بهم والتسليم لهم ..

ولعل تجربة المعتقل التى فاق عدد سنواتها عدد سنوات الكفاح خارج المعتقل هى التى تشعر القارىء ليس فقط بضآلته أمام عمالقة الارادة والفكر السليم ، لكنها تجدد فى النفس الثقة بالإنسان والعقيدة . فخلال سنواتهم الطويلة فى معتقل جزيرة روبن النائية القاسية الموحشة حيث اختير لها عتاة السجانين والضباط ، نقل مانديلا وزملاؤه المعركة هناك حيث لم ينجحوا فقط فى الحفاظ على آدميتهم وتأكيد حقوقهم ، بل إنهم حولوا المعتقل إلى جامعة لتربية النفوس والعقول والأجساد ، ولتثقيف وتعليم المسجونين السياسيين ، وتسييس وتعليم عتاة الاجرام من السجناء العاديين . فإنهم بالاضافة إلى استغلال وقتهم لمواصلة دراستهم أقاموا المساجلات السياسية والثقافية والاجتماعية والتراثية ووضعوا منهجا متكاملا للدراسة . كما قاموا بتكوين لجان للإستشارات القانونية ، وتكوين منظمة داخلية للمؤتمر وقيادة عليا له ، وعقد المباحثات مع أعضاء المنظمات

الأخرى لرأب الخلافات . وفى نفس الوقت عملوا جهدهم لكيلا يفقدوا الصلة بالتنظيمات والأحداث خارج المعتقل ولكى يبقوا المعركة حية بعد أن اعتقل ونفى جميع الزعماء . وانتهى الأمر بأن ترك القائمون عليها شئون الجزيرة وحفظ النظام بها للسجناء أنفسهم . أما بالنسبة للعالم الخارجى فقد ارتقت الجزيرة وقاطنوها إلى منزلة الرمز والإسطورة مما أجبر العدو فى النهاية إلى أن يسعى إليهم وأن يدرك أنه لا بديل للتفاوض معهم وللخضوع لإرادة الحق .

أتى الأفارقة وعلى رأسهم مانديللا مائدة المفاوضات مسلحين بالعلم والمعلومات والخبرة والعقيدة . أتوها وهم يعلمون عن عدوهم اكثر مما يعلم هو عن نفسه وعنهم . ويقول مانديللا فى ذلك الصدد "لم نأت الإجتماعات متسولين لكن مواطنون لنا الحق فى مكان متساو على المائدة" . أصر مانديللا ورفاقه على عدم قبول اشتراطات مسبقة ورفض المساومة ، كما رفض أن تتوقف النشاطات العسكرية كشرط لبدء المفاوضات ولم يملك الطرف الآخر أمام الوعى والإصرار سوى الخضوع والتسليم .

ومع انبهار القارىء إذ تتفتح أمامه تلك السيرة البطولية فإنه يتوقف عند بعض النقاط المحيرة ولعل أهمها بالنسبة لى كقارئة عربية بعض ما يأتى فى سياق رواية مانديللا . فإنه يذكر أنه إبان اختفائه فى مزرعة

ريڤونيا كان معلمه الأول في فنون حرب العصابات هو آرثر جولدريتش الذي كان ضمن الجناح العسكري لحركة بالماخ الصهيونية في فلسطين والذى خاض حرب العصابات هناك . كما يذكر أيضا ضمن الكتب التي قرأها وأفادته كتاب الثورة لمناحم بيجين الذى يمتدحه . لم يتوقف مانديللا ذو الحس المرهف بالعدالة لحظة ليفكر أن هذين الشخصين الذين حازا إعجابه قد خاضا حربا ضد سكان فلسطين الأصليين أعتي من تلك التي خاضها الأفريكانيون ضدهم وأن أيديولوجية الصهيونية تتماثل تماما مع ايديولوجية الأفريكانيون البيض التي عانى من جرائها شعبه ما عاناه .

ومن النقاط المحيرة أيضا موقف مانديللا من الحركات المناوئة للمؤتمر وبالذات من منظمة الـ P.A.C التي قادها سوبوكوى معلمه ورفيق كفاحه والتى كانت تتمتع بشعبية بين القادة الأفارقة فى وقت لم يكونوا يعلمون فيه الكثير عن المؤتمر . فإن مانديللا يصور تلك المنظمة للقارىء كما فعل مع القادة الأفارقة ومن بينهم جوليوس نيريرى على أنها منظمة صبيانية تعوز أعضاؤها الحنكة ومراعاة الصالح العام ، وأن هَمَّ أعضائها الأكبر كان محاربة المؤتمر وليس محاربة العدو ، كما يغفل دورها فى المعركة ومساهمتها فى تحقيق الانتصار . ولا يملك القارىء إلا أن يتساءل .. أنه لو صحت مثل تلك الادعاءات فلماذا اذن اعتقل زعيمها وأبقى فى المعتقل

رغم إنتهاء مدة الحكم عليه إلى أن توفى ؟ ولماذا لم يتبنها النظام كما تبنى حركة انكاثا لو أن هدفها الأول كان فعلا محاربة المؤتمر وكانت دوافع أعضائها هى الغيرة والانتقام .

ورغم ذلك لم أملك ـ وأنا أقرأ تلك الملحمة ـ التغلب على مشاعر الخزى والضآلة والانهزام ، الخزى من تخلف أساليبنا وخواء شعاراتنا ، من جهلنا بأنفسنا وبأهدافنا وبعالمنا ، من تفرقنا وتطاحننا ونحن أبناء العرق الواحد واللغة الواحدة والتاريخ المشترك ، من ضياع الطريق من تحت أقدامنا والهزيمة التى هى واقعنا .

تحية لك مانديللا .. تحية لك جنوب إفريقيا .. تحية لكل من ساهم فى تلك المعركة الملحمية من أجل الإنسان .

فاطمة نصر
مايو ١٩٩٥

الجـزء الأول
طفولـة فـى الريـف

إن الشىء الوحيد الذى منحه إياى والدى بخلاف الحياة ، والبنية القوية ، والصلة الوثيقة بعائلة ثمبو الملكية هو دوليهلاهلا ، إسمى عند الميلاد . والمعنى الحرفى لاسمى هو "نزع فرع الشجرة" ولكن معناه الدارج هو المشاغب" . ورغم أننى لا أؤمن بأن الأسماء تصنع قدر الإنسان لكن فى السنوات التى تلت صار الأصدقاء والأقرباء يعزون الزوابع التى سببتها وواجهتها إلى اسمى . ولم أكتسب إسمى الإنجليزى المألوف حتى يوم التحقت بالمدرسة .

فقد ولدت فى الثامن عشر من شهر يوليو عام ١٩١٨ فى مفيزو ، وهى قرية ضئيلة فى إقليم أومتاتا . وكانت سنة مولدى قد وافقت نهاية الحرب العالمية . وانتشار وباء الانفلونزا فى العالم وزيارة وفد المؤتمر القومى الإفريقى فرساى لكى يعبر عن معاناة الأفارقة فى جنوب افريقيا . وعلى أية حال فإن مفيزو لبقعة صغيرة منعزلة عن عالم الأحداث حيث كان نمط الحياة قد استمر لمئات السنين .

ويقع أقليم الترانسكى على مسافة ثمانمائة ميل إلى الشرق من كيب تاون وخمسين ميلا إلى الجنوب من جوهانسبرج ويحده نهر كى وحدود الناتال ومن الشمال جبال دراكنسبرج ومن الشرق المحيط الهندى . وترانسكى بلاد جميلة ذات

جبال وأودية حصينة وآلاف من الأنهار والجداول التى تبقى على اخضرار الأرض . وكان الترانسكى أحد أكبر الأقسام الإقليمية فى جنوب افريقيا هو مساحة سويسرا وتعداد سكانه حوالى الثلاثة ملايين ونصف من قبائل الإكسهوسا مع أقلية ضئيلة من قبيلة الباسوتوس والبيض . وهو موطن شعب الثيمبو أحد أفرع الإكسهوسا الذين انتمى اليهم .

وكان والدى رئيسا بالنسب وطبقا للتقاليد فقد عمده ملك قبيلة الثيمبو رئيسا لمقيزو وصدقت الحكومة على اختياره فى ظل الحكم البريطانى . وكان له ـ كرئيس معين من قبل الحكومة ـ راتب كما كانت له نسبة من الرسوم التى كانت الحكومة تفرضها على السكان نظير تطعيم المواشى .

وتنتسب الثيمبو من عشرين جيلا إلى الملك زويدى . وطبقا للتراث فقد عاش الثيمبو على سفوح جبال دراكنسبرج وهاجروا باتجاه الشاطىء فى القرن السادس عشر حيث امتزجوا بالاكسهوسا . أما الإكسهوسا فهم جزء من شعب النجونى الذى عاش منذ القرن الحادى عشر على الأقل على القنص وصيد السمك فى الإقليم الجنوبى الشرقى الغنى المعتدل من جنوب افريقيا بين الهضبة الكبيرة الواقعة إلى الشمال والمحيط الهندى إلى الجنوب . ويمكن تقسيم النجونى إلى مجموعة شمالية وهم الزولو والسوازى ومجموعة جنوبية التى تتكون من القبائل التى تتكون منها أمة الإكسهوسا .

وشعب الإكسهوسا ذو كبرياء ونسب أبوى ولغة معبرة عذبة وعقيدة ثابتة فى أهمية القانون والتعليم والكياسة . وكان

مجتمع الإكسهوسا تنظيما اجتماعيا متوازنا يعرف فيه كل فرد مكانه . وينتمى كل إكسهوسا إلى عشيرة تتتبع نسبها إلى سلف معين . أما أنا فأحد أعضاء عشيرة الماديبا التى سميت على اسم رئيس من الثيمبو حكم فى ترانسكى فى القرن الثامن عشر . وأحيانا كثيرة القب بماديبا كدليل للإحترام .

وكان نجو بنجكوكا أحد أعظم الملوك الذى وحد الثيمبو وتوفى عام ١٨٣٢ لديه طبقا للعرف زوجات ينتمين إلى البيوت الملكية الرئيسية وهى البيت العظيم حيث ينتقى وريث العرش ، وبيت اليمين ، وبيت أقل أهمية يدعى الاكسهيبا ويشار إليه أحيانا ببيت اليسار . وكانت مهمة أبناء بيت الإكسهيبا أن يحكموا فى المنازعات الملكية . وكان من بين أبناء البيت العظيم نجانجيلزوى ومانتانزيما . أما ساباتا الذى حكم الثيمبو منذ عام ١٩٥٤ فقد كان حفيد نجانجيلزوى وابنا أكبرا لماتانزيما الرئيس السابق لترانسكي وقد كان أيضا ابن أخي طبقا للقانون والعرف الذى هو من سلالة ماتانزيما . وكان الابن الأكبر لبيت إكسهيبا هو سيماكادى الذى كان أخوه الأصغر مانديلا جدى .

ورغم توارد قصص على مدى عقدين من الزمن عن كونى سليلا لعرش ثيمبو فإن النسب الذى ذكرته يدحض تلك الإسطورة . فرغم كونى أحد أعضاء البيت الملكى فلم أكن ضمن القلة المدربة للحكم . ولكن كسليل لبيت إكسهيبا فقد دربت كأبى على اسداء المشورة لحكام العشيرة .

وكان والدى رجلا أسمر طويلا ذا قوام مستقيم مهيب قد ورثته عنه . وكان سلوكه صارما لا يتورع عن استعمال العصا

فى تربيته لأبنائه كما أنه كان عنيدا للغاية وتلك صفة قد أكون أيضا قد ورثتها .

وأحيانا كان يشار إلى والدى على أنه رئيس وزراء ثيمبو لاند أثناء حكم والد ساباتا الذى حكم فى أوائل القرن ، وكذلك فى عهد ابنه الذى خلفه لكن مسمى هذا اللقب غير صحيح رغم أن دوره كان لا يختلف عن مهام تلك الوظيفة فقد كان يرافقهما فى أسفارهما ويحضر معهما الاجتماعات الهامة مع مسئولى الحكومة . كما كان والدى قيمًا معترفا به على تاريخ الإكسهوسا وكان هذا أصل اهتمامى أنا بالتاريخ ذلك الاهتمام الذى كان يشجعه والدى . ورغم جهل والدى بالقراءة والكتابة فقد كان خطيبا ممتازا يستحوذ على انتباه الجماهير .

وفيما بعد اكتشفت أن والدى كان أيضا صانعا للملوك فقد توفى والد ساباتا وهو طفل وعند استشارة والدى أوصى باختيار وصى العرش الذى سيكون قدوة للأمير الصغير . وثار جدل حول شخص الوصى لكن فى النهاية أخذ الثيمبو والبريطانيون باختيار والدى . وحينما حان الوقت رد الوصى جو تجينتابا الجميل بطريقة لم تخطر ببال والدى آنذاك

وكان لوالدى أربع زوجات ثالثتهم هى أمى نوز/ كينى فانى من عشيرة من عشائر الاكسهوسا . وكانت لكل من تلك الزوجات : الزوجة العظمى ، والزوجة اليمنى (والدتى) والزوجة اليسرى وزوجة بيت الدعم ، وحدتها السكنية . وتتألف من مكان للسكنى وحظيرة فسيحة وقطعة أرض لزراعة المحاصيل وكوخ له سقف من القش وكانت تفصل بين كل من تلك الوحدات أميال وكان والدى يسافر بينها . وفى أثناء تلك

السفريات صار لأبى ثلاثة عشر من الأولاد ، أربعة ذكور وتسع اناث . أما أنا فالابن الأكبر لزوجة البيت الأيمن وأصغر أبناء أبى ولي ثلاث شقيقات وفيما عداى فجميع أبناء أبى فى عداد الموتى الآن وكان جميعهم أكبر منى سنا ومرتبة .

وحينما كنت طفلا صغيرا دخل أبى فى جدل نتج عنه حرمانه من الرئاسة فى مفيزو . كان والدى متمردا عنيدا ذا اصرار على العدالة وإحساس بها وقد ورثت ذلك عنه فقد كان عليه كرئيس أن يقدم تقريرا عن عمله لملك الثيمبو وللقاضى الأبيض . وذات يوم قدم أحد رعايا والدى شكوى ضده بسبب ثور كان قد شرد من صاحبه . وأرسل القاضى رسالة لوالدى يأمره فيها بالمثول أمامه وأرسل والدى ردا مفاده أنه لن يحضر لأنه مازال يستعد . وفى تلك الأيام لم يكن لفرد أن يعصى أمرا لممثل حكومة البيض واعتبر تصرف والدى غاية فى الغطرسة .

لكن رد والدى كان يعبر عن عقيدته بأن ليس لقاضى الحكومة سلطة قانونية عليه . فإنه لم يكن يستعين بالقوانين الانجليزية فى تصريف شئون القبيلة . ولم يكن ذلك التحدى نوبة غضب ولكنه كان مسألة مبدأ .

وحينما تلقى القاضى رد والدى اتهمه فورا بالعصيان ولم يجر استجوابا أو تحقيقا فقد كان ذلك حقا للموظفين البيض فقط . وقام القاضى بعزل والدى ببساطة وأنهى بذلك رئاسة عائلة مانديلا .

ولم أكن وقتها أدرى بتلك الأحداث ولكنى تأثرت بها . فقد

فقد والدى ، الذى كان من النبلاء بمقاييس ذلك الزمن ، ثروته ولقبه . فقد حرم من معظم قطعانه وأرضه ومن ريعها . ونتيجة لعسر ظروفنا فقد رحلت أمي إلى قونو ، وهي قرية أكبر قليلا إلى الشمال من مفيزو حيث حظيت بدعم الأقارب والأصدقاء . وفى تلك القرية قرب أومتاتا قضيت أيام صباى ومن هناك يمكننى استعادة أولى ذكرياتى .

- ٢ -

كانت قرية قونو تقع فى واد ضيق معشب تتخلله جداول الماء وتحيط به التلال الخضراء . وكان السكان بضع مئات يعيشون فى أكواخ مشكلة كخلايا النحل من جدران من الطين وعمود خشبى فى الوسط يسند سقفا مدببا من الأعشاب . وكانت الأرضيات مصنوعة من كثيبات بيوت مستعمرات النمل المجروشة وتحفظ ملساء بطلائها بروث البقر . أما الفتحة الوحيدة فكانت مدخلا صغيرا كان على الإنسان أن ينحنى ليمر منه . ولم تكن هناك طرق ، فقط كانت هناك ممرات بين الأعشاب داستها الأقدام العارية للصبية والنساء . وكانت نساء القرية وأطفالها يرتدون بطاطين مصبوغة بلون يميل للاصفرار ولم يكن يرتدى الملابس الغربية فى القرية سوى الأفراد الذين يدينون بالمسيحية . وكانت الماشية والأغنام والماعز والخيل ترعى فى مراع جماعية . أما الأرض نفسها فكانت ملكا للدولة وفيما عدا استثناءات قليلة فلم يكن للأفارقة فى ذلك الوقت حق ملكية الأرض ولكنهم كانوا مستأجرين يدفعون ايجارا سنويا للحكومة . وفى تلك المنطقة كانت هناك مدرستان ابتدائيتان وحانوتا عاما وبركة لتغطيس الماشية .

وكانت الذرة والفاصوليا والفول والقرع تكوّن الجزء الرئيسى من طعامنا ولم يكن ذلك لتفضيلنا إياها ولكن لأن الناس لم يكن بمتناولهم الحصول على أطعمة أخرى أما العائلات الأكثر ثراء فكانت تضيف إلى ذلك الشاى والقهوة والسكر . أما المياه المستعملة فى الزراعة والطهى والغسيل فكانت النسوة ينقلنها من الجداول والينابيع . وفى الواقع فإن قونو كانت قرية نساء وأطفال لأن معظم الرجال كانوا يقضون الجزء الأكبر من العام يعملون فى مزارع بعيدة أو فى مناجم على طول الصخور التى تكون الى الجنوبى لجوهانسبرج وكانوا يعودون إلى القرية أحيانا مرتين فى العام لحرث الحقول . أما بقية الأعباء فكان يترك أمرها للنساء والأطفال . أفراد قليلون جدا فى القرية هم الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة لأن فكرة التعليم كانت ما تزال غريبة على الأكثرية .

كانت أمى تشرف على ثلاثة أكواخ فى قونو كانت تعج دائما بالرضع والأطفال من الأقارب ولا أتذكر أى مناسبة كنت فيها وحيدا كطفل . ففى الحضارة الإفريقية يعتبر أبناء وبنات الخالات والأعمام أخوة وأخوات وليس لدينا إخوة وأخوات غير أشقاء وتعتبر أخت أمى أماً لى وابن خالى أو عمى أخا لى وطفل أخى طفلى .

كان أحد أكواخ أمى الثلاثة يستعمل للطبخ والآخر للنوم والثالث للخزين . ولم يكن بالكوخ الذى كنا ننام به أثاث بالمعنى الغربى فقد كنا ننام على حصير ونجلس على الأرض . وكانت أمى تطهو الطعام فى إناء ذى ثلاثة أرجل على نار مكشوفة داخل الكوخ أو بالخارج . وكانت تزرع وتحصد

الذرة الخاصة بها . وكانت النساء يستعملن وسائل مختلفة لإعداد الذرة فكن يطحن الحبات بين رحايتين ليصنعن الخبز أو يستخرجن دقيق الذرة ليصنعن اللبن الرائب أو يطهين جريش الذرة . وعلى خلاف الذرة التى كانت تندر أحيانا فقد كان حليب الماعز والأبقار متوافرا دائما .

وفى صغرى كنت أقضى معظم وقت فراغى فى المروج ألعب وأتعارك مع صبية القرية فقد كان الصبى الذى يقضى وقته ملتصقا بأمه ينظر إليه على أنه مخنث . وفى الليل كنت أقتسم طعامى وبطانيتى مع أولئك الصبية . وعندما عملت بالرعى لم أكن قد تجاوزت الخامسة حيث كنت أسهر على الأغنام والعجول . وقد تعلمت وأنا أعمل فى الحقل الإيقاع بالطيور بواسطة المقلاع وجمع عسل النحل والجذور التى تؤكل ، وأن أرتشف الحليب الدافىء من ضروع الأبقار وأن أسبح فى القنوات الصافية وأن أصطاد السمك بواسطة الخيط المجدول بالأسلاك الحادة . كما تعلمت المبارزة بالعصى وتلك مهارة أساسية لكل فتى ريفى أفريقى .

وكنا كصبيبة نُترك لنفعل ماشئنا وكنا نلعب بدمى صنعناها من الطين وأغصان الأشجار . وكانت المروج والتلال ملعبنا . وتعلمت الركوب بالتسلق على ظهور العجول التى تم فطامها وبعد أن سقطت عدة مرات تمرست فى العملية .

وذات يوم تلقيت درسا من حمار جامح كنا نتبادل تسلق ظهره وحينما جاء دورى قفزت على ظهره فجمح الحمار باتجاه شجرة شوكية وألقى بى بعد أن خدشت وجرحت الأشواك وجهى وسبب لى الارتباك فى حضور أصدقائى ورغم أن

الفاعل كان حمارا تعلمت قسوة اهانة المرء لغيره . فقد كنت أهزم زملائى دون اشعارهم بالمهانة . وعادة كان الصبية يلعبون بمفردهم لكن أحيانا كنا نسمح لأخواتنا بمشاركتنا فى ألعاب مناسبة .

وبعد الانتهاء من تلك الألعاب كنت أعود للكوخ حيث كانت والدتى تقوم بتجهيز طعام العشاء . ومثل ما كان والدى يقص علىّ قصصا عن معارك تاريخية لمحاربى الاكسهوسا كانت والدتى تسحرنا بأساطير الاكسهوسا التراثية وكانت تلك الأساطير تثير مخيلة طفولتى وغالبا ما احتوت على عبرة أخلاقية .

وكأطفال الإكسهوسا كنت أحصل على المعرفة عن طريق الملاحظة والمحاكاة وليس بتوجيه الأسئلة وكان الكبار يلقوننا المعلومات التى يرونها ضرورية .

وكانت حياتى وحياة معظم الإكسهوسا فى ذلك الوقت تشكلها الأعراف والطقوس والمحرمات . فالرجال كانوا يتبعون الطريق الذى حدده لهم آباؤهم أما النساء فقد عشن حياة أمهاتهن من قبل .

ولم أقابل سوى قليل من البيض فى قونو . فقد كان القاضى أبيض وكذلك بالطبع كان صاحب المتجر القريب . وكان يحدث أحيانا أن يمر مسافرون بيض أو أفراد شرطة عبر منطقتنا . وكان البيض يبدون لى فى عظمة الآلهة وكنت أعلم أنه يجب ابداء الخوف والاحترام إزائهم .

وكانت المنافسة القبلية الوحيدة فى عالمنا الصغير فى

قونو هي بين الإكسهوسا والأمفنجو الذين كان يعيش عدد صغير منهم في قريتنا . وكان الأمفنجو قد وصلوا من الرأس الشرقي في تلك الفترة مابين ١٨٢٠ ـ ١٨٤٠ التي حاول خلالها محاربو الزولو غزو كل القبائل وتوحيدها تحت حكم عسكري . وأجبر الأمفنجو كلاجئين أن يقوموا بأعمال كان لا يقوم بها أفارقة كالعمل في مزارع البيض ومتاجرهم . وكانوا قوما محبين للعمل ، ولصلتهم بالأوروبيين فقد أصبحوا أكثر تعليما وغربية من الأفارقة الآخرين .

وحينما كنت صبيا كانت منطقة الأمفنجو أكثر الأقسام تقدما في مجتمعنا وكانت تمدنا برجال الدين والشرطة والكتبة والمترجمين وكانوا من أوائل الذين اعتنقوا المسيحية وبنوا بيوتا أفضل واستخدموا طرقا علمية في الزراعة وكانوا أكثر ثراء من مواطنيهم من الإكسهوسا وكانوا برهانا على مقولة الإرساليات وهي أن تصبح مسيحيا فإنك تصبح متحضرا ولكي تكون متحضرا فعليك أن تكون مسيحيا . وكان هناك بين الإكسهوسا شعور بالعداوة ضد الأمفنجو أعتقد أن سببه الغيرة .

ولم يسهم والدى في العداء ضد الأمفنجو بل صادق أخوين منهما هما جورج وبن مكبيللا وكانا استثناء في قونو حيث كانا متعلمين وكان جورج مدرسا متقاعدا أما بن فقد كان شرطيا ورغم محاولات الأخوين مكبيللا فقد ظل والدى متباعدا عن المسيحية واحتفظ بعقيدة آبائه من الإكسهوسا . أما والدتي فقدت وقعت تحت تأثيرهما واعتنقت المسيحية وأصبح اسمها الذى منحته إياها الكنيسة هو فاني . وأيضا يرجع

تعميدى فى الكنيسة الميثورية إلى الأخوين ، ومن ثم أرسلت إلى المدرسة رغم أن أحدا من عائلتى لم يتلق تعليما من ذلك النوع .

كان مبنى المدرسة يتكون من غرفة واحدة ذات سقف أوروبى تقع على الجانب الآخر من التل من قريتى قونو . وكنت حينذاك فى السابعة . وفى ذلك اليوم انتحى بى والدى وأخبرنى بأن علىّ أن أرتدى الثياب المناسبة وأخذ أحد سراويله وقصه عند الركبتين وطلب منى أن أرتديه وفعلت . كان الطول مناسبا لكن الوسط كان متسعا جدا وأخذ والدى قطعة دوبارة وحزمنى بها عند الوسط وشعرت بالفخر وأنا ارتدى ثيابى تلك .

وفى أول يوم لى فى المدرسة أعطت المدرسة كل واحد منا اسما انجليزيا قائلة إنه من ذلك الحين فصاعدا فإن ذلك هو الإسم الذى سننادى به . وعموما فالأفارقة من جيلى وحتى فى يومنا هذا يحملون إسما إنجليزيا وآخر افريقيا فلم يكن البيض يريدون أو يستطيعون نطق الاسماء الافريقية وكانوا يعتبرونه تخلفا أن تحمل اسما وطنيا وقالت لى المدرسة فى ذلك اليوم أن اسمى الجديد هو نيلسون .

- ٣ -

وفى احدى الليالى وحينما كنت فى التاسعة انتبهت لحركة فى المنزل فقد كان والدى قد جاء إلينا فى غير موعد وصوله المعتاد . ووجدته فى كوخ والدتى راقدا على ظهره على الأرض وقد انتابته نوبة من السعال المتصل . وكان من

الواضح أن والدى لم يمكث طويلا فى هذا العالم فقد كان مريضا بالرئة لكنه لم يحدث أن زار طبيبا . ومكث فى الكوخ دون حركة أو كلام لعدة أيام . وفى إحدى الليالى ساءت حالته وكانت أمي وزوجته الصغرى نودايبيمانى التى حضرت لتمكث معنا ترعيانه . وفى ساعة متأخرة من الليل نادى على زوجته الصغرى وطلب منها أن تحضر تبغه وتشاورت الزوجتان وقررتا أنه من غير الحكمة أن يتعاطى التبغ فى مثل حالته ولكن أمام اصراره ملأت نودايبيمانى غليونه وأشعلته وناولته إياه . فدخن والدى وهدأ واستمر يدخن لمدة ساعة تقريبا ثم مات وغليونه مازال مشتعلا .

لا أتذكر أن حزنى كان بمقدار شعورى بالضياع . فرغم أن والدتى كانت مركز وجودى فإن معرفتى بذاتى كانت بنسبى إلى أبى . وقد غيرت وفاته حياتى كلها بطريقة لم أشك فيها فى ذلك الوقت . فبعد فترة الحداد أخبرتنى والدتى بأننى سأترك قونو ولم أسألها لماذا أو إلى أين أنا ذاهب .

قمت بحزم ممتلكاتى القليلة وفى يوم مافى الصباح الباكر اتجهنا إلى الغرب فى الطريق إلى سكنى الجديد . لم أشعر بالحزن لفقدان والدى مثل شعورى بالحزن على ذلك العالم الذى تركته . وقبل أن نختفى وراء التلال استدرت ونظرت إلى قريتى . ولم أستطع أن أتخيل أن المستقبل الذى كنت متجها إليه يمكن أن يقارن بذلك الماضى الذى تركته .

سافرنا على الأقدام فى صمت حتى بدأت الشمس تغيب . كانت رحلة مرهقة عبر طرق صخرية غير مرصوفة أعلى وأسفل تلال وعبر قرى عديدة ، لكننا لم نتوقف . وقرب المساء وفى

قاع واد ضحل تحوطه الأشجار حططنا فى قرية كبيرة يتوسطها مسكن متسع حسن المنظر يفوق أى شىء قد رأيته من قبل . كان المسكن يتكون من منزلين مستطيلين وسبعة أكواخ كبيرة كلها مطلية بالجير الأبيض وبدت مبهرة حتى فى ضوء الغروب . كانت هناك حديقة أمامية كبيرة وحقل ذرة تحده أشجار الخوخ . وكانت هناك حديقة أشد اتساعا فى الخلف بها أشجار تفاح وخضروات ومساحة من الزهور والسنط . وبالقرب كانت هناك كنيسة .

وفى ظل أشجار السنط التى كانت تزين المدخل الأمامى للمنزل الرئيسى جلست مجموعة من حوالى عشرين رئيسا قبليا . وكانت فى الضيعة قطعان من الماشية ترعى فى الأرض الغنية . كان منظر الثراء يفوق خيالى ، وكان ذلك هو المكان العظيم ـ مفهيكيزوينى ، عاصمة ثمبولاند الإقليمية ومقر الرئيس جونجيتابا القائم بأعمال حاكم شعب ثمبو .

ودخلت سيارة مهولة من البوابة الغربية وقف على أثرها الرجال الجالسون فى الظل رافعين قبعاتهم وهم يهللون بالتحية التقليدية لشعب الإكسهوسا لرئيسهم "مرحبا جوجينتابا" ونزل من العربة رجل قصير متين يرتدى حلة أنيقة ، وكان ذا حضور قوى تتطلع إليه كل الأعين . ثم صافح كل الرجال الذين كانوا تحت الشجرة والذين اكتشفت فيما بعد أنهم يكونون أعلى سلطة قانونية فى ثمبولاند .

كان ذلك هو الحاكم الذى سيصبح ولىَّ نعمتى للعقد لقادم . فحتى تلك اللحظة لم يكن لدى طموح أكثر من الطعام الجيد وبطولة المبارزة بالعصى . لم تكن لى أفكار عن النقود

أو الطبقات أو الشهرة والقوة . وفجأة فتح عالم جديد أمامى وشعرت بأن كثيرا من معتقداتى وانتماءاتى الراسخة تتلاشى . وبدأت الأسس التى أرساها والدى فى الاهتزاز وفى لحظة أدركت أن الحياة ممكن أن تنطوى بالنسبة لى على أشياء أكثر من أكون بطل مبارزة العصى .

وفيما بعد علمت أنه عقب وفاة أبى عرض جوجينتابا أن يكون وصيا علىّ وأن يعاملنى معاملة أبنائه وأن أحصل على نفس مزاياهم . ولم يكن أمام والدتى خيار وكان رضاها مبعثه أنه رغم أنها ستفتقدنى فإن نشأتى فى رعاية الحاكم ستكون أفضل ولم يكن الحاكم قد نسى أن تدخل والدى لجعله وصيا هو الذى جعل منه رئيسا ذا سلطة عليا .

وبسرعة انغمست فى الحياة اليومية لمفهيكزوينى . فقد كانت بالنسبة لى مملكة سحر وكان كل شىء بهيجا وأصبحت الواجبات التى وجدتها مملة فى قونو مغامرة فى مفهيكزوينى فبعد فراغى من المدرسة كنت أعمل فى الحرث أو الرعى وكنت أركب الخيل وأقتفى الطيور بالمقلاع وأبحث عن صبية أقارعهم وكنت أحيانا أرقص الليل بأكمله على نغمات وتصفيق فتيات التمبو .

وانتظمت فى المدرسة ذات الحجرة الواحدة المجاورة للقصر وكنت أدرس الإنجليزية والإكسهوسا والتاريخ والجغرافيا . وقد لقيت اهتماما من مدرسى وتفوقت نتيجة لانكبابى على الدراسة . وقد دعمت عمتى فانيوى التى كانت تعيش فى القصر النظام الذى فرضته على نفسى وكانت تراجع واجباتى المنزلية فى المساء .

وكما كان الحاكم محور الحياة فى مفهيكزوينى فقد كان ولداه محور حياتى . كان چاستيس إبنه الكبير الأوحد ووريثه وكانت نومافو إبنته . وقد عشت معهما وعوملت مثلهما . وفيما بعد انضم إلينا أخو ساباتا الأكبر ووريث العرش وكونا أربعتنا المجموعة الملكية .

كان چاستيس يكبرنى بأربع سنوات وأصبح بطلى الأول بعد والدى . وكان وقتها تلميذا فى مدرسة كلاركبرى الداخلية التى تبعد عن القرية ستين ميلا . وكان طويلا مليحا ذا عضلات ورياضيا ممتازا وكان بشوشا جريئا يسحر من حوله بغنائه ورقصه الغربى . وقد أصبحت وچاستيس صديقين حميمين رغم تعارض صفاتنا . ورغم أننا كنا نعامل كندين فقد كان لكل منا مستقبله فقد كان چاستيس وريث أحد الرئاسات القوية فى قبيلة الثمبو بينما كنت سأرث ما يرى الحاكم أن يفيض به علىّ .

كنت أتواجد يوميا فى قصر الحاكم للقيام بأعباء معينة وكان أحب الواجبات إلىّ هى كَىْ حلل الحاكم فقد كنت أقضى الساعات الطويلة لأثنى له السراويل بإحكام .

وكان الذى سير حياتى فى مفهيكزوينى هما رئاسة القبيلة والكنيسة . وقد تواجدت مبادئهما فى حياتى فى تناسق غير مستقر رغم أننى حينذاك لم أجد تنافرا بينهما . فلم تكن المسيحية تمثل لى نظاما عقائديا بقدر كونها الدين الذى يدين به شخص معين وهو المقدس ماتيولو الذى كان حضوره القوى يمثل لى ماهو جذاب فى المسيحية وقد ترك أثرا روحانيا علىّ لكن اهتمامات الكنيسة فقدت الآخرة إلى عالمنا

الدنيوى وكنت أرى بنفسى أن مامن شىء يحققه الأفراد الأفارقة إلا ويأتى عن طريق الكنيسة وعمل الإرساليات بها. فقد كانت المدارس الإرسالية تدرب الكتبة والمترجمين ورجال الشرطة . وكان هؤلاء يمثلون أعلى طموحاتى .

وكان الحاكم يأخذ دينه مأخذ الجد . وفى الواقع فإن المرة الوحيدة التى جلدت فيها كانت حينما تغيبت عن قدّاس الأحد لأشارك فى مبارزة ضد بعض الصبية من قرية أخرى .

لقد تأثرت أفكارى عن الزعامة بعمق ملاحظتى للحاكم وبلاطه . فقد كنت أرقب وأتعلم من الاجتماعات القبلية التى كانت تعقد بانتظام فى المكان العظيم . وكانت تعقد كلما دعت الحاجة لمناقشة الأمور المحلية كالجفاف أو السياسات التى يأمر بها القاضى الأبيض أو القوانين الجديدة التى تسنها الحكومة وكان لكل شعب الثمبو حرية الحضور وكان يأتى عدد كبير على ظهور الخيل وسيرا على الأقدام .

وفى تلك المناسبات كان يحيط بالحاكم مجلس مستشاريه الذى كان يقوم بدور البرلمان والسلطة القانونية . وكانوا رجالاً حكماء على معرفة بالتاريخ القبلى وكان لآرائهم ثقل كبير .

وكان الضيوف يجتمعون فى فناء دار الحاكم الذى كان يفتتح الاجتماع بشكرهم لحضورهم ويوضح سبب استدعائهم ثم لا يتفوه بكلمة أخرى حتى قرب نهاية الجلسة وكانت تلك ديمقراطية فى أصفى معانيها فقد كان يتكلم كل من يريد ذلك وكان يُنصتُ إلى المتكلم سواء كان رئيسا أم فلاحا أم أجيرا وكان الناس يتكلمون دون مقاطعة فقد كان أساس الحكم

الذاتى حرية الجميع فى التعبير عن آرائهم وتساويهم كمواطنين .

كانت الدهشة تتملكنى فى البداية لعنف وصراحة الأفراد في نقدهم للحاكم وكان هو الهدف الأول للنقد ومهما كانت التهمة فإن الحاكم كان يستمع ولا يدافع عن نفسه .

وكانت الجلسات تستمر حتى يصل الحضور إلى نوع من الإجماع . وكان الإجماع أحيانا يكون على عدم الاتفاق لكى ينتظروا إلى وقت آخر ليقترحوا حلا . وكانت ديموقراطيتهم تعنى أن يسمع كل فرد وأن يؤخذ القرار بواسطة الجميع وليس بالأغلبية .

وعند غروب الشمس كان الحاكم يتكلم ويلخص ماقيل ويشكل إجماعا من الآراء المختلفة .

وكقائد الآن فإنى أحاول دائما أن أتبع المبادىء التى رأيتها مبكرا تتمثل فى الحاكم فى "المكان العظيم" فإنى أحاول أن أستمع لما يقوله كل شخص فى أى نقاش قبل أن أغامر برأيي وغالبا ما يمثل رأيى إجماعا لما سمعته فى النقاش .

وهناك أيضا بدأ اهتمامى بالتاريخ الإفريقى . فإلى ذلك الحين كنت قد سمعت فقط عن أبطال الإكسهوسا لكن فى "المكان العظيم" تعلمت أن هناك أبطالا آخرين أفارقة وعرفت عنهم من رؤساء العشائر وقادتها الذين كانوا يأتون "للمكان العظيم" ليحسموا المنازعات أو يحكموا فى القضايا . وكانوا ينتهون مبكرا فى بعض الأيام ويجلسون يقصون الحكاوى

وكانت قصصهم عن كفاح الأبطال والمحاربين الأفارقة ضد الغزاة والمستعمرين البيض تلهب خيالى وكان أحد هؤلاء الرؤساء يشجب الرجل الأبيض الذى شتت قبيلة الإكسهوسا عن قصد وأفهم شعب الثمبو أن رئيسهم الحقيقى هو الملكة البيضاء التى تجلس وراء المحيط وأنهم رعاياها ولكن الملكة البيضاء لم تأت إلا بالتعاسة والغدر للرجل الأسود . وقد جعلتنى قصص ذلك الرئيس وإدانته للبريطانيين أشعر بالغضب وبأننى قد خدعت . وكان يقول أيضا إن الأفارقة كانوا يعيشون فى سلام نسبى حتى مقدم البيض عبر البحار ومعهم أسلحة تنبعث منها اللهب وفى إحدى المرات قال أن الثمبو والمبود والإكسهوسا والزولو كلهم نسل أب واحد لكن الرجل الأبيض فرق ألفة القبائل المختلفة وأنه جاء شرها إلى الأرض وقاسم الرجل الأسود أرضه كما قاسمه الهواءَ والماء فإن الأرض ليست ملكا لأحد لكن الرجل الأبيض اغتصب الأرض كلها .

لم أكن أعرف أن التاريخ الحقيقى لا يتواجد فى الكتب البريطانية التى تدعى أن جنوب إفريقيا بدأت حينما رَسَى چان ڤان ريبيك فى رأس الرجاء الصالح عام ١٦٥٢ . فقد بدأت أكتشف أن تاريخ الشعوب التى تتحدث بلغة البانتو بدأ من بقعة بعيدة فى الشمال وأنه ببطء وعبر آلاف السنين وجدنا طريقنا إلى حافة تلك القارة العظيمة . وعلى أية حال فقد اكتشفت بعد ذلك أن وصف ذلك الرئيس للتاريخ الإفريقى وخاصة لفترة مابعد عام ١٦٥٢ لم يكن دائما وصفا دقيقا .

عندما بلغت السادسة عشر قرر الحاكم أن الوقت قد حان لأصبح رجلا وفى عرف الإكسهوسا لا يتحقق ذلك إلا عن طريق الختان . وطبقا للتقاليد فإن الرجل الذى لا تجرى له العملية لا يرث ثروة أبيه ولا يستطيع أن يتزوج أو أن يقوم على طقوس القبيلة ولا ينظر إليه كرجل بل يظل صبيا . وتصحب عملية الختان طقوس معقدة لتعد الفرد لمرحلة الرجولة .

وكانت المراسم التقليدية للختان قد أعدت أساسا من أجل چاستيس أما الباقون وكان عددهم ستة وعشرين فكانوا هناك لمشاركته . وفى بداية السنة الجديدة توجهنا إلى كوخين من الأعشاب فى واد منعزل على ضفاف نهر مباشى وهى البقعة التقليدية لاجراء العملية لأبناء ملوك الثمبو . وكان علينا أن نعيش فى عزلة عن المجتمع . وكان من بين رفاقنا فتى هو أكثرنا ثراء وكان ذا شخصية آسرة وكان رغم أميته يحكى قصصا عن رحلاته إلى جوهانسبرج وهو مكان لم يكن أحدنا قد رآه وكانت قصصه عن المناجم مثيرة لدرجة أنه كاد يقنعنى بأن أصبح عامل مناجم قائلا إن ذلك يتطلب أن تكون قويا وشجاعا وتلك هى صفات الرجولة المثلى وبعد ذلك تحققت أن قصصا كتلك قد جعلت شبابا كثيرا يهرب ليعمل بمناجم جوهانسبرج حيث كانوا يفقدون صحتهم وحياتهم .

وفى فجر اليوم المحدد بدأنا استعدادنا فاقتدنا إلى النهر لنستحم فى مائه وعند الظهر أمرنا بالاصطفاف على قطعة

أرض قرب النهر حيث اجتمع لفيف من الآباء والأقرباء ومعهم حفنة من رؤساء القبائل . وكانت عملية الختان اختبارا فى الشجاعة وقوة التحمل ولم يكن يستخدم فيها مخدر وكان الذى يجرى العملية رجل عجوز خبير يستعمل رمحه ليحولنا من صبية إلى رجال بضربة واحدة .

وفجأة سمعت الولد الأول يصيح "أنا رجل" التى كنا قد دربنا على أن نقولها لحظة الختان ولما جاء دورى رأيت الرجل راكعا أمامى . نظرت فى عينيه مباشرة . كان شاحبا ورغم برودة الجو فقد كان وجهه يلمع بالعرق . وتحركت يداه بسرعة وبدون كلمة قام بشد الجلد الأمامى وبحركة واحدة هبط رمحه . شعرت كأنما النيران تسرى فى أوردتى وكان الألم عظيما ومرت ثوان عدة قبل أن أتذكر أن أصيح ثم استعدت نفسى وصحت "أنا رجل" وعند نهاية المراسم عدنا إلى أكواخنا حيث مكثنا يومين وفى نهاية عزلتنا حرقت الأكواخ ومحتوياتها وهكذا دمر آخر ما كان يربطنا بطفولتنا .

ثم أقيم احتفال كبير للترحيب بنا كرجال فى مجتمعنا واجتمعت العائلات والأصدقاء والرؤساء المحليين ليلقوا الكلمات ويغنوا الأغانى ويقدموا الهدايا . وقد منحت أنا عجلا وأربعة أغنام أما چاستيس فقد منح قطيعا بأكمله فقد كان ابن ملك أما أنا فقد كان مقدرا لى أن أصبح مستشارا .

وجاء فى كلمة المتحدث الرئيسى وكان رئيس عشيرة قوله "لقد قمنا بختان زهرة شبابنا فى طقوس واعدة بالرجولة لكننى أقول لكم إنه وعد خداع ، وعد لن يتحقق لأننا نحن الإكسهوسا والسود الأفارقة شعب مهزوم . إننا عبيد فى

أرضنا . إن بين هؤلاء الشباب رؤساء لن يحكموا لأنه ليست لدينا القدرة على أن نحكم أنفسنا وجنودا لن يحاربوا وطلبة علم لا يوجد مكان لهم يدرسون به . وإن قدراتهم ستضيع هباء فى محاولتهم أن يرتزقوا ما يكفى لعيشهم بقيامهم بأعباء لا تتطلب ذكاء فى خدمة الرجل الأبيض . إن تلك الهدايا ليست لها قيمة لأننا لا نستطيع أن نهبهم أعظم هدية وهى الحرية والاستقلال" .

وشعرت بالغضب لما قاله الرئيس رافضا ملاحظاته على أنها تعليقات مهينة من شخص جاهل لا يستطيع أن يقدر قيمة التعليم والمزايا التى أتى بها الرجل الأبيض . فقد كنت حينذاك أنظر للرجل الأبيض على أنه صاحب فضل واعتقدت أن الرئيس جد جاحد . ولكن - ودون أن أدرى سببا - بدأت كلماته تشغلنى .. لقد ألقى بالبذرة التى رغم أنها ظلت نائمة لوقت طويل ، أخذت تنمو فى آخر الأمر . وحينذاك تحققت أن الجاهل لم يكن الرئيس بل أنا .

- ٥ -

لم يكن مقدرا لى مثل معظم الفريق الذى تم ختانه معى أن التحق بالعمل فى مناجم الذهب . وكثيرا ما قال لى الحاكم إنه لا يناسبنى أن أقضى حياتى أستخرج ذهبا للرجل الأبيض دون أن أتعلم حتى كتابة إسمى . فقد كان مقدرا لى أن أصبح مستشارا لساباتا وكان لابد أن أتلقى التعليم المناسب لذلك . وهكذا عدت إلى مفهيكزوينى بعد الاحتفال لأمكث فترة أعبر بعدها نهر مباشى لأول مرة فى حياتى فى طريقى إلى معهد كلاركبرى الداخلى . وقد قام الحاكم بنفسه بتوصيلى بسيارته

المهيبة . وكان قد أهدانى أول زوج لى من الأحذية كعلامة للرجولة . وكان المعهد يقع فى موقع إحدى الإرسليات فى ترانسكى وقد أسس فى عام ١٨٢٥ وكان فى ذلك الوقت أعلى مؤسسة تعليمية فى ثمبولاند وكان الحاكم نفسه قد تلقى تعليمه به وتبعه چاستيس . كان مدرسة ثانوية ومعهدا لإعداد المعلمين فى الوقت نفسه وكان يقدم بعض الدراسات العملية كالنجارة والتفصيل والحدادة .

لم تكن لى خبرة فى التعامل مع البيض وفى أثناء الرحلة كلمنى الحاكم عن المبجل هاريس مدير المعهد وأعطانى محاضرة عن كيفية التعامل معه قائلا أننى يجب أن أعامله بنفس الإحترام الذى أعامله هو به .

وكانت المدرسة تتكون من حوالى أربعة وعشرين مبنى من طراز مبانى المستعمرات وكانت تحوى مساكن خاصة والقسم الداخلى والمكتبة وقاعات الدراسة .

وفى مكتب المبجل هاريس قدمنى الحاكم حيث وقفت أصافح رجلا أبيضا لأول مرة فى حياتى . وكان السيد هاريس ودودا وكان يعامل الحاكم باحترام كبير . وقد بيَّن له الحاكم أننى أُعَّد لأكون مستشارا للملك وأنه يأمل أن يشملنى باهتمام خاص . وهنا أومأ المدير قائلا إن طلبة المعهد عليهم أن يقوموا بأعمال يدوية بعد ساعات الدراسة وأنه سيجعلنى أعمل فى حديقته الخاصة .

وبعد انتهاء المقابلة ودعنى الحاكم وأعطانى جنيها كمصروف لى وكان أكبر مبلغ أمتلكه .

وبما أن كلاركبرى كانت معهدا للثمبو أنشئت على أرض منحها ملك عظيم للثمبو فقد توقعت كأحد سلالته أن ألقى نفس الإحترام الذى كنت ألقاه فى مفهيكزوينى ولكن أحدا لم يعرف أو يهتم أن يعرف تلك الحقيقة فقد كان كثير من الطلبة من سلالات مرموقة . وكان هذا درسا مهما فقد تبينت سريعا أن عليَّ أن أبدأ شق طريقى معتمدا على قدراتى وليس على إرثى وكان معظم زملائى متفوقين عليَّ رياضيا وعلميا وكان عليَّ أن ألحق بهم .

وسرعان ما تأقلمت مع الحياة في كلاركبرى وشاركت فى النشاط الرياضى والألعاب لكن أدائى كان أقل من العادى . ولأول مرة تلقيت العلم على أيدى مدرسين مدربين كان العديد منهم يحمل درجات جامعية رغم ندرة ذلك حينذاك . وكان من بينهم مدرسة التاريخ والإنجليزية وكانت أول افريقية تنال درجة الليسانس .

وكان المبجل هاريس يدير كلاركبرى بيد من حديد وحس صارم بالعدالة . وكان الطلبة يبدون نحوه الخوف أكثر من الحب . لكن فى الحديقة رأيت جانبا مختلفا من شخصيته فقد كان خلف قناع شدته فرد رقيق ذو عقلية واسعة وكان يؤمن بحرارة بأهمية تعليم شباب الأفارقة . وكنت نادرا ما أتحدث إليه ولكنه كان قدوة لى فى التفانى من أجل هدف نبيل .

وبعد بداية غير مرموقة تمكنت من فهم الأمور وأسرعت فى الدراسة لأحصل على الشهادة العلمية الأولى فى عامين بدلا من الثلاثة المعتادة . وكنت طالبا دؤوبا . وساعد الوقت الذى قضيته فى كلاركبرى على توسعة أفقى ولكننى لا أستطيع

القول أننى حينما تركت المعهد كنت شخصا متفتحا غير منحاز . فقد كنت قد التقيت بعدد من الطلبة من جميع أنحاء ترانسكى ومن جوهانسبرج وباستولاند وكان بعضهم مصقولا ومنفتحا على العالم بدرجة جعلتنى أشعر بإقليميتى . لكننى لم أحقد عليهم . فحينما تركت كلاركبرى كنت مازلت ثمبو فى أعماقى وكنت فخورا أن أفكر واتصرف من ذلك المنطلق . فقد اعتقدت أن جذورى هى قدرى وأننى سوف أصبح مستشارا لملك الثمبو كما أرادنى الوصى علىَّ .

- ٦ -

وفى عام ١٩٣٧ وعندما كنت فى الثامنة عشرة لحقت بچاستيس فى هيلدتاون ، الكلية الإرسالية فى فورت بوفورت التى كانت فى القرن التاسع عشر إحدى نقط الحدود الأمامية البريطانية فيما كان يسمى بحرب الحدود التى إبانها كانت هجمات المستوطنين البيض تنتزع الأراضى من قبائل الإكسهوسا وعند وصولى إلى هيلدتاون لم تكن هناك من معالم القرن السابق سوى أن بوفورت قد أصبحت مدينة للبيض . وكانت هيلدتاون أكبر مدرسة للإفريقيين جنوب خط الإستواء وتحوى اكثر من عشرة آلاف طالب من الجنسين وكان يدرس بها العلوم المسيحية الإنسانية على النمط الإنجليزى .

وكان الدكتور آرثر ويلنجتون مدير المدرسة رجلا متين البنية متجهم الوجه يفخر بنسبه إلى دوق ويلنجتون . وفى بداية الإجتماعات كان يصعد المسرح ويقول بصوت جهير "إنى من سلالة دوق ويلنجتون العظيم رجل الدولة وقائد

الجيش الارستقراطى الذى هزم نابليون وأنقذ الحضارة لأوروبا ولكم أيها الوطنيون" .

وعندها كنا نصفق بحماس وكل منا ممتن امتنانا عظيما أن يأخذ حفيد لدوق ويلنجتون على عاتقه تعليم أفارقة مثلنا . كان الرجل المتعلم الإنجليزى هو مثلنا وكان كل ما نتطلع إليه هو أن نكون "إنجليزا سودا" كما كنا نلقب بسخرية . كنا نعتقد أن أفضل الأفكار هى الأفكار الإنجليزية وأن أفضل الحكومات هى الحكومة الإنجليزية وأن أفضل الرجال هم الإنجليز .

وكانت هيلدتاون تجتذب طلبة من جميع نواحى البلاد ومن المحميات مثل باسوتولاند وسوازيلاند وبتشوالاند . كما أنه كان هناك طلبة من جميع القبائل . وكان معلم علم الحيوان .. ويتحدث بلهجة السوثو وذا شعبية كبيرة بين الطلبة . كان حديث السن جذابا ويختلط دون حرج بالطلبة كما كان من نجوم فريق كرة القدم . ولكن ما أدهشنا هو أنه كان متزوجا من فتاة من الإكسهوسا . وكنا قد تعلمنا أن الزواج خارج القبيلة محرم ولكن تجربة المدرس ، وكان اسمه فرانك ، وزوجته بدأت تقوض النزعة القبلية المسجونة داخلى وبدأت أحس بذاتى كإفريقى وليست فقط كثمبو أو إكسهوسا .

وكان المشرف على قسمى بالسكن الداخلى هو المبجل موكيتيمى والذى كان عليه أن يفصل أحيانا فى المنازعات . ولكنه كان الإفريقى الوحيد الذى يتحدى د . ولينجتون بأدب ويرفض تدخله المباشر فى شئون عمله . وجعلنى ذلك أقتنع بأن د . ولينجتون لم يكن إلها وأن موكيتيمى أكبر من أن يكون مجرد تابع .

وفى الكلية تمتعت بممارسة الرياضة وبما أننى كنت طويلا ونحيفا فقد تدربت على رياضة جرى المسافات الطويلة بجدية ومتعة . كما تدربت على رياضة أخرى لم تكن تناسب بنيتى فى ذلك الوقت وهى الملاكمة .

وفى السنة الثانية أصبحت من طلبة حفظ النظام وتدرجت حتى وصلت إلى المناوبات الليلية وكان أن وجدت نفسى فى إحدى المناوبات فى مأزق أخلاقى . فلم يكن لدينا مرحاض فى أماكن النوم لكن كان هناك واحد خلف المبنى على بعد حولى مائة قدم . وكان يحدث أثناء الليالى الممطرة أن يتبول الطلبة من الشرفة وسط الشجيرات وكان ذلك مخالفة كبيرة وكانت إحدى مهام المشرف الليلى تسجيل أسماء المخالفين .

وفى إحدى ليالى مناوبتى ـ وكان المطر شديدا فى الخارج ـ ضبطت عددا من الطلبة يرتكبون ذلك العمل . وقرب الفجر رأيت شخصا يخرج وينظر يمينا ويسارا ثم يقف فى الشرفة ليتبول . فذهبت إليه وعندما استدار عرفت أنه أحد المشرفين . كان ذلك مأزقا . ورأيت أنه من غير العدالة أن أتحاشى الإبلاغ عن مشرف وأبلغ عن خمسة عشر طالبا . وعليه فقد قمت بتمزيق القائمة .

وفى السنة الأخيرة فى هيلدتاون وقعت حادثة كانت بالنسبة لى كمرور نيزك عبر سماء الليل . فقرب نهاية العام أخبرنا أن شاعر الإكسهوسا العظيم مفهابى سيزور المدرسة . وكان مداحا أو مؤرخا شفاهيا ينظم الأحداث التاريخية المعاصرة فى قصائد . وأعلن اليوم إجازة للجميع واجتمعنا بما فينا هيئة التدريس من البيض والسود فى قاعة الطعام

حيث كان فى نهايتها مسرح فى آخره باب يفضى إلى منزل د . ويلنجتون ولم يكن يستعمله إنسان غيره . وفجأة فتح الباب وكان من ظهر من خلاله ليس د . ويلنجتون ولكن رجلا أسود يرتدى جلد فهد وقبعة مماثلة ويحمل حربة فى كل من يديه . ثم تبعه د . ويلنجتون . من الصعب وصف ماكان من أثر ذلك علينا فكأننا والكون انقلب رأسا على عقب . وبينما جلس مفهابى على المسرح إلى جانب د . ولنجتون كان من الصعب إحتواء انفعالنا . ونهض مفايي وبدأ كلامه الذى لم أجده مؤثرا فى البداية . وعند نقطة معينة رفع حربته فى الهواء لتأكيد ما يقول فضربت الحربة سلك الستار بالخطأ مما أحدث جلبة حادة وسبب تحريك الستار . وهنا نظر الشاعر إلى حربه وإلى السلك وفى تفكير عميق أخذ يغدو ويروح على المسرح ثم توقف وواجهنا صائحا إن تلك الحادثة ـ الحربة وهى تقرع السلك ـ لتمثل تصارع الحضارة الإفريقية والأوروبية وارتفعت عقيرته قائلا إن الحربة تمثل ماهو مجيد وحقيقى فى التاريخ الإفريقى وأنها ترمز للمحارب والفنان الإفريقى بينما السلك الأبيض يمثل الصنعة الأوروبية ، مهارة باردة وحذق بدون روح وأن ما حدث ليست ملامسة قطعة من العظام لقطعة من المعدن ولا تداخل حضارتين بل اصطدام ماهو أصلى وخير وماهو دخيل وشرير وتنبأ بيوم يجىء تحقق فيه القوى الإفريقية انتصارا على الدخلاء .

وكنت لا أكاد أصدق تلك الجرأة فى الحديث فى حضور د . ولنجتون وآخرين بيض . وفى الوقت نفسه استثار الشاعر حماسنا وبدأ فى تغيير مفاهيمى عن أشخاصا مثل د . ولنجتون الذى كنت قد اعتبرته تلقائيا صاحب فضل علىَّ .

ثم بدأ مفهابى فى إلقاء قصيدته المشهورة التى يُقسِّم فيها نجوم السماء بين شعوب الأرض . ثم فجأة توقف عن الحركة وخفض صوته وقال :

"والآن آتى إليكم ياشعب الإكسهوسا" ثم أخذ ينخفض بجسده حتى ارتكز على ركبتيه وأضاف "إنى أمنحكم نجم الصباح لأنكم قوم ذوو كبرياء وقوة . إنه النجم التى تحسب به السنون . نجم الرجولة" وحينما نطق الكلمات الأخيرة أحنى رأسه على صدره ونهضنا نحن مصفقين مهللين . وشعرت بفخر عميق ليس كإفريقي بل كإكسهوسا ينتمى إلى شعب مختار .

هزنى أداء مفهابى لكنه أيضا أربكنى فقد مضى من موضوع قومى شامل يمس الوحدة الإفريقية إلى آخر ضيق يخاطب به شعب الإكسهوسا وكنت قد بدأت أرى أن لدى الأفارقة من جميع القبائل ما يشتركون فيه لكن هاهو مفهابى العظيم وقد وقف يثنى على الإكسهوسا فوق الجميع . كنت أيضا أرى أن الإفريقي يمكن أن يتصدى للرجل الأبيض ولكننى كنت أرى مصلحتى مع البيض وكان ذلك يتطلب خضوعا فى أحيان كثيرة . وحينما غادرت هيلدتاون فى نهاية العام كنت أفكر فى نفسى كإكسهوسا أولا وكإفريقى ثانيا .

- ٧ -

وفى عام ١٩٦٠ كانت كلية فورت هير الجامعية الواقعة فى إقليم أليس المكان الوحيد للدراسة الجامعية المنتظمة للسود فى جنوب إفريقيا وكانت أيضا المنارة للدارسين الافريقيين

من جميع أنحاء جنوب ووسط وشرق إفريقيا . وقد كان الحاكم يريدنى أن التحق بفورت هير وشعرت بالامتنان حينما قبلت هناك وكنت حينها فى الحادية والعشرين من عمرى .

وكانت فورت هير قد أسستها الإرسالية الإسكتلندية فى مكان ما قد كان أكبر القلاع فى الجزء الشرقى من الكيب وكانت الجامعة تضم مائة وخمسين طالبا فقط وكانت هناك مجموعة ممن كانوا فى كلاركبرى وهيلدتاون . ورغم أن تلك المعاهد التى درست فيها تنتقد كثيرا لكونها استعمارية فى اتجاهاتها وممارساتها لكن بالرغم من ذلك فإننى أعتقد أن فائدتها كانت تفوق ضررها . فقد بنى الارساليون تلك المعاهد وأداروها حين كانت الحكومة لا تريد ذلك . وكانت البيئة التعليمية رغم جحودها الأخلاقى أكثر تفتحا من المبادىء العنصرية التى كانت تؤسس عليها المدارس الحكومية . وكانت فورت هير معمل تفريخ بعض أفضل المثقفين الذين عرفتهم إفريقيا . وأذكر أننى كنت مسافرا يوما من فورت هير إلى أومتاتا بالقطار فى المقصورة المخصصة للأفارقة وجاء الكمسارى الأبيض لفحص التذاكر وحينما رأى أننى قد ركبت من أليس سألنى إن كنت من جامعة جاباڤو فأومأت بالإيجاب . وكان جاباڤو أستاذا افريقيا فى فورت هير تخرج فى جامعة لندن وكان واسع الإطلاع فى تخصصات عدة وخصوصا فى الأنثربولوجى والتاريخ وأنساب الإكسهوسا وكان متحدثا مقنعا ورأس مؤتمر "كل الإفريقيين" عام ١٩٣٦ .

وكان تعليمى فى فورت هير داخل وخارج قاعات الدراسة فقد اشتركت فى النشاطات الرياضية وخاصة كرة القدم

وجرى المسافات الطويلة . وعلمنى الجرى درسا هاما فإنه من الممكن للفرد أن يعوض عن الإستعداد الفطرى بالإجتهاد والتنظيم وقد طبقت هذا فى كل شيء تعلمته . كما أننى التحقت بجمعية المسرح واشتركت فى تمثيل مسرحية . وأيضا تعلمت مع الطلبة فن الرقص الغربى .

وكانت الحياة الإجتماعية والعقلية فى فورت هير تتسم بمستوى من الرفعة غريبا وجديدا علىَّ . وهناك ولأول مرة ارتديت البيچاما واستعملت فرشة الأسنان والمعجون بدلا من استعمال الرماد والخلال كما كنا نفعل فى قريتنا . وكانت المراحيض ذات الصرف الصحى والحمامات ذات الأدشاش الساخنة أشياء جديدة بالنسبة لى .

ورغم أن فورت هير كانت منعزلة عن العالم فقد كنا مهتمين بشدة بتطورات الحرب العالمية الثانية . وكنت أؤيد بريطانيا بحرارة . وكان حماسى شديدا حينما علمت أن المتحدث الأول فى حفل التخرج فى الجامعة عند نهاية سنتى الأولى هو المؤيد الأول لإنجلترا فى جنوب افريقيا وهو رئيس الوزراء السابق جون سماتس السياسى ذو الشهرة العالمية وكان وقتها وهو نائب لرئيس الوزراء يقوم بحملة لكى تعلن جنوب افريقيا الحرب على ألمانيا بينما كان رئيس الوزراء هيرتزوج قد أعلن الحياد . وفى الحفل تكلم سماتس عن أهمية مساندة بريطانيا العظمى ضد الألمان وعن تمثيل بريطانيا للقيم الغربية التى تعتنقها جنوب إفريقيا . وقد صفقت له وزملائى بحرارة لدعوته لخوض معركة لتحرير أوروبا ناسين أننا لم نكن نملك الحرية فى أرضنا .

وكنا فى المساء نتجمع حول المذياع لسماع خطب تشرشل المثيرة . ورغم تأييدنا لموقف سماتس فقد أثارت زيارته كثيرا من المناقشات واتهمه نياثي خونجيسا فى إحدى المناقشات بالعنصرية قائلا إننا ربما نعتبر أنفسنا إنجليزا سودا ولكن الإنجليز اضطهدونا ثم أضاف أنه مهما كان العداء بين البوير والإنجليز فإن المجموعتين بيض وسيتحدان لمواجهة الخطر الأسود . وقد صدمتنا آراء خونجيسا تلك واعتبرناها راديكالية خطيرة وهنا همس زميل لى بأن خونجيسا عضو فى المؤتمر الوطنى الأفريقى وهى منظمة كنت قد سمعت عنها بطريقة مبهمة .

وفى أثناء السنة الثانية فى فورت هير دعوت صديقى بول ماهاباني لقضاء إجازة الشتاء معى فى ترانسكى وكان بول معروفا فى فورت هير لأن أباه كان الرئيس العام للمؤتمر العام للمؤتمر الوطنى الإفريقى مرتين . وكانت صلته بتلك المنظمة قد جعلته يعرف بأنه ثائر .

وذات مرة خلال العطلة ذهبت معه إلى اومتاتا عاصمة ترانسكى وبينما كنا ننتظر خارج مبنى البريد طلب قاضى المدينة الأبيض وكان رجلا فى الستينات من بول أن يشترى له بعض الطوابع . فقد كن عاديا أن يطلب أى فرد أبيض من أى أسود القيام بأى مهمة وحاول القاضى أن يعطى بول النقود ولكنه رفض وشعر القاضى بالاهانة وسأله إن كان يعرف من هو فرد بول قائلا إنه يعرف من هو فسأله القاضى عما يعنى فقال له إنه يعنى أنه وغد . وكان غضب القاضى شديدا وانصرف وهو يتوعده .

شعرت بعدم الارتياح لتصرف بول .. فرغم احترامى لشجاعته فقد وجدتها مربكة ولو كان القاضى قد توجه بطلبه إلىَّ لكنت قد قمت به على الفور . ولكننى أيضا بدأت أفهم أنه ليس على الأسود أن يتقبل كل الإهانات التى توجه إليه .

وعدت بعد الإجازة وكلى شعور بالقوة وركزت على دراستى متخيلا أننى سأحصل على درجة الليسانس خلال سنة واعتقدت أن الدرجة الجامعية هى جواز المرور إلى المراكز القيادية فى المجتمع وإلى النجاح المادى وأننى سيمكننى أن أرد لوالدتى الثروة والمكانة التى فقدتهما بموت والدى .

وفى أثناء السنة تم ترشيحى لانتخاب مجلس الطلبة وكانت الانتخابات تجرى فى الفصل الدراسى الأخير من السنة . وطبقا لدستور فورت هير فإن جميع الطلبة كانوا يقومون بانتخاب الأعضاء الستة . وقبل الإنتخابات بقليل عقد إجتماع لجميع الطلبة لمناقشة المشاكل والحديث عن المظالم وأجمع الطلبة على سوء الوجبات الغذائية وطلبوا زيادة سلطات مجلس الطلبة ووافقت على الاقتراحين وحينما قرر الطلبة مقاطعة الإنتخابات إلا إذا وافقت السلطات على مطالبهم صوت معهم .

وبعد الإجتماع بقليل بدأ التصويت الرسمى للإنتخابات وقاطعها معظم الطلبة عدا خمسة وعشرين طالباً انتخبوا الستة المرشحين الذين قرروا تقديم استقالاتهم .

ولكن المدير د . كير كان حاذقا فقد قبل استقالاتنا وأعلن أن إنتخابات جديدة ستجرى فى اليوم التالى فى قاعة الطعام

وقت العشاء فقد كان ذلك يكفل تواجد جميع الطلبة ولكنه حينما أجريت الانتخابات لم يصوت سوى خمسة وعشرين طالبا منتخبين نفس الأعضاء الستة . وتمسك زملائي الخمسة بحرفية الرأى الذى يقول أنه قد تم إنتخابنا فى حضور جميع الطلبة وعليه فإننا نمثلهم جميعا ولكنني عارضتهم قائلا أنه من الناحية الأخلاقية فإن القول بأننا نمثلهم باطل واستقلت للمرة الثانية .

وفى اليوم التالى استدعيت إلى مكتب المدير الذى كان أيضا المؤسس الفعلى للجامعة وكان يتمتع باحترام كبير . وناقشنى د . كير فى الموضوع وأصررت على موقفى ونصحنى بأن أفكر وأعطيه ردى الأخير فى اليوم التالى . وقال إننى إذا أصررت على استقالتى فسيجد نفسه مجبرا على فصلى من الجامعة .

قضيت الليلة مسهدا فلم يحدث أننى كنت قد اتخذت قرارا مصيريا من قبل . وكنت مترددا بين أن أضحى بحياتى العملية من أجل مبدأ مجرد وبين أن أضحى بالتزامى لزملائى من أجل اهتمامات أنانية .

وحينما سألنى فى اليوم التالى أجبته بأننى لا أستطيع أن أقبل العضوية بضمير مستريح وهنا بدا عليه الاندهاش وبعد تفكير قرر أن يمنحنى فرصة إجازة الصيف للتفكير . وبينما قدرت موقفه ورغبته فى أن يمنحنى فرصة أخرى ساءنى تحكمه المطلق فى قدرى فقد رأيت أن من حقى أن أستقيل وألهبنى الشعور بالظلم وبدأت أرى د . كير ليس كرجل ذا فضل ولكن كشخص مستبد تعوزه الطيبة .

وحينما عدت إلى مفهيكزوينى بعد نجاحى أبلغت الحاكم بما حدث الأمر الذى سبب شديد غضبه ورأى موقفى ضربا من الجنون وأمرنى بأن أطيع أوامر العميد وأن أعود إلى فورت هير . وكان چاستيس الذى كان يعيش فى كيب تاون بعد أن أنتهى من دارسته قد عاد فى اجازة .

وذات يوم استدعانا الحاكم وقال لنا أنه رأى أن يزوجنا وأنه قد اختار فتاتين من أسرتين طيبتين وأنه قد تم دفع ثمن العروسين . وتركت أنا وچاستيس الإجتماع مشدوهين مكتئبين . وفى ذلك الوقت كان حسى الاجتماعى أكثر نموا من حسى السياسى فبينما لم أكن مستعدا أن أحارب النظام السياسى للرجل الأبيض كنت على استعداد للثورة ضد النظام الإجتماعى لقومى ورفضت أن يختار أحد لى عروسا ولو كان الحاكم نفسه .

ورفض الحاكم تغيير رأيه ووجدت أن لا خيار لى إذ أننى كنت لا أستطيع البقاء فى حمى الحاكم إن رفضت رأيه . ثم اتفقت وچاستيس على الهرب إلى جوهانسبرج . وكان الحاكم يستعد للسفر ليحضر دورة المجلس التشريعى فى ترانسكى وقررنا الهرب بعد سفره . ولم يكن معنا نقود فذهبنا إلى مشتر وعرضنا عليه شراء اثنين من أفضل ثيران الحاكم واعتقد الرجل أننا نفعل ذلك بناء على طلبه فأعطانا ثمنا طيبا استأجرنا ببعضه سيارة لتوصلنا إلى محطة القطار الإقليمية . لكن الحاكم كان قد استبقنا وأخبر المدير بأن يرفض أن يبيعنا

تذاكر وكانت تلك هى الإجابة التى تلقيناها فى المحطة فأسرعنا إلى السيارة وطلبنا من السائق توصلينا للمحطة التالية وتمكنا أن نستقل القطار لكن فقط إلى كوينز تاون . ففى الأربعينات كان السفر معقدا للأفارقة فقد كان عليهم أن يحملوا تصاريح مرور يبرزونها عند الطلب وكان تجاهل التصريح يعنى المحاكمة والسجن أو الغرامة وكان التصريح ينص على محل السكن وإسم رئيس القبيلة بالإضافة إلى جميع التفاصيل عن حامله ويوقعه صاحب العمل .

ورغم أنه كان لدىَّ وچاستيس تصاريح صحيحة إلا أننا كأفارقة كان علينا أن نحصل على وثيقة سفر وخطاب من صاحب العمل أو الوصى علينا لكى نغادر الإقليم وفشلت محاولاتنا مع المسئولين نظرا لتدخل الحاكم المفاجىء . وتذكر چاستيس أن له صديقا يعمل فى مكتب محام وذهبنا إليه وعرضنا عليه الأمر فأخبرنا بأن والدة المحامى ستذهب بالسيارة إلى جوهانسبرج . ودفعنا لها مبلغ ثلاثين جنيها لتوصيلنا وقضى هذا المبلغ على معظم ما معنا من نقود .

الجـزء الثانــى
جـوهـانسـبــرج

- ٩ -

كان الوقت فجرا حينما وصلنا إلى مكتب مناجم التاج التى كانت تقع على هضبة وسط التلال المطلة على المدينة . وكانت جوهانسبرج قد أسست حول المناجم عند إكتشاف الذهب عام ١٨٨٦ .

ذهبنا فورا إلى رئيس العمال واسمه بيليسو وكان قد سمع عن چاستيس حينما ارسل الحاكم خطابا منذ أشهر لكى يحصل چاستيس على وظيفة كاتب وقدمنى چاستيس على أننى أخيه وعينت حارسا فى المنجم . وكانت لكلمة الحاكم وغيره من رؤساء القبائل ثقلها فى المنجم لما يتمتعون به من سلطة على الرجال فى الريف والذين يحتاج إليهم المختصون كعمال وكانت سلطة المناجم تريد من الرؤساء ترغيب الأشخاص المحليين فى العمل بالمناجم ولذا فكان الرؤساء يعاملون معاملة خاصة وتخصص لهم منازل فى أرض المناجم حين حضورهم للزيارة . وهكذا عوملت وچاستيس معاملة خاصة ومنحنا وجبات غذائية وأماكن للنوم وراتبا صغيرا . وكانت السلطات تفصل العمال تبعا للقبائل التى ينتمون إليها ضمانا لعدم تضامنهم وكان ذلك الفصل كثيرا ما يتسبب فى نزاعات بين الجماعات القبلية المختلفة .

وبدأت عملى فورا كحارس ليلى ـ وكان عملى بسيطا فقد كنت أنتظر عند مدخل المجمع إلى جانب اللافتة التى تقول "حذرا ـ هنا معبر الأفارقة" وأقوم بفحص مستندات الأفراد الذين يعبرون .

تحت تأثير النجاح تباهيت وجاستيس يوما أمام صديق من إقليمنا كان يعمل بالمناجم بتحايلنا على السلطات . ووشى بنا الصديق عند رئيس العمال الذى استدعانا وقال إنه أبرق إلى الحاكم وأن الحاكم أمر بإرسالنا فورا إلى بلدتنا وكان رئيس العمال غاضبا واتهمنا بالغش والتزوير .

وبعد ذلك قمنا بالاتصال ومقابلة بعض من لهم سلطات وأخبرناهم بمعلومات ملفقة ولكن كان أمرنا يُكتشف فى آخر لحظة ولم تفلح محاولاتنا للعمل بالمناجم .

وانتهى بى المقام إلى الإقامة مع أحد أبناء عمومتى ويدعى جارليك وكان يعمل بائعا جائلا وأخبرته برغبتى فى العمل بمكتب محاماه فقال إنه سيبحث الأمر وبعد أسابيع أخبرنى أنه سيصطحبنى لمقابلة أحد أفضل الناس فى جوهانسبرج .

وكانت جوهانسبرج فى تلك الأيام خليطا من المدن الحدودية والمدينة الحديثة . فقد كان الجزارون يقومون بتقطيع اللحوم فى الطريق بجانب المبانى المكتبية . وكانت الخيام تقام إلى جانب المحلات الحديثة والنساء ينشرن غسيلهن الى جانب المبانى الشامخة . وكان هناك نظرا لظروف الحرب العالمية طلب شديد على العمالة ولذا اجتذبت

جوهانسبرج الأفارقة من الأقاليم الأخرى وكانوا يجدون عملا فى المصانع وسكنا فى المناطق غير الأوروبية مثل الكسندرا وصوفياتاون ومنطقة الوطنيين القريبة وكانت عبارة عن مجمع كالسجون يحوى عدة آلاف من المنازل من طراز صندوق الثقاب مقامة على أرض جرداء .

وذهبت أنا وجارليك وجلسنا فى غرفة انتظار الرجل الذى كان وكيل عقارات بينما أخبرته موظفة الإستقبال الإفريقية بوجودنا وبعدها أخذت تكتب على الآلة الكاتبة برشاقة وملأنى الاعجاب لأننى لم أكن قد رأيت إفريقيا يستعمل الآلة الكاتبة .

وعند دخولى مكتب رئيسها رأيته شابا إفريقيا تنم ملامحه عن الذكاء والطيبة ويتحدث الإنجليزية بلكنة المدينة ويبدو عليه الانشغال والنجاح وكان إسمه وولتر سيسولو . كان يدير مكتبا عقاريا متخصصا فى ممتلكات الأفارقة . ففى الأربعينيات كان من الممكن للأفارقة حيازة ممتلكات محدودة فى أماكن معينة مثل صوفيا تاون والكسندرا وكانت ترجع حيازة بعضهم إلى أجيال عديدة . أما فى باقى المناطق الإفريقية من جوهانسبرج فكانوا يستأجرون المنازل من مجلس المدينة .

كان سيسولا قد بدأ يبرز كرجل أعمال وقائد محلى وعندما أخبرته برغبتى فى العمل بالقانون وعن عزمى على التسجيل فى الجامعة للحصول على درجة فى القانون أخبرنى عن محام أبيض يدعى لازار سيدلسكى وقال إنه شخص تقدمى يهتم بتعليم الأفارقة وأنه سيبحث حالتى معه . كنت أعتقد فى فورت هير أن القيادة والنجاح فى العمل والطلاقة فى

الانجليزية تتطلب مؤهلا جامعيا ، ولكننى إكتشفت أن وولتر سيسولا لا يحمل أى مؤهلات وكان ذلك درسا لى .

كنت وقتها أقيم مع عائلة من الإكسهوسا فى غرفة ذات سقف من الصاج بناها صاحب المنزل خلف سكنه ليدر دخلا اضافيا فى منطقة الكسندرا .

ووافق لازار سيدلسكى على أن أعمل بمكتبه إلى أن أكمل درجتى الجامعية . وكان مكتبه أحد أكبر مكاتب المحاماة فى جوهانسبرج ويتعامل مع السود والبيض . ولكى يصبح الفرد محاميا فى جنوب إفريقيا فإن عليه إلى جانب الدراسة أن يتدرب عدة سنوات مع محام ممارس . وبدأت دراسة ليلية فى جامعة جنوب افريقيا التى كانت تمنح درجات علمية بالمراسلة .

وكان ضمن ممارسات المكتب مساعدة الأفارقة الراغبين فى الحصول على قرض لسداد قيمة صكوك الرهونات ورغم أن المكتب كان يتقاضى الجزء الأكبر من القرض فلم يكن لدى الأفارقة بديل . ورغم ذلك فقد كان المكتب وكان صاحبه يهوديا من أكثر المكاتب ليبرالية وكان يقبل أن يعمل فيه أفارقة . وكان صاحبه عطوفا وكان يقول لى دائما أننى لو أصبحت محاميا ناجحا فسوف أصبح نموذجا لمواطنيي .

ورغم ذلك كانت هناك تفرقة عنصرية فى المكتب مثل إصرار السكرتيرة البيضاء وبطريقة معسولة أن نشرب أنا وزميلى الإفريقى جور الشاى من فناجين خاصة بنا . وكان جور يتحداها ولا يفعل ، أما أنا فقد امتعنت عن شرب الشاى

فى المكتب . وأيضا ، وبينما كنت أملى بعض المعلومات على سكرتيرة بيضاء دخل عميل تعرفه ولكى تبرهن على أن شخصا إفريقيا لم يكن يمليها معلومات أخرجت عملة من حقيبتها وطلبت منى الذهاب لشراء شامبو لها . وفعلت .

كان عملى فى البداية بسيطا لكن السيد سيدلسكى كان لا يألو جهدا فى شرح تفاصيل أى حالة وأسبابها وتفاصيل القانون وخلفيته الفلسفية . وكان يؤمن بأن القانون آلة يمكن استغلالها لتغيير المجتمع ورغم ذلك فقد حذرنى من ممارسة السياسة ومن مخالطة المشاغبين الغوغائيين من أمثال جور راديبى وولتر سيسولو .

وكان جور مشاغبا بشكل لم يشك فيه سيدلسكى فقد كان عضوا فى المجلس الإستشارى للمنطقة الوطنية الغربية وكانت مهمته معالجة مشاكل الوطنيين مع السلطات وكان أيضا عضوا فى المؤتمر الإفريقى والحزب الشيوعى .

وكان جور مثالا للرجل غير الحاصل على شهادة عليا والذى كان أكثر علما وثقافة بمراحل من كثير ممن تخرجوا فى فورت هير وكان أيضا جريئا واثقاً .

لم أكن الكاتب الوحيد بالمكتب فقد التحق بالعمل بعدى بقليل نات بوجمان وكان مفكرا نابها لطيفا ولم يكن لديه تمييز للون البشرة وأصبح أول صديق أبيض لى .

وفى أحد الأيام كنا فى المكتب وقت الغداء وأخرج نات لفافة من السندوتشات وأمسك أحدها وطلب منى أن أمسك بالطرف الآخر للسندوتش ففعلت وطلب منى أن أقوم بجذب

الطرف الذى أمسكه فانشطر الساندوتش قسمين وطلب منى أن آكل ثم قال إن ما فعلناه يمثل فلسفة الحزب الشيوعى وهو اقتسام كل ما نملك وأخبرنى أنه عضو فى الحزب وشرح لى أوليات مبادئه وشرح لى فى مناسبات أخرى عدة فضائل الشيوعية محاولا إقناعى ولكننى بالإلتحاق بالحزب وكنت أوجه الأسئلة ولكننى لم أكن أرغب فى الإلتحاق بأى منظمة سياسية عملا بنصيحة سيدلسكى .

وكنت أذهب مع نات إلى أماكن عديدة من ضمنها حضور محاضرات في مقر الحزب وكنت أفعل ذلك من باب الاستطلاع العقلى فقد كنت بدأت أهتم بتاريخ الاضطهاد العنصرى الذى كنت أراه على أنه عرقى فقط بينما يراه الحزب على أنه صراع طبقات ولكننى اعتقدت أن ذلك لا ينطبق على الحال فى جنوب افريقيا ولكننى كنت أستمع فقط .

وقد قام نات بدعوتى لحفلات عدة يؤمها بيض وأفارقة وهنود وملونون كان ينظمها الحزب ووجدت هناك أناسا لا يعبأون بلون الإنسان غير أننى كنت أشعر بأننى غير مؤهل للإشتراك فى أحاديثهم المشتعلة فقد كانت أفكارى لا تضارع أفكارهم الناضجة المصقولة .

- ١٠ -

كانت الحياة فى منطقة الكسندرا مثيرة محفوفة بالمخاطر . ورغم وجود بعض الأبنية الجميلة كان الحى من مناطق الفقراء القذرة ودليلا على إهمال السلطات . كانت الطرق قذرة غير معبدة مليئة بالأطفال الجوعى أشباه العرايا يجوبون المكان .

وكان الجو مفعما بدخان مواقد الفحم وكان هناك صنبور مياه واحد يخدم عديدا من المنازل . كانت المنطقة تعرف بالمدينة المظلمة حيث لم تكن فيها كهرباء . وكان المشى ليلا فى طريق العودة إلى المنزل خطرا حيث كانت تخترق الظلام صيحات وضحكات وأحيانا أصوات طلقات نارية . كان الازدحام شديدا حيث كان يحتل كل قدم مربع فى المنطقة اما مبنى متهالك أو كوخ ذو سقف من الصفيح . وكانت البندقية والمدية تسيطر على حياة الناس هناك . أما هجمات الشرطة فكانت مظهرا منتظما للحياة هناك حيث كان يلقى القبض على جماعات من الناس لخرقهم نظام تصاريح المرور أو حيازتهم كحولا أو لعدم دفعهم ضريبة الرؤوس . ولكن رغم ذلك كانت المنطقة جنة للأفارقة حيث كانت أحد الأماكن القليلة فى البلد التى كان للأفارقة فيها حق تملك العقارات وإدارة شئونهم دون اللجوء لطغيان المجالس البلدية البيضاء وكانت المنطقة لهذا تمثل أرض الميعاد للأفارقة وخاصة القادمين من الريف . وكانت السلطة تدعى أن الأفارقة بطبيعتهم غير مؤهلين لسكنى المدن وذلك لتمد وجودهم فى الأقاليم وفى مناطق المناجم . وكانت الحياة فى الكسندرا تدحض مثل ذلك الإدعاء حيث قطنها أفراد من جميع القبائل وكانوا على وعى سياسى . ويبدو أن الحياة فى المنطقة كانت تعمل على ازالة الفوارق الإثنية القبلية فبدلا من كوننا زولو أو إكسهوسا أو سوتو أو شانجان كنا جميعا ننتمى إلى الكسندرا . أما الحكومة فكانت تتبع فى تعاملها مع الأفارقة سياسة فرق تسد .

وفى عامى الأول هناك خبرت الفقر كما لم أخبره طوال اقامتى فى قونو . فقد كنت اتقاضى جنيهين فى الاسبوع على

أن أدفع منها ثلاثة عشر شلنا أجرة سكنى وكانت حافلة نقل الوطنيين وهى أرخص وسائل المواصلات تكلفنى جنيها وعشر بنسات فى الشهر كما كنت أدفع مصاريف جامعة جنوب إفريقيا وأنفق حوالى جنيه على الطعام علاوة على ثمن الشموع للاستذكار . وكنت فى أيام كثيرة اضطر إلى السير ستة أميال فى الذهاب للعمل والعودة وكانت تمر أيام لا أتناول فيها ما يقيم أودى ولا أغير ملابسى . وكان سيدلسكى قد أعطانى إحدى حلله القديمة التى ظللت ارتديها خمس سنوات حتى أصبح فيها من الرقع أكثر مابها من قماشها الأصلى .

وبالتدريج بدأت التعود على الحياة فى المنطقة وبدأ ينمو داخلى شعور بالقوة الذاتية وعقيدة أننى أستطيع النجاح خارج المحيط الذى نشأت فيه وببطء اكتشفت أن علىَّ ألا أعتمد على صلاتى الملكية أو دعم أسرتى لكى أتقدم فى الحياة .

وفى نهاية عام ١٩٤١ تلقيت رسالة عن زيارة الحاكم لجوهانسبرج وعن رغبته فى أن يرانى . وعند مقابلته وجدته قد طرأ عليه كثير من التغيير . ولم يذكر شيئا لى عن هربى أو فورت هير أو الزواج . وكان دمثا لطيفا وساءلنى بأبوة عن دراستى وخططى للمستقبل وعرف أن حياتى ستأخذ مجرى غير الذى كان قد رسمه لها ولم يحاول اثنائى .

وكان لمقابلته أثر مزدوج فقد شعرت بالانتماء مرة أخرى وبتقديرى لأسرة ثمبو الملكية . وكان الحاكم مليئا بالأسى بخصوص چاستيس وكان يرى أنه يجب أن يعود إلى مفهيكزوينى وكان چاستيس لا ينوى العودة وساندت

چاستيس حينما استدعاه المفوض الوطنى بعد أن كلف والده احد معاونيه باتخاذ الاجراءات القانونية ضده ، وهنا قال معاون الحاكم إن الحاكم قد تبنانى وعلمنى وعاملنى كإبنه وأنا الآن أريد ابعاد ابنه عنه . فشعرت بالخجل وقلت لچاستيس أنه يجب أن يعود لكنه رفض .

وفى عام ١٩٤٢ ومن أجل توفير أجرة المواصلات قررت السكنى بالقرب من قلب المدينة فى مجمع عمال المناجم وساعدنى فى ذلك السيد فستايل الذى كان يعمل فى غرفة المناجم حيث كان السكان من إصول إثنية مختلفة ويتكلمون لغات متفرقة وتشتعل بينهم العداوت .

وبعد أقل من ستة أشهر من زيارة الحاكم علمت وچاستيس بوفاة والده فى شتاء عام ١٩٤٢ فأسرع كلانا إلى ترانسكى ووصلنا بعد الجنازة بيوم .

وفى نهاية عام ١٩٤٢ حصلت على درجة الليسانس .. ورغم شعورى بالفخر لهذا الإنجاز فقد كنت أعلم أن الدرجة العلمية ليست جوازا للنجاح .

أما فى المكتب فقد توثقت علاقتى بجور مما ضايق سيدلسكى . وكان جور يقول أن التعليم أساسى لتقدم شعبنا لكن لم يقم شعب أو أمة بتحرير أنفسهم بواسطة التعليم فقط وكان يؤمن بالاتيان بالحلول وليس بإيجاد النظريات كما كان يقول إن آلة التغيير بالنسبة للأفارقة هى المؤتمر الوطنى الإفريقى الذى كان قد أسس عام ١٩١٢ وينكر دستور العنصرية وله رؤساء ينتمون إلى مختلف القبائل كما أن هدفه هو حق المواطنة الكاملة للأفارقة فى البلاد .

ورغم أن جور لم يتلق تعليما منهجيا فقد كان يفوقنا جميعا معرفة . وفى أثناء فترة الغداء كان يلقى علىَّ محاضرات مرتجلة وكان يعيرنى كتبا ويزكى لى أشخاصا اتحدث إليهم واجتماعات احضرها . ومما ترك أثرا عميقا فى نفسى هو التزام جور الكامل بمعركة الحرية وكان يحضر أحيانا عدة اجتماعات فى اليوم الواحد يبرز فيها كمتحدث مرموق . وكنت أحضر مع جور الاجتماعات كمراقب فقد كنت أرغب فى فهم المواضيع التى تناقش . وكانت اجتماعات المؤتمر مليئة بحيوية الحوار والنقاش عن البرلمان وقانون التصاريح والايجارات والمواصلات وأى موضوع يؤثر فى حياة الأفارقة .

وفى أغسطس عام ١٩٤٣ أشتركت مع جور فى مسيرة كبيرة لمؤازرة مقاطعة منطقة الكسندرا لخدمة الحافلات احتجاجا على رفع الأجرة . وكان لتلك الحملة أكبر الأثر علىَّ ، وإلى حد ما بدأت أترك دور المراقب . وكانت نتيجة المقاطعة مؤثرة فقد عدلت الشركة عن رفع الأسعار .

وكان سيدلسكى دائم التحذير لى من جور وسيسولو قائلا أنه إن أردت أن أصبح محاميا ناجحا فعلىَّ ألا أقرب السياسة وإلا فسأقع فى مشاكل مع السلطات وأفقد زبائنى وأهدم أسرتى وينتهى الأمر بى فى السجن . وكنت قد بدأت بالفعل أميل للتورط السياسى لكننى التزمت التؤدة غير متأكد مما يجب عمله .

وكان جور أيضا سبب تقدمي الوظيفى فقد قال لى يوما أنه طالما يعمل هو فى المكتب فلن يلتزم أصحاب العمل بعقد معى

رغم حصولى على المؤهل الجامعى لأنه هو يقوم بما يلزم ويجلب العملاء للمكتب ولهذا قرر ترك المكتب قائلا إنه سيفتح مكتبا عقاريا وأضاف أنه من المهم لحركة الكفاح أن أصبح أنا محاميا ولن يتأتى ذلك سوى بتركه العمل . ونفذ ذلك وحدث ما توقع .

وبدأت اتحرك فى جوهانسبرج فى دوائر كانت فيها الحكمة والتجربة أهم من الدرجة الجامعية . ففى الجامعة كان الأساتذة يتحاشون ذكر قضايا مثل الاضطهاد العنصرى ومجموعة القوانين المتشابكة التى تخضع الرجل الأسود . ولكن حياتى فى جوهانسبرج جعلتنى أواجه تلك الأشياء يوميا .

وفى عام ١٩٤٣ سجلت إسمى فى جامعة ويتسواتر سراند للحصول على درجة الليسانس فى القانون وهو نوع من الاعداد الأكاديمى للمحامى تحت التمرين . وتقع الجامعة فى الجزء الشمالى الأوسط من جوهانسبرج وتعرف بويتس ويعتبرها كثيرون على رأس الجامعات المتحدثة بالإنجليزية فى جنوب إفريقيا وكانت تلك الجامعات معملا عظيما لإفراز القيم الليبرالية ومن ضمن فضائلها أنها كانت تقبل الطلبة السود على عكس الجامعات الأفريكانية . ورغم أننى هناك اكتشفت مجموعة من البيض المتعاطفين مع القضية والذين أصبحوا اصدقاء وزملاء فيما بعد فإن أغلبية البيض فى الجامعة كانوا عنصريين . وأذكر أننى وصلت متأخرا إلى إحدى المحاضرات فجلست إلى جانب طالب أصبح فيما بعد عضوا فى البرلمان فجمع اشياءه بطريقة ملفتة للنظر وجلس

بعيدا ولم يكن هذا التصرف غريبا بل كان هو القاعدة ورغم أن أحدا لم يوجه لى لفظ "كافير" وكانت عداوتهم صامتة لكننى كنت أحسها من الطلبة والأساتذة .

وفى الجامعة ألتقيت بأفراد عديدين ممن سيشاركوننى نجاحات وفشل معركة التحرير وقد بذل عدد من الطلبة البيض جهدا لإشعارى بأننى مرغوب فى . والتقيت بجو سلوفو وزوجته المقبلة روث فيرست . وكان جو كما هو الآن ذا عقلية جادة ذكيا . وكان شيوعيا متحمسا وكانت روث شخصية متفتحة وكاتبة موهوبة وكلاهما كان من اليهود المهاجرين . وهناك أيضا بدأت صداقة عمرى بجورج بيزوس وبرام فيشر وكان جورج من أصل يونانى أما برام فكان محاضرا خارجيا وابن أسرة مرموقة من الأفريكان وكان والده رئيس وقاضى ولاية أورانج الحرة ورغم أنه كان باستطاعته أن يصبح رئيس وزراء جنوب افريقيا فقد أصبح أحد أشجع وأشد أصدقاء معركة الحرية اخلاصا . كذلك صادقت تونى أودوود وهارولد وولب وجولس برادرى وزوجته سيلما وكانوا جميعا سياسيين راديكاليين من أعضاء الحزب الشيوعى . وكذلك كونت صداقات مع عدد من الطلبة الهنود مير وجـ . ن . سينج وأحمد بولا ورملال بهوليا . وكان إسماعيل مير مركز تلك المجموعة وشقته الواقعة فى منتصف المدينة مركز التقائنا واصبحت نوعا من مقر القيادة لشبان حركة التحرر .

وحدث ذات مرة أن كنت أنا وسينج ومير فى عجلة من أمرنا فركبنا الترام رغم أن ذلك كان محظورا على الأفارقة وجاء مفتش التذاكر وقال لهما ان على زميلهما "الكافير" أن يغادر

الترام وانفجرا فيه قائلين أنهما لا يفهمان معنى الكلمة وأنه لا يجب أن يدعونى بذلك اللقب فأوقف الرجل الترام واستدعى الشرطى الذى اصطحبنا إلى المخفر ووجهت إلينا التهمة وكان علينا أن نظهر فى المحكمة فى اليوم التالى وهنا استدعى مير وسنج برام فيشر للدفاع عنا وأصاب المحققون الذعر من صلات برام العسكرية وأفرج عنا . وهنا رأيت لأول مرة أن العدالة ليست عمياء .

لقد فتحت عالما جديدا ، أمامى ، عالما من الفكر والعقائد السياسية والحوار . كنت بين مثقفين بيض وهنود من أبناء جيلى ممن كان لهم أن يكونوا طليعة أهم الحركات السياسية فى السنوات القليلة القادمة .

الجـزء الثالـث
طريق المكافح من أجل الحرية

- ١١ -

لا أستطيع تحديد اللحظة التى سُيِّسْتُ فيها والتى عرفت فيها أننى سأمضى حياتى فى الكفاح من أجل الحرية . ولأن تكون افريقيا فى جنوب إفريقيا يعنى أن تُسَيَّسْ منذ الميلاد . فالطفل الإفريقي يولد فى مستشفى للأفارقة فقط ويحمل للمنزل فى حافلة الأفارقة ويعيش فى مناطق الأفارقة ويلتحق بمدارس الأفارقة هذا إذا التحق بمدارس أصلا . وحينما يكبر يقوم بالأعمال التى يقوم بها الأفارقة فقط ويركب قطارات الأفارقة ويؤمر فى أى وقت من الليل والنهار ليبرز تصريحه وإذا لم يفعل يلقى به فى السجن وتحد حياته القوانين واللوائح العنصرية التى تعوق نموه وتضيع إمكاناته وتشل حياته .

لم أتلق رؤيا أو أمر بلحظة الصدق ، ولكنها كانت تراكمات متطردة لآلاف الاهانات .. وآلاف اللحظات هى التى ولدت فىَّ الغضب والتمرد والرغبة فى محاربة النظام ،ووجدت نفسى ببساطة أكرس نفسى لحركة تحرير شعبى ولم يكن بمقدورى غير ذلك .

وقد تولى وولتر سيسولا توعيتى وتعليمى بحكمة فقد كان قويا ، متزنا ، عمليا ومتفانيا . وكان يعتقد أن المؤتمر الوطنى

هو الوسيلة لتحقيق التغيير فى جنوب إفريقيا وكان المؤتمر يرحب بالجميع وكانت المنظمة التى ترى نفسها مظلة يلتجىء إليها كل شعب جنوب إفريقيا .

وفى عام ١٩٤١ عقد ميثاق الأطلنطى الذى كان يتبنى عددا من المبادىء الديمقراطية ورغم أن البعض فى الغرب كان يرى فيه وعودا فارغة فلم يكن الحال كذلك فى افريقيا وبإيحاء من ذلك الميثاق وضع المؤتمر الإفريقى ميثاقه الذى نادى فيه بالمواطنة الكاملة لكل الافريقيين وبإلغاء التشريعات العنصرية فقد كان أملنا أن ترى الحكومة والفرد العادى أن المبادىء التى نحارب من أجلها هى نفسها التى حاربت من أجلها أوروبا .

وكان منزل وولتر ملتقى أعضاء المؤتمر . وهناك فى عام ١٩٤٣ التقيت بأنتون ليمبيد الذى كان يحمل عدة شهادات عليا ويفكر بطريقة مبتكرة وكان أحد المحامين الأفارقة الذين يعدون على الأصابع وكان يقول إن افريقيا قارة الرجل الأسود وأن على الأفارقة أن يثبتوا ذاتهم ويستردوا مالهم . وكان يكره عقدة النقص السوداء ويهاجم عبادة وتقديس الغرب وافكاره وكان يقول "إن لون بشرتى جميل كلون تربة إفريقيا الأم" .

وكان والد ليمبيد فلاحا أميا من الزولو من إقليم ناتال . أما هو فقد درس فى كلية آدم ليصبح مدرسا وقام بالتدريس عدة سنوات فى ولاية أورانج الحرة وتعلم اللغة الأفريكانية . وقد كتب فى صحيفة أفريكانية قائلا : "إن التاريخ الحديث هو تاريخ القوميات . وقد تم اختبار القومية فى معارك الشعوب

وتحت نيران المعارك ووجد أنها الترياق الوحيد ضد الحكم الأجنبى والامبريالية الحديثة . وهذا هو السبب فى أن القوى الامبريالية الكبيرة تحاول بكل قواها وبطريقة محمومة أن تحبط وتزيل كل الميول القومية بين رعاياها الأجانب . وتصرف المبالغ الباهظة بسخاء على الدعاية ضد القومية ووصفها بالضيق والبربرية وغير الحضارية والشيطانية . وقد وقع البعض فى مصيدة تلك الدعايات وأصبحوا أدوات للامبريالية ونظيرا لخدمتهم فإن القوى الامبريالية تغدق عليهم المديح وتصفهم بأنهم مثقفون وليبراليون وتقدميون وذوى أفق متسع" .

وقد لقيت آراء ليمبيد صدى فى نفسى . فقد كنت أنا تحت تأثير أبوة الإستعمار الإنجليزى ، وتحت جاذبية أن ينظر إلىّ البيض على أنى مثقف وتقدمى ومتحضر فقد كنت على وشك الانضمام للنخبة السوداء التى حاولت بريطانيا أن تزرعها فى إفريقيا وكان ذلك ما أراده الجميع لى ابتداء من الحاكم وحتى سيدلسكى . ومثل ليمبيد بدأت أعتقد أن الترياق هو القومية الإفريقية المناضلة .

كان هناك شباب آخرون يفكرون على الخط نفسه وكنا نلتقى لمناقشة تلك الأفكار . كان هناك وولتر سيسولو وأوليفر تامبو ود . ليونيل ماجو مبوزى ووليام نوكولو وداڤيد بوبابى . وكان الكثيرون من الشباب يشعرون بأن المؤتمر أصبح متحفا لنخبة إفريقية مميزة متعبة وغير مناضلة . وكان الإجماع أنه لابد من القيام بعمل واقترح د . ماجو مبوزى تكوين تنظيم للشباب كطريقة لإيقاد النار تحت قيادة المؤتمر .

وفى عام ١٩٤٣ ذهبت لمقابلة د . إكسوما وكان يمتلك منزلا فخما فى صوفيا تاون بالاضافة إلى عيادة جراحة ومزرعة صغيرة . وكان وقتها رئيسا للمؤتمر وقد أدى إليه خدمة جليلة بايقاظه من حالة النعاس والتقاعس التى كان يعانيها تحت القيادة السابقة وأفاده إفادة مادية عظيمة كما أنه هو شخصيا كان يتمتع باحترام رؤساء القبائل والوزراء . وكان ذا مظهر شامخ واثق مطمئن لا يناسب مظهر قائد منظمة جماهيرية . وكان اهتمامه الأول عمله كطبيب كما انه كان يريد الإبقاء على العلاقات التى كونها مع مؤسسات البيض ولم يكن يريد أن يعرضها للخطر بالعمل السياسى .

وعند لقائنا أخبرناه بأننا ننوى إنشاء تنظيم للشباب وتنظيم حملة عمل نحشد بها مساندة الجماهير . وكنا قد احضرنا معنا نسخة من مسودة دستور التنظيم والإعلام . ولكن د . إكسوما شعر بأن الدستور والتنظيم يهددانه وعارضها بشدة .

وبعد ذلك بقليل شكلت لجنة إقليمية لتنظيم الشباب بقيادة ويليام نكومو ثم حضر أعضاؤها اجتماع المؤتمر السنوى وقدموا اقتراحهم وقبل الاقتراح .

وفى أول اجتماع أكد المتحدثون على إنجازات الإفريقيين وعلى القومية الإفريقية الوليدة وتمت انتخابات الإدارة وانتخبت أنا فى اللجنة التنفيذية .

كانت صيحة الحرب لدينا هى القومية الإفريقية وكانت عقيدتنا هى خلق أمة واحدة من القبائل العديدة واسقاط

سيادة البيض وانشاء حكومة ديمقراطية . وكنا على حذر شديد من الشيوعية وقد مضى اعلاننا على أنه يجوز لنا أن نستعير من الأيديولوچيات الأجنبية ولكننا نرفض استيراد ايديولوچيات أجنبية بالجملة فى افريقيا .

وكنت مرتبكا بشأن انضمامى للمنظمة وبشأن مدى التزامى السياسى فقد كانت لدىّ وظيفة وكنت منتسبا للجامعة ولم يكن عندى متسع من الوقت لشيء آخر . كما أنه كان يساورنى شعور عدم ثقة بوعيي وثقافتى السياسية بالمقارنة بوولتر وليمبيد ومدا كما أننا كنا مازلنا مختلفين حول إفريقية التنظيم وعما إذا كنا سنسمح لعناصر من البيض بالالتحاق وكنت فى ذلك الوقت معارضا لانضمام الشيوعيين والبيض .

وكان منزل سيسولو منزلا لى أيضا وكانت زوجته ذات حكمة وحضور مدهش . وبينما كنت فى غرفة معيشتهم يوما التقيت بإيڤيلين ميس زوجتى الأولى وكانت فتاة هادئة جميلة من الريف وكانت حينئذ تتدرب لتصبح ممرضة فى مستشفى جوهانسبرج العام لغير الأوروبيين . وكانت فتاة يتيمة من ترانسكى أرسلت لتتم تعليمها الثانوى فى جوهانسبرج وكانت تمت بصلة قرابة لوالدة سيسولو .

وحدثت بيننا علاقة حب أعقبها زواج مدنى حيث لم يكن باستطاعتنا تحمل تكاليف زواج تقليدى . وواجهتنا مشكلة السكن . فبعد إقامة قصيرة مع أخيها فى شرق أورلاندو أقمنا مع أختها فى منطقة المناجم حيث كان زوجها يعمل كاتبا .

في عام ١٩٤٦ وقعت سلسلة أحداث حاسمة شكلت تطور واتجاه الصراع . فقد حدث أن قام ٠٠٠ر٧٠ من عمال المناجم باضراب . وكان إتحاد عمال المناجم الافريقية قد أقيم بناء على مبادرة من جـ . ب . ماركس ، ودان تلوم ، وجور ردايبي وعدد من عناصر المؤتمر النشيطة وكان معظم عمال مناجم السخرة وعددهم حوالى ٠٠٠ر٤٠٠ لا يزيد أجرهم على ٢ شلن في اليوم وقد حاولت قيادة الاتحاد أن تضغط على غرفة المناجم لتحديد أجر أدني يقدر بعشرة شلنات في اليوم ومسكن عائلي وإجازة إسبوعين بأجر ولكن الغرفة تجاهلت هذه المطالب .

وفيما يعتبر من أكبر العمليات في جنوب إفريقيا فقد أضرب عمال المناجم لمدة إسبوع وأبقوا على تضامنهم . وكان انتقام الدولة لا هوادة فيه فاعتقل القادة وحوصرت المجمعات السكنية ونهبت مكاتب الاتحاد وقمعت الشرطة مسيرة احتجاج وقتل اثنى عشر عاملا .

وكان ماركس وهو عضو قديم في المؤتمر والحزب الشيوعي رئيسا للإتحاد . وكان من مواليد الترنسفال من أصل مختلط ، ذا شخصية كارازماتية وكنت أنتقل معه أثناء الاضراب بين المناجم مخاطبين العمال ومخططين لاستراتيجية العمل . وقد أعجبني تنظيم الاتحاد وقدرته على التحكم في الاعضاء حتى في مواجهة تلك المعارضة الوحشية . وانتصرت الدولة وقمع الاضراب وسحق الاتحاد .

وكان الاضراب بداية علاقتى الوثيقة بماركس وكنت أزوره فى منزله وقد ناقشنا معارضتى للشيوعية بالتفصيل وكان يشعر بأنه من الطبيعى لشاب مثلي أن يعتنق القومية وأن آرائى ستتسع حينما أكبر واكتسب خبرة أكثر .

وناقشت القضايا نفسها مع موسيس كوتانى ويوسف دادوو وكانا يعتقدان أن الشيوعية يمكن أن تطبق لتناسب الموقف الإفريقى .

وبعد الاضراب اعتقل اثنان وخمسون شخصا من بينهم كوتانى وماركس وعديد من الشيوعيين وقدموا للمحاكمة بتهمة التحريض على الفتنة والعصيان .

وأجبرتنى حادثة أخرى فى العام نفسه على تغيير معالجتى للعمل السياسى ففى عام ١٩٤٦ أصدرت حكومة سماتس قانونا يقيد حرية حركة الهنود والأماكن التى يمكنهم السكنى والتجارة فيها ويحدد بشدة حقوقهم فى التملك ومقابل ذلك منحوا حق التمثيل فى البرلمان بواسطة ممثلين بيض . وانتقد د . دادوو تلك القيود بعنف ووصف عرض التمثيل البرلمانى بأنه عرض زائف لتمثيل خادع واشتد غضب مجتمع الهنود وبدأوا حملة عصيان مدنى مدتها سنتان وقد خلفت فينا الحملة أثرا قويا لحسن تنظيمها وشده الإخلاص لها ولمدة عامين علق الناس فيها حياتهم ليخوضوا المعركة ونظموا المسيرات واحتلوا الأراضى المخصصة للبيض وطوقوها وأرسل ما لا يقل عن الفى شخص للسجن بينما تلقى د . نيكر ودادوو أحكاما بالأشغال الشاقة مدتها ستة أشهر وقد شلت الحكومة حركة العصيان بالقوانين الصارمة ووسائل التخويف

لكنا نحن فى تنظيم الشباب شهدنا المواطنين الهنود يسجلون احتجاجا غير عادى ضد القمع العنصرى بطريقة لم يتبعها الافارقة ولا المؤتمر . فقد علق اسماعيل مير وجـ . ن سينج دراستهما وودعا أسرتيهما وذهبا إلى المعتقل وفعل مثلهما أحمد كاثرادا الذى كان مازال طالبا فى المرحلة الثانوية .

اصبحت الحملة الهندية مثالا لنا فى تنظيم الشباب لنوع الاحتجاج الذى كنا ندعو إليه وغرست فينا روح التحدى والراديكالية وكسرت حاجز الخوف من المعتقل .

وفى بداية عام ١٩٤٦ انتقلت وايفلين إلى منزل من منازل البلدية فى أورلاندو الشرقية وبعد ذلك إلى منزل أكبر قليلا فى أورلاندو الغربية وهى منطقة متربة منازلها مثل الصناديق وأصبحت فيما بعد جزءا من سويتو الكبرى . وكان ايجار المنزل سبعة عشر شلنا وست بنسات فى الشهر وكان مطابقا لمئات آخرين أقيمت على رقع صغيرة من الأرض غير الممهدة وكانت سقفها من الصفيح وأرضياتها من الاسمنت . ولم تكن الكهرباء قد دخلت بعد . وكان منزلى رغم تواضعه الشديد أول منزل لى وكنت فخورا به . وتلك السنة ولد أول أولادى ماديبا شيمبكل وكنا نناديه بثمبى . وكنا أيضا نتلقى الضيوف والنزلاء فإن جميع أعضاء الأسرة طبقا لتقاليدنا لهم حق الضيافة عند أى فرد من أفراد الأسرة ، وعلى ذلك فقد كان منزلى دائما ممتلئا بالضيوف .

وفى بداية عام ١٩٤٧ انهيت فترة تدريبى فى المكتب وقررت أن أتفرغ لكى أحصل على درجتى الجامعية فى

القانون لكى أفتح مكتبا خاصا بى . وتقدمت إلى صندوق الخدمات بطلب قرض ٢٥٠ جنيها استرلينيا لتغطية نفقات اتمام دراستى ومنحت ١٥٠ جنيها فقط . وبعد ثلاثة شهور تقدمت بطلب آخر ومنحت بقية المبلغ حيث أنه كانت زوجتى على وشك القيام باجازة وضع تفقد أثناءها راتبها . وحدث بعد ذلك أن وُلِدت لنا طفلة ضعيفة مريضة توفيت وعمرها تسعة أشهر .

وعقب مرض مفاجىء توفى ليمبيد وكان لوفاته آثر عميق على الكثيرين وأنهك الحزن سيسولا خاصة . وكان موته انتكاسة للحركة حيث كان ليمبيد نبعا للأفكار التى اجتذبت الكثيرين للمنظمة .

وخلف ليمبيد بيتر مدا الذى جعلت منه طريقته التحليلية وقدرته على التعبير ببساطة ووضوح وخبرته التكتيكية سياسيا ممتازا وقائدا مرموقا للتنظيم وكان مدا يؤمن بأن تنظيم الشباب يجب أن يكون جماعة ضغط وجناح نضال يعمل من خلال إطار المؤتمر ككل حتى يدفع بالمؤتمر إلى عهد جديد .

وأسس مدا فرعا لتنظيم الشباب فى فورت هير تحت قيادة ماثيوس وبينجيه وقاموا بتجنيد عدد من الطلبة المرموقين الذين أتوا للتنظيم بدماء وأفكار جديدة ومن بين هؤلاء چو ابن ماثيوس وروبرت سوبوكوى الذى كان خطيبا لامعا ومفكرا واضحا . وكنت مازلت من بين أعضاء التنظيم الذين كانت تملأهم الشكوك من اليسار الأبيض وكنت أعارض الحملات المشتركة للمؤتمر والحزب الشيوعى واعتقد أن القومية الإفريقية الخالصة هى التى ستحررنا وليست الماركسية أو

التعددية الإثنية وكنت أشعر نحو الهنود بنفس شعورى نحو الشيوعيين .

وفى عام ١٩٤٧ انتخبت عضوا فى اللجنة المركزية للمؤتمر الوطنى الافريقى عن إقليم الترانسفال وعملت تحت إمرة رئيسه راموهانو وكان ذلك أول منصب لي فى المؤتمر وكان علامة فى تاريخ التزامى تجاهه . ومنذ ذلك الحين بدأت أتوحد قلبا وقالبا مع المؤتمر ككل بطموحاته ونجاحاته وفشله .

وفى عام ١٩٤٧ وقع د . إكسوما رئيس المؤتمر ود . دادوو رئيس المؤتمر الهندى الترانسفالى ود . نيكر رئيس المؤتمر الهندى الناتالى ميثاقا للعمل الجماعى عرف بميثاق الأطباء للعمل ضد العدو المشترك وكانت تلك خطوة هامة لتوحيد الحركات الهندية والإفريقية وفيما بعد لحقت بهم منظمة الشعب الإفريقى وهى منظمة للملونين .

- ١٣ -

رغم أنه لم يكن للأفارقة حق التصويت فلم يعن ذلك أننا لم نكن نهتم بمن يكسب الانتخابات . وكان الحزب المتحد بقيادة سماتس يتمتع باحترام دولى لتأييده الحلفاء فى الحرب على خلاف حزب القوميين الذى أيد النازية . وأدار حزب القوميين حملته حول الخطر الأسود وكان لهم شعاران : "فليبق الزنوج فى أماكنهم" و"فليرحل الحمالون" أى الهنود . وكانت تحفز القوميون بقيادة دانيال مالان مرارتهم ضد الإنجليز الذين عاملوهم باحتقار لعشرات السنين وضد الأفارقة الذين كانوا يرون أنهم يهددون نقاء وازدهار الحضارة الأفريكانية . ورغم

عدم ولاء الأفارقة لسماتس فقد كان ولاؤنا أقل للقوميين وعرفت دعاية مالان الانتخابية بالأبارتايد وكان لفظا مستحدثا رغم قدم الفكرة ذاتها . وكانت الكلمة حرفيا تعنى الفصل ، أى أنه ما ظل واقعا كان سيصبح شرعيا طبقا للقانون وأن التفرقة ستصبح نظاما متوحدا قويا شيطانى التفاصيل لا مفر من قبضته . وكانت افتراضية الأبارتايد تقوم على فكرة سمو الجنس الأبيض على الأفارقة والملونين والهنود . وكانت وظيفته تنحصر فى ترسيخ السيادة البيضاء إلى الأبد أو كما صاغ ذلك القوميون "إن الرجل الأبيض يجب أن يظل سيدا" بكل ما يحمله لفظ السيادة من معانى العنف وكانت الكنيسة الاصلاحية الهولندية تؤازر تلك السياسة وقد أمدتها بالأساس العقائدى القائم على الأسطورة التى مفادها "أن الأفريكانيين هم شعب الله المختار وأن السود نوع تابع .

وكان انتصار القوميين نهاية لسيادة الإنجليز على الأفريكان . وكانت شعارات القوميين وهى "شعبنا ولغتنا وأرضنا" تلخص مهمتهم ورسالتهم .

وحينما انتصر القوميين صدمت صدمة أذهلتنى لكن أوليڤر امبو علق قائلا : "إننى راض عن ذلك ولا أعرف لماذا . فالآن نحن نعرف تماما أعداءنا ونعرف أين نقف" . وأعلن مالان فى خطاب انتصاره قائلاً "والآن فإن جنوب إفريقيا قد عادت لنا"

وفى العام نفسه جدد تنظيم الشباب سياسته فى وثيقة كتبها مدا وأصدرتها اللجنة المركزية التنفيذية وكانت صيحة تحث كل الشباب الوطنى على الاتحاد ليسقط السيادة

البيضاء ورفضنا الفكر الشيوعى القائل بأن الافريقيين مضطهدين كطبقة اجتماعية وليس كجنس وأضفنا أنه لابد من خلق حركة تحرر قوى تحت لواء القومية الافريقية يقودها الافريقيون أنفسهم ونادينا بإعادة توزيع الأراضى على أساس أكثر عدالة وإلغاء الحواجز القائمة على أساس لون البشرة كما نادينا بالحاجة إلى تعليم مجانى والزامى .

وكنت حينئذ متعاطفا مع التيار الأكثر ثورية من التيارات القومية فقد كان غضبى منصبا على الرجل الأبيض وليس على التفرقة فى حد ذاتها . وكنت على استعداد لتقبل الهنود والملونين على أن يتقبلوا هم سياستنا ولكن اهتماماتهم لم تكن هى اهتماماتنا وكنت متشككا فى قدرتهم على احتضان قضيتنا عن صدق .

وفى خطوات متلاحقة بدأ مالان تنفيذ برنامجه الكريه فاعلنت الحكومة عزمها على تقليص حركة الاتحادات وإلغاء الحقوق الدستورية المحدودة للهنود والملونين والأفارقة . وصدر قانون منع الزيجات المختلطة اعقبه قانون الفجور الذى يجرم أى اتصال جنسى بين البيض والأجناس الأخرى . ثم صدر قانون تصنيف السكان الذى صنف سكان جنوب افريقيا على أساس عرقى قائم على اللون ثم قانون مناطق الجماعات الذى هو لب الأبارتايد والذى طالب بمناطق مدنية لكل مجموعة عرقية . وهكذا فبينما كان البيض يستولون على الأراضى بالقوة فى الماضى أصبحوا الآن يفعلون ذلك بقوة القانون . وفى ظل ذلك اتخذ تنظيم الشباب والمؤتمر خطوات لتعبئة الجماهير .

ففى الاجتماع السنوى للمؤتمر تبنى خطة عمل التنظيم ودعا إلى المقاطعة والاضرابات والبقاء فى المنازل والمقاومة السلبية ومظاهرات الاحتجاج وغيرها من أشكال العمل الجماهيرى وذلك رغم وجود معارضة من داخل المؤتمر وخاصة من د . إكسوما الذى كان يرى فى استراتيجيتنا خطرا قد يعطى الحكومة فرصة لسحقنا كما أنه كان غير مستعد لأن يعرض منصبه وعمله كطبيب للخطر . فأعطيناه انذارا أننا لن نصوت فى صالحه فى إنتخابات رياسة المؤتمر إن لم يوافق على خطتنا فاتهمنا بالغرور وبمحاولة ابتزازه وطردنا من منزله .

وحاولنا فى ديسمبر التالى خلع إكسوما وإحلال د . موروكا مكانه رغم عضوية الأخير فى منظمة الأفارقة التى كانت تسودها العناصر التروتسكيه إلا أنه كان نشيطا وكان يؤيد برنامجنا وكان طبيبا مثقفا من أكثر السود ثراء . وفى انتخابات المؤتمر هزم إكسوما وانتخب موروكا رئيسا عاما وسيسولا سكرتيرا عاما وتامبو عضوا فى اللجنة التنفيذية .

وكان البرنامج الجديد قد نادى أيضا بتحديد يوم للتوقف عن العمل على المستوى القومى احتجاجا على سياسات الحكومة العنصرية . وبذلك نجحنا نحن أعضاء تنظيم الشباب فى توجيه المؤتمر نحو طريق أكثر راديكالية وثورية .

وكنت قد انتقلت للعمل فى مكتب جديد للمحاماة وكان عملى يستغرق كل وقتى ورغم ليبرالية أصحاب العمل فقد كانوا يريدون منى أن أنسى السياسة .

وجاشت روح العمل الجماهيرى لكن شكوكى حول الهنود والشيوعيين استمرت . وقد اجتذب مؤتمر الدفاع عن حرية الكلام الذى نظمه مؤتمر الترانسفال ومجلس الترانسفال الهندى ومنظمة الشعب الإفريقى واللجنة الإقليمية للحزب الشيوعى فى جوهانسبرج فى مارس عام ١٩٥٠ عشرة آلاف شخص وترأسه د . موروكا ونجح المؤتمر ولكن حذرى استمر حيث أن المنظم الأول للمؤتمر كان الحزب الشيوعى .

وبمبادرة من الحزب الشيوعى والمجلس الهندى قرر المؤتمر تنظيم اضراب لمدة يوم واحد هو أول مايو يسمى يوم الحرية وينادى بإلغاء قوانين التصاريح وكل تشريعات التفرقة ورغم مساندتى للأهداف فقد اعتقدت أن الشيوعيين يريدون أن يطفئوا وهج يوم الاحتجاج الذى اقترحه المؤتمر الإفريقى ولذا عارضت الاضراب .

وكان أحمد كاثرادا حينئذ فى الحادية والعشرين من عمره وكان عضوا هاما فى مجلس الشباب الهندى للترانسفال وقد سمع عن معارضتى للأضراب وحينما قابلنى اتهمنى أنا وتنظيم الشباب بأننا لا نريد العمل مع الهنود والملونين رغم أنه واثق أن جماهير الأفارقة تؤيد الاضراب .

ونفذ اضراب يوم الحرية دون تأييد رسمى من المؤتمر . وكانت الحكومة قد حظرت كل الاجتماعات والتجمعات ترقبا له . وقد بقى أكثر من ثلثى العمال الأفارقة فى منازلهم ذلك اليوم . وبينما كنت وولتر فى غرب أولاندو نرقب مسيرات الاحتجاج والتجمعات إذا بالشرطة تطلق النار فى اتجاهنا .

وانبطحنا أرضا ثم سارعنا بالاختفاء فى منزل للممرضات حيث سمعنا الطلقات النارية التى نتج عنها وفاة ثمانية عشر أفريقيا وجرح العديد .

وبعد أسابيع أصدر القوميون قانون حظر الشيوعية وتجريم الحزب الشيوعى واعتبار عضويته جريمة يعاقب عليها بالسجن عشر سنوات . وكان نص ذلك القانون يرى أن اعتناق أى مذهب يشجع أى تغيير سياسى أو صناعى أو اقتصادى أو اجتماعى جريمة . وعلى ذلك فقد سمح ذلك القانون للحكومة أن تحظر أى منظمة وأن تقيد أى فرد معارض لسياستها .

واجتمع المؤتمر والمجلس الهندى ومنظمة الشعب الإفريقى لمناقشة تلك الاجراءات وأعلن دادوو مع آخرين أنه من الغباء أن نسمح لخلافات قديمة أن تقف فى طريق تكوين جبهة متحدة ضد الحكومة وفى خطابى قلت أن حظر أى منظمة هو حظر لجميع المنظمات . وقررنا تخصيص يوم ٢٦ يونيو يوما قوميا للاحتجاج على مقتل ثمانية عشر إفريقيا فى أول مايو .

وكنت فى بداية ذلك العام قد حللت محل د . إكسوما الذى كان قد استقال لمرضه من عضوية اللجنة المركزية للمؤتمر وأصبحت فى مركز من مراكز القوة التى طالما ثرت عليها .

كانت الأعمال الجماهيرية فى جنوب إفريقيا محفوفة بالأخطار حيث كان الاضراب بالنسبة للإفريقى جنحة جنائية وحيث كانت حقوق الكلام والحركة مقيدة بلا هوادة . وكان

الاضراب السياسى أشد مخاطرة من الاضراب الاقتصادى وكان يوم الاحتجاج اضرابا سياسيا .

وفى سبيل الاعداد ليوم ٢٦ يونيو أخذ وولتر يجوب أنحاء البلاد للتشاور مع القادة المحليين وفى غيابه توليت مسئولية مكتب المؤتمر وأخذت بمحور العمل القومى المعقد والتحاور مع القادة المختلفين فى جميع أنحاء البلاد عن طريق الهاتف . وكان التخطيط متسرعا .

وكان يوم الاحتجاج أول محاولة للمؤتمر لتنفيذ اضراب سياسى على مستوى قومى ولاقى نجاحا معتدلا . ففى المدن بقى معظم العمال الأفارقة فى المنازل وظلت متاجر السود مغلقة . كما حدثت مظاهرات فى أماكن أخرى كتبت عنها الصحف فى العناوين الرئيسية . وارتفعت معنوياتنا وأرسلنا انذارا لحكومة مالان مقتضاه أننا لن نبقى سلبيين فى مواجهة الأبارتايد . وظل يوم ٢٦ يونيو علامة مميزة فى تاريخ الكفاح ويحتفى به كيوم الحرية . وكانت تلك أول مرة أقوم بدور هام فى حملة قومية وشعرت بالبهجة النابعة من النجاح فى المعركة .

وفى تلك الأثناء ولد ابنى الثانى وكنت مع ايفيلن حينما خرج للحياة لكن لفترة وجيزة وقد سمى باسم بطل افريقى مكافح .

وفى تلك الأيام كانت تعوزنى الثقة حيال ما أنا ضده وما أنا معه . فقد كانت معارضتى الطويلة للشيوعية قد بدأت تضعف . وكان موسيس كوتانى كثيرا ما يأتى إلى منزلى ليلا

ويساءلنى عن سبب عدائى ولم تكن لدىَّ إجابة . كان الكثيرون من أعضاء الحزب أصدقاء لى وكانوا متفانين فى القضية . أما د . دادوو أحد أعضاء المقاومة عام ١٩٤٦ فقد كان ماركسيا مرموقا وكان دوره كمدافع عن حقوق الإنسان قد جعل منه بطلا لكل المجموعات . ورغم ذلك فلم أكف عن مساءلة الأساسات الفلسفية للماركسية ولم أكن أعلم الكثير عنها . وعلى ذلك حصلت على الأعمال الكاملة لماركس وانجلز ولينين وستالين وماوتسى تونج وغيرهم . واجهدنى كتاب رأس المال بينما حفزنى المانيفستو الشيوعى ولاقت فكرة مجتمع بلا طبقات من نفسى استجابة قوية إذ وجدتها تشابه الحضارة الافريقية حيث يتقاسم الناس الحياة مشاعا . وأقنعتنى مقولة ماركس الأساسية التى وجدت فيها قاعدة ذهبية والتى تقول "لكل طبقا لقدراته لكل طبقا لاحتياجاته" . وبدت الدياليكتية المادية وكأنها تلقى ضوءا على الاضطهاد العرقى ، وأيضا كآلية يمكن توظيفها لإنهائه وساعدتنى على رؤية الموقف من زاوية غير زاوية العلاقة بين السود والبيض لأنه إذا كان لحركتنا أن تنجح فلابد لها أن تتسامى على اللون . كما جذبتنى الأسس العلمية للدياليكتيك المادى وتحليلها للاقتصاد وبدت لى الفكرة التى تقول أن قيمة السلع تقدر على أساس العمل المبذول لانتاجها مناسبة بصفة خاصة لجنوب إفريقيا إذ أن الطبقة الحاكمة كانت تدفع للعمال الأفارقة أجورا دنيا وتضيف قيمة الأجور الحقيقية إلى تكاليف السلعة وتحتفظ لنفسها بالفرق . وكان لدعوة ماركس للعمل الثورى وقع الموسيقى على أذنى . وخلال قراءتى للأعمال الماركسية وجدت معلومات كثيرة لها علاقة بنوع المشاكل

التي تواجه السياسي الممارس بالاضافة إلى أن الماركسيين اهتموا بحركات التحرر القومية وكفاح الشعوب ضد الاستعمار وكان ذلك سببا آخر لتغيير نظرتي للشيوعيين وقبولي ترحيب المؤتمر بهم بين صفوفه . ولم يكن عليَّ أن أعتنق الشيوعية لأعمل معهم ووجدت أن القومي الإفريقي والقومي الشيوعي بينهما عوامل مشتركة أكثر من اختلافات .

- ١٤ -

في عام ١٩٥٠ أصدرت الحكومة قرارين يعتبران حجر الزاوية في الأبارتايد وهما قانون السكان والتسجيل وقانون المناطق الجماعية أو مناطق المجموعات وقد سمح القانون الأول بتصنيف السكان على أساس عرقي وبطريقة عشوائية مما نتج عنه أحيانا التفريق بين أعضاء الأسرة الواحدة اعتمادا على لون البشرة وتجاعيد الشعر وسمك الشفتين . أما قانون المناطق فيعتبر أساس الأبارتايد السكاني وبناء عليه فإذا أراد البيض تملك الأراضي أو المساكن التي يمتلكها الأفارقة أو الهنود فما عليهم إلا أن يعلنوا المنطقة بيضاء . كما أنه بناء على ذلك القانون بدأت حركة نقل جماعية للسكان بالقوة في حالة قرب المناطق التي يعيش فيها الأفارقة من مناطق سكن البيض .

وكانت صوفيا تاون على رأس تلك القائمة وهي منطقة حية كان يسكنها أكثر من خمسين ألف إفريقي وكانت إحدى أقدم المواطن الإفريقية في جوهانسبرج وكانت تفيض حياة رغم فقرها كما كانت تحتضن كثيرا مما هو جديد وقيم في حياة

الأفارقة وحضارتهم وكان لها على صغرها معنى رمزى للأفارقة يفوق حجمها .

كما أصدرت الحكومة قرارين الغى بمقتضاهما حق التمثيل النيابى بالنسبة للملونين كما ألغى المجلس النيابى للبانتو وهو منتدى إفريقى له دور التمثيل غير المباشر وأحلت الحكومة محله نظاما هرميا من رؤساء القبائل الذين تعينهم الحكومة على أساس إثنى وكان الهدف هو إعادة السلطة للرؤساء المحافظين وتقوية الإختلافات الإثنية التى كانت بادئة فى الزوال . ونتيجة لذلك نظم الملونون مظاهرة ضد القانون الخاص بهم فى كيب تاون واضراب ظلت على إثره المتاجر والمدارس مغلقة . وعملا بروح المقاومة المشتركة بين الطوائف الثلاث طرح سيسولو فكرة حملة للعصيا ن المدنى . ولقيت الفكرة منا قبولا ولكني وبصفتى حينئذ رئيسا لتنظيم الشباب كنت أرى أن تقتصر الحملة على الأفارقة فقد كنت مازلت أخشى تأثير الهنود . ولكن رأيي هزم فى الاقتراع وأخيرا قبلت برأى الأغلبية . ووجه القادة نداء للحكومة لإلغاء القوانين الإثنية والعنصرية ثم قرر المجلس الذى تم تشكيله من هؤلاء القادة أن يقوم المؤتمر بتنظيم مظاهرات يوم ٦ إبريل عام ١٩٥٢ كمقدمة لبدء حركة العصيان . وكان ذلك هو يوم احتفال البيض بالعيد الثلاثمائة لوصول جان ڤان رايبك إلى الكيب وكان يحتفون به على أنه يوم انشاء دولتهم بينما يلعنه الأفارقة كبداية ثلاثمائة عام من الاستعباد . وصاغ المؤتمر خطابا لرئيس الوزراء يعلمه بالقرارات وينصحه بالغاء القوانين وكنا نحتاج إلى توقيع د . موروكا على الخطاب لأنه

كان موجها بإسمه وأوكلت لى مهمة السفر إلى ولاية أو رانج الحرة للحصول على التوقيع . وسافرت إلى هناك بالسيارة فقد كنت قد حصلت على رخصة قيادة وكان ذلك شيئا غير عادى بالنسبة للأفارقة وحدثت على الطريق لى حادثة تورطت فيها مع الشرطة وسببت تأخيرى لكنها انتهت بسلام . وحصلت على توقيع د . موروكا وأرسل الخطاب إلى رئيس الوزراء الذى أجاب فى رسالة موقعة من سكرتيره الخاص أنه من حق البيض أن يتخذوا من الاجراءات ما يضمن بقاء هويتهم كقومية منفصلة وأنهى الرد محذرا من أنه إذا ما اتبعنا اجراءاتنا فإن الدولة ستتخذ جميع الوسائل المتاحة لها لإخماد أى اضطرابات وقد اعتبرنا رد مالان القاطع اعلانا للحرب ولم يكن أمامنا سوى اللجوء للعصيان المدنى وأخذنا نعد العدة للعمل الجماهيرى . وكان من المهمات الأساسية تجنيد وتدريب متطوعين للحملة لضمان انجاحها . وبدأت التجمعات والتظاهرات المبدئية وخطبت فى بعضها مبينا أن التطوع واجب صعب وخطر وأن السلطات ستعمل على إرهاب وسجن ومهاجمة المتطوعين وأنهم لابد لهم أن يردوا على العنف بعدم استعمال العنف وأن يحافظوا على النظام مهما كلف الأمر .

وكان الاتفاق قد تم على قيادة الحملة طبقا لمبادىء غاندى التى تسعى إلى الكسب عن طريق تغيير المعتقدات وأيد ذلك نجل المهاتما مانيلال غاندى رئيس تحرير صحيفة الرأى الهندى وعضو المجلس الهندى البارز والذى كان هو شخصيا تجسيدا لمبادىء والده .

وكان آخرون وأنا من بينهم يرون أننا لا يجب أن نتبنى مبادىء معينة بل نضع تكتيكا ومنهجا يناسب الظروف وبما أن الدولة قوية فإن استعمال العنف سيؤدى لسحقنا وهكذا دعيت للاحتجاج السلمى طالما كان ذلك مؤثرا وليس كمبدأ وقد تبنت الأغلبية رأيى رغم معارضة مانيلال غاندى القوية .

وتم اقتراح مرحلتين للتحدى يقوم عدد من المتطوعين فى المرحلة الأولى بخرق عدد من القوانين فى المناطق المدنية كأن يدخلوا مناطق محظورة دون تصاريح أو يستعملوا منشآت خاصة بالبيض كالمراحيض ومقصورات القطارات ومداخل مكاتب البريد أو يبقوا فى المدينة بعد ميعاد منع التجول . وعين قائد لكل مجموعة كان عليه أن يبلغ الشرطة قبل القيام بالعصيان حتى تتم اجراءات القبض بأقل قدر من التشويش . وكان تصورنا للمرحلة الثانية أن تكون تحديا جماهيريا يرافقه اضراب وعمليات فى المؤسسات الصناعية عبر البلاد .

وقبيل الحملة عقد اجتماع سمى بيوم المتطوعين وهو يوم ٢٢ يونيو فى دربان وكان ضمن المتحدثين الرئيس لوثولى رئيس المؤتمر فى ناتال ود . نيكر رئيس المجلس الهندى هناك وأعلنا التزامهما بالحملة وكنت أنا المتحدث الرئيسى وكان هناك ما يقرب من عشرة آلاف من الحضور .

وعلى طول البلاد وعرضها فإن الذين قاموا بالتحدى يوم ٢٦ يونيو فعلوا ذلك بشجاعة وحماس وحس بالتاريخ . وبدأت الحملة فى بورت إليزابيث حيث دخلت جماعة محطة للقطارات من مدخل البيض وتم القبض عليهم وكانوا وهم يسيرون

ينشدون أغانى الحرية بينما كانت أسرهم واصدقاؤهم يحيونهم ويتصايحون "فلتعد إلينا افريقيا".

وطبقا للخطة فقد كان متطوعو المؤتمر سيقومون بدخول منطقة فى شرق جوهانسبرج دون تصريح وفى آخر لحظة اعتذر القس الذى كان سيقودهم لمرضه وهنا أحللت المبجل الهندي نانا سيتا رغم مرضه بالروماتويد وكبر سنه وكنا نريد بمثل تلك القيادة أن نبرهن أننا لسنا فقط مجموعة من الشباب الطائش ثم بعد ذلك اكتشفت غياب سكرتير فرع المؤتمر فى الترنسفال الذى كان سيرافق نانا سيتا وأحللنا وولترسيسولو محله رغم كونه أحد المنظمين. ثم ذهبت أنا ويوسف كاتشاليا للمنطقة حيث كنا سنسلم القاضى هناك خطابا نخبره بأن خمسين متطوعا سيدخلون المنطقة بدون تصريح وفى مكتبه وجدنا عددا من المراسلين الصحفيين والمصورين الذين أخذوا فى التقاط الصور.

وسارت المظاهرة بنجاح وحماس ورغم الاستمرار فى اغلاق بوابات الحى فقد انتظر المتطوعون بصبر وأخذوا يطالبون بالدخول بقيادة وولتر. أما الروح المحركة فكان نانا سيتا الذى ظل رغم مرضه يتحرك بين المتظاهرين ويبث فيهم روح الحماس ثم فتحت الأبواب واندفع المتطوعون فورا فى عملية خرق للقانون وحاصرت الشرطة المتطوعين وألقت القبض عليهم كما كان مخططا ونقل المتطوعون إلى مركز الشرطة ووجه إليهم الإتهام.

وفى المساء اجتمعنا نحن قيادة لجنة العمل لمناقشة

أحداث اليوم والتخطيط لاسبوع قادم وكان ذلك قرب المنطقة التى كان مقررا لمجموعة أخرى من المتحديين أن يخرقوا قانون منع التجوال والقيام بمسيرة جماعية في الشارع .

وخرجنا من الاجتماع فى منتصف الليل وفى تلك اللحظة اقترب منى أنا ويوسف كاتشاليا رجل شرطة وكان من الواضح أننا كنا فى طريقنا إلى منزلنا ولم نكن من المتحديين وألقى القبض علينا وبعد دقائق وجدنا أنفسنا بين أكثر من خمسين من متطوعينا . وكان المكان قذرا وقميئا لكن معنوياتنا كانت مرتفعة ومر اليومان بسرعة .

وخلال الأشهر الخمسة التالية اشترك فى الحملة ٨٥٠٠ شخص من أطباء وعمال ومحامين ومدرسين وقساوسة وطلبة تحدوا القانون ودخلوا السجن . وانتشرت الحملة فى طول البلاد وعرضها ولقيت أصداء إعلامية هائلة وارتفع عدد المشتركين فى المؤتمر الوطنى الإفريقى من ٢٠٬٠٠٠ إلى ١٠٠٬٠٠٠ .

ورأت الحكومة فى الحملة خطرا على أمنها وعلى سياسة الأبارتايد وكان العصيان المدنى لا ينظر إليه على أنه من أعمال الاحتجاج بل كجريمة . بالإضافة إلى أن العمل المشترك بين الهنود والأفارقة أزعجهم فقد كان الهدف من الأبارتايد تقسيم المجموعات الإثنية . وعلى ذلك أصر القوميون أن الحملة كانت من تدبير عناصر الشغب الشيوعية وأصدرت الحكومة قانون الأمن العام الذى يخول للسلطة إعلان القانون العسكرى أو حالة الطوارىء واحتجاز الأفراد دون محاكمة وقانونا آخر يجيز العقوبة الجسدية للمتحديين .

وقد حاولت الحكومة أيضا استخدام الوسائل الخبيثة لإفشال الحملة فدسوا الجواسيس والعملاء في المنظمة ونجحت الشرطة في اختراق بعض الفروع المحلية والمتحديين . وكان الأفارقة الذين يعملون جواسيس يفعلون ذلك من أجل المال وكانوا يرون فينا تهديدا . ليس لبنيان القوى البيضاء ، لكن لمصالح السود لأنهم اعتقدوا أن البيض سيسيئون معاملة كل السود بسبب أعمال الشغب . ورغم ذلك فقد كان هناك عديد من رجال الشرطة السود الذين ساعدونا في السر وكانوا يقومون بإخبارنا عن ميعاد هجمات الشرطة معرضين حياتهم للخطر .

وفي مايو وفي منتصف حملة التحدى صدر قرار "بحظر" ج . ب . ماركس طبقا لقانون عام ١٩٥٠ الخاص بحظر الشيوعية لمساعدته على تحقيق أهداف الشيوعية .

وكان "الحظر" هو أمر قانوني من الحكومة ويترتب عليه الاستقالة الاجبارية من المنظمة التي يحددونها ومنع حضور الفرد أي اجتماعات . كان أشبه بالسجن المتحرك ولم تكن الحكومة تحتاج إلى أي برهان لحظر أي شخص وكان تجاهل أو خرق أمر الحظر يعاقب بالسجن .

وبناء على توصية ماركس قمت بترشيح نفسي لرئاسة فرع الترانسفال بدلا منه وفزت بأغلبية ساحقة .

وفي ٣ يوليو عام ١٩٥٢ وبينما كنت في عملي بمكتب المحاماة حضرت الشرطة وألقت القبض عليَّ بتهمة انتهاك قرار حظر الشيوعية وقامت الحكومة بسلسلة اعتقالات في

انحاء البلاد وتفتيش المكاتب والمنازل . وتمت المحاكمات فى ٢١ سبتمبر وكان ضمن من قدم للمحاكمة د . موروكا وماركس ودادوو وكاتشاليا وكاثرادا وكان ظهورنا في المحكمة مناسبة لقيام مظاهرات صاخبة وكان بين المتظاهرين طلبة بيض من جامعة ويتواترساند ورجال المؤتمر الكبار من الكسندرا وطلبة مدارس ابتدائية وثانوية . واكتظت المحكمة نفسها بالجموع الذين أخذوا يهتفون لافريقيا الحرة .

وعكرت خيانة د . موروكا رئيس عام المؤتمر ورمز الحملة صفو المحاكمة . فقد أذهلنا بتفويض محاميه وكانت الخطة أن تتم محاكمتنا معا . وفوضنى زملائى للحديث مع موروكا لكننى لم أنجح فى اقناعه بالعدول . وقدم التماسا ذليلا لتخفيف الحكم وعند سماع أقواله تبرأ من المبادىء التى يقوم عليها المؤتمر .

وفى ٢ ديسمبر ادانتنا المحكمة بتهمة الشيوعية فطبقا لقانون حظر الشيوعية كان من الممكن اتهام أى فرد يعارض الحكومة بالشيوعية حتى دون أن يكون عضوا فى الحزب . وكان القاضى عادلا فرغم تهمتنا التى كانت تتراوح مابين عدم إطاعة القانون والخيانة العظمى فقد اقتنع بأننا كنا دائما ننصح الأعضاء بالعمل السلمى . وحكم على كل منا بالسجن تسعة أشهر مع إيقاف التنفيذ .

لقد ارتكبنا عدة اخطاء لكن حملة التحدى كانت نقطة تحول فى تاريخ المعركة وخرج المؤتمر من الحملة منظمة ذات قاعدة جماهيرية وكوادر ذات خبرة فى العمل تحدت الشرطة والمحاكم والسجون . وزالت الوصمة التى كانت ترتبط

بالسجن وكان ذلك انجازا هاما لأن الخوف من المعتقل يشكل عائقا هائلا لحركات التحرر .

وحررتنى الحملة من عقد النقص والدونيه ومن الشعور بالقهر ومن مناعة الرجل الأبيض ومؤسساته . وبلغت سن الرشد كمقاتل من أجل الحرية .

الجزء الرابع
المعركة حياتى

- ١٥ -

وفى المؤتمر السنوى للمؤتمر فى آخر عام ١٩٥٢ كان هناك تغيير . فتم اختيار رئيس أكثر حيوية لفترة جديدة أكثر فاعلية وهو الرئيس ألبرت لوثولى وأصبحت أنا طبقا لدستور المؤتمر أحد أربع نواب للرئيس وعينتنى اللجنة التنفيذية النائب الأول إلى جانب رئاستى لفرع الترانسفال .

وقبيل المؤتمر السنوى كان الرئيس لوثولى قد وجه إليه انذارا وخير بين أن يتخلى عن عضويته للمؤتمر ومساندته حملة التحدى وبين أن يفصل من منصبه كرئيس قبيلة معين من قبل الحكومة ويتقاضى منها أجرا . وكان لوثولى مدرسا متدينا وكان رئيسا ذا كبرياء من رؤساء الزولو ولكن التزامه بالكفاح ضد الأبارتايد كان يأتى فى المقام الأول ورفض الانذار وفصلته الحكومة . وساندت انتخاب الرئيس لوثولى لكنى لم أتمكن من حضور المؤتمر لأنه وقبل أيام كان قد صدر قرار "بالحظر" ضد اثنين وخمسين عضوا ومنعهم من حضور اجتماع أو تجمعات لمدة ستة أشهر وقيدت حركتى لنفس المدة فى حدود جوهانسبرج .

ورغم عدم حضورى المؤتمر السنوى لعام ١٩٥٢ فقد

اخبرت فى التو بما قد تم وكان قد اتخذ أحد أهم القرارات سرا ولم يعلن فى ذلك الوقت .

فقد كنت مع آخرين مقتنعا بأن الحكومة تنوى اعلان المؤتمر الإفريقى والمجلس الهندى منظمتين غير قانونيتين كما فعلت مع الحزب الشيوعى .

وهنا اقترحت على اللجنة التنفيذية فكرة خطة طوارىء لمواجهة هذا الإحتمال . وطلبوا منى أن أضع الخطة التى تمكن المنظمة من العمل كمنظمة سرية وعرفت الخطة فيما بعد بإسم خطة مانديللا أو خطة "م" .

وكانت الفكرة إقامة آلية تنظيمية تسمح للمؤتمر أن يتخذ قرارات على أعلى مستوى ويمكن بعد ذلك نقلها إلى المنظمة لكل دون عقد اجتماع . أو بمعنى آخر فإن الخطة تسمح لمنظمة غير قانونية أن تعمل وتمكن قادتها الذين هم تحت الحظر من القيادة . وصممت خطة "م" على أساس أن تمكن المنظمة من تجنيد أعضاء جدد وأن تستجيب للمشكلات الإقليمية والقومية وأن تواصل صلتها بانتظام بين الأعضاء والقيادات السرية .

وتم قبول وتنفيذ الخطة فورا . ورغم حسن المقاصد من وضع خطة "م" فإن نجاحها كان محدودا ولم تلق رواجا كبيرا . وكانت أفضل نتائجها فى منطقة الكيب الشرقية وفى بورت إليزابث حيث استمرت روح حملة التحدى ورأى أعضاء المؤتمر هناك فى الخطة بديلا للحركة فى تحدى الحكومة .

وكانت حياتى خلال حملة التحدى تسير فى اتجاهين : عملى النضالى ، وعملى كمحام .

وكنت قد انتقلت إلى مكتب هيلمان وميتشيل وكان مكتبا ليبراليا ويتقاضى من الأفارقة أتعابا معقولة وكان هيلمان مهتما بمشاكل الأفارقة وكان شريكه الآخر ميتشيل شديد الليبرالية وكان يعمل طيارا إبان الحرب العالمية الثانية وبعد ذلك بسنوات ساعد على نقل عدد من أعضاء المؤتمر خارج جنوب افريقيا إبان حملات "الاضطهاد"

وعملت فى ذلك المكتب بينما كنت أدرس للإمتحان الذى يؤهلنى لأن أمارس المهنة .

وبعد اجتيازى الامتحان التحقت كمحام بمكتب هـ . م . باسنر الذى كان ممثلا للأفارقة فى مجلس الشيوخ وعضوا قديما فى الحزب الشيوعى ومؤيدا قويا لحقوق الأفارقة وكان يشجع عملى السياسى طالما أقوم بعملى فى المكتب . وبعد الخبرة فى الدفاع عن الأفارقة التى أكتسبتها فى مكتبه شعرت أنه بالإمكان أن أستقل بعملى .

وكان أوليفر تامبو يعمل فى مكتب آخر وكنت أزوره كثيرا فى فترة الغداء وكنا نناقش شئون المؤتمر ، وكنت قد عرفت أوليفر فى فورت هير وعرفت ذكاءه ومهارته فى المناظرات وإسلوبه المنطقى الهادىء . وكانت موضوعيته الهادئة توازن من ردود فعلى العاطفية ، كما كان جارا لى فى ترانسكى فكان

من الطبيعي أن أطلب منه أن يشاركني وبعد شهور فتحنا مكتبنا المشترك في قلب مدينة جوهانسبرج .

كانت اللافتة تحمل إسم "مانديللا وتامبو" وكان المكتب يقع في مبنى صغير مقابل تماثيل العدالة التي تقع أمام المحكمة في وسط جوهانسبرج وكان المبنى يمتلكه هنود وكان أيضا أحد الأماكن القليلة التي يمكن أن يستأجر فيها إفريقي مكتبا في المدينة . ومن البداية حاصرنا العملاء ، فلم نكن فقط المحاميين الافريقيين الوحيدين في المدينة ولكننا كنا مكتب المحاماة الإفريقي الوحيد فكنا الاختيار والملجأ للأفارقة ولكي نصل إلى مكتبنا في الصباح كان علينا أن نشق طريقنا بين الناس المزدحمين في الممرات وعلى درجات السلم وفي غرفة الانتظار الصغيرة .

وقد كان الأفارقة في أمس الحاجة للمساعدة القانونية فقد كانت جريمة أن تدخل من باب مخصص للبيض وجريمة أن تركب حافلة للبيض وجريمة أن تستعمل صنبور مياه للبيض وجريمة أن تسير على شاطيء مخصص للبيض وجريمة أن تتواجد في الشارع بعد الحادية عشر مساء وجريمة ألا تحمل دفترة تصاريح وجريمة أن يكون هناك توقيع خطأ في الدفتر وجريمة أن تكون عاطلا وجريمة أن تصل في المكان الخطأ وجريمة أن تسكن في المكان الخطأ وجريمة ألا يكون لك سكن . كنا نستمع يوميا ونقابل آلافا من الاهانات التي يلقاها الأفارقة في حياتهم .

وسريعا ما عرفت ما يعني "مانديللا وتامبو" بالنسبة للأفارقة العاديين فقد كان مكانا يجدون فيه آذانا صاغية

متعاطفة وحلفاء أكفاء ، ومكانا لا يطردون منه ومكانا يشعرون فيه بالفخر لأن من يمثلهم له نفس لون بشرتهم . كان ذلك هو السبب الذى من أجله أصبحت محاميا وكان عملى كثيرا ما يجعلنى أشعر بأن أختيارى صحيح .

وكثيرا ما كنا نواجه التحامل فى المحكمة نفسها فغالبا ما كان الشهود البيض يرفضون إجابة أسئلة محام أسود وبدلا من أن يؤخذ ذلك على أنه تحد للمحكمة كان القاضى يوجه إليهم الأسئلة بنفسه . وغير ذلك من الأمثلة الكثير من الاهانات التى كانت تصدر من رجال الشرطة ومن بعض القضاة .

وفيما بعد اكتشفت أنا وأوليفر أنه طبقا لقرار المناطق المدنية فإنه لا يحق لنا أن نحتل مكان عمل فى المدينة بدون تصريح وزارى . وتقدمنا بطلب رفض ومنحنا تصريحا مؤقتا سرعان ما انتهى ثم طلبت السلطات هنا أن ننقل مقر عملنا إلى منطقة إفريقية لا يستطيع عملاؤنا الوصول إليها . ولكنا واصلنا عملنا فى المقر ونحن مهددون بالطرد فى أى وقت .

وعالجنا قضايا عديدة تتعلق بتصنيف المواطنين حسب لون بشرتهم الأمر الذى كان يحدث بعشوائية شديدة ، وقضايا تتعلق بوحشية الشرطة رغم أن نجاحنا فى هذا النوع من القضايا كان محدودا إذ كان من الصعب تقديم البرهان على اعتداءات الشرطة فقد كانوا يتعمدون حجز السجين لمدة طويلة كافية لالتئام جروحه . أما تقرير الطبيب الشرعى بشأن اسباب الوفاة فكان ينص على ان الوفاة نتيجة لأسباب متعددة .

على بعد أربعة أميال من جوهانسبرج وعلى واجهة مرتفع صخرى يطل على المدينة تقع منطقة صوفيا تاون الإفريقية . وكانت صوفيا تاون جزءا مما كان يعرف بمناطق الإسكان الغربى وكانت أصلا معدة للبيض وقام أحد المستثمرين الغربيين فعلا ببناء عدة منازل لاستخدام البيض ولكن بسبب ملقف القمامة الخاص بالبلدية الذى كان يتواجد فى المنطقة اختار البيض أماكن أخرى وبعد تردد بدأ المستثمر ، فى بيع المنازل للأفارقة . وكانت صوفيا تاون إحدى الأماكن القليلة فى الترانسفال التى كان يسمح فيها للأفارقة بشراء أكشاك ، وقطع أرض قبل قرار عام ١٩٢٣ بشأن المناطق المدنية . وكانت المنازل التى بنيت فى ذلك الحين من الحجر الأبيض او الطوب الأحمر ما تزال هناك بشرفاتها المغطاة بالصاج الأحمر تضفى على المدينة لفحة من جمال العالم القديم . وبنمو الصناعة فى جوهانسبرج أصبحت المنطقة مقرا لقوة العمالة الإفريقية المتزايدة فقد كانت قريبة من المدينة وكان العمال يسكنون أكواخا يقيمونها فى أحواش المنازل القديمة وكان الكوخ يزدحم عادة بعدة أسر وكان كل أربعين شخصا يقتسمون صنبورا من المياه . كانت المنطقة بوهيمية ومحافظة ، صاخبة ورزينة . فكانت مقر سكن د . إكسوما وأفراد عصابات اتخذوا لأنفسهم أسماء ممثلين أمريكيين .

وفى جوهانسبرج كانت خطة اخلاء المناطق الغربية تعنى اخلاء صوفيا تاون ومارتنيل ونيوكلير أى عدد من السكان يتراوح مابين ٦٠٫٠٠٠ ، ١٠٠٫٠٠٠ . وقامت حكومة

القوميين بشراء قطعة أرض تبعد ١٣ ميلا عن المدينة عام ١٩٥٣ وكان من المفروض اعادة توطين السكان هناك تحت سبع تقسيمات إثنية .

وكانت الحكومة فى قرارها تحت ضغط من مؤيديها فى المناطق المحيطة . كما أنها أرادت إحكام قبضتها على تحركات جميع الأفارقة فى جميع المناطق . فرغم سريان قانون التصاريح إلا أن الإنسان لا يحتاج تصريحا فى منطقة يمتلك فيها سكنا فى حين كان التصريح ملزما فى الأماكن التى تتملكها البلدية . لذلك قررت الحكومة نقل الأفارقة من صوفيا تاون إلى منطقة كان لم يتم إقامة المنازل فيها بعد . وكان اخلاء صوفيا تاون هو أول اختبار لقوة المؤتمر الذى لم تبدأ حملته ضد القرار إلا فى منتصف عام ١٩٥٣ حيث بدأ حملة تعبئة لحث الناس على المقاومة . وعقد اجتماع فى دار سينما أودين لمناقشة وسائل المعارضة حضره أكثر من ١٢٠٠ شخص لم يبد على أحدهم الخوف من وجود عشرات من رجال الشرطة المسلحين .

وفى الداخل أخذ رجال الشرطة المسلحون يستثيرون الناس ويوجهون إليهم الإهانات . وبينما كنت وبعض القادة نجلس على المسرح دخل رجال شرطة آخرون وأعتقلوا يوسف كاتشاليا الذى كان قد بدأ حديثه وروبرت ريشا وأحمد كاثرادا وثار الجمع وخفت من حدوث عنف فقفزت إلى المنصة وأخذت فى انشاد إحدى أغانى الإحتجاج ولحق بى الجميع .

وبدأ المؤتمر فى عقد اجتماعات إسبوعية فى ميدان فى قلب صوفيا تاون لتعبئة المعارضين للاخلاء وكانت اجتماعات

نابضة تخللتها الاناشيد . وكان مقررا لى أن أتحدث للجموع يوم الأحد التالى لحادثة سينما أودين . وكانت الجماهير ليلتها متحمسة وانتقل حماسها إلىّ . وكانت تحيطنا الشرطة المسلحة بالبنادق . والأقلام لكتابة أسماء المتحدثين وكلماتهم كالعادة . وبدأت فى الحديث عن أعمال القمع المتزايد من جانب الحكومة عقب حملة التحدى . ثم اندفعت فى الكلام وقد تملكنى الغضب وكنت أحاول إثارة الجماهير فهاجمت الحكومة ثم تجاوزت الحدود وأعلنت أن المقاومة السلمية قد انتهت وأن عدم العنف غير مجد لقلب نظام حكم الأقلية . وفى النهاية قلت إن العنف هو الطريقة الوحيدة لانهاء الأبارتايد . واهتاجت الجماهير وخاصة الشباب وانطلقت أغنى "هناك أعداء ، فلنحمل السلاح ونهاجمهم" ولحقت بى الجماهير وفى النهاية أشرت إلى الشرطة قائلا "هؤلاء هم أعداؤنا" وأخذت الجماهير تصيح وهى تومىء بعدوانية تجاه الشرطة . وبدا القلق على الشرطة . وصاح أحدهم "مانديللا ، ستدفع ثمن هذا" .

ولم تكن كلماتى قد أتت من فراغ . فإن الحكومة والشرطة كانت قد اتخذت من التدابير لمنع أى اجتماع سلمى وتجريمه وكانت الأمور تسير تجاه حكم بوليسى . وبدأت أرى أن الاحتجاجات القانونية ستصبح مستحيلة فى الوقت القريب . فإن المقاومة السلمية تكون فعالة إذا تمسك من تقاومهم بنفس القوانين التى تتمسك بها أنت وإلا فلا فاعلية لها . وبالنسبة لى كان عدم العنف استراتيجية فقط ولم يكن مبدأ أخلاقيا فلا يوجد خير أخلاقى فى استعمال سلاح غير فعال . ووجهت إلىّ اللجنة التنفيذية اللوم مشيرة إلى أن السياسة العفوية التى

دعيت إليها ليست فقط سابقة لأوانها لكنها خطرة إذ أن مثل تلك الكلمات قد تحرض العدو على الإتيان على المنظمة تماما . وقبلت اللوم وبعد ذلك كنت أدافع عن سياسية عدم العنف رغم علمى أنها لم تكن الإجابة .

وكان وولتر سيسولو قد أخبرنى فى الوقت الذى ألقيت فيه خطابى فى صوفياتاون أنه قد دعى لحضور المهرجان العالمى للطلبة والشباب من أجل السلام والصداقة في بوخارست . ولم يكن الوقت يسمح له باستشارة اللجنة التنفيذية وكنت حريصا على أن يذهب وطلب منى مساعدته فى استخراج شهادة خطية من القسم تنص على هويته وجنسيته فإن الحكومة لم تكن أبدا لتمنحه جواز سفر . وسافرت المجموعة التى كان يرأسها وولتر سيسولو ودوما نوكوى على الخطوط الوحيدة التى قبلت تلك الشهادة وهى خطوط العال الإسرائيلية .

وكان وولتر يشاركنى رأيى بشأن اتجاه الحكومة وعدم جدوى المقاومة السلمية لذا طلبت منه قبل سفره ترتيب أمر زيارة للصين لمناقشة امكان امدادنا بالسلاح . ورغم التوتر الذى سببه سفر وولتر داخل اللجنة المركزية وعدم اطمئنان البعض إلي دوافعه فقد أمكن له أن يصل إلى الصين حيث استقبلته القيادات بالترحيب لكنهم أظهروا حذرا حينما طرق فكرتنا عن الكفاح المسلح وحذره القادة من خطورة المهمة وعاد وولتر بالمساندة وبدون أسلحة .

- ١٨ -

وفى ٣ سبتمبر ذهبت إلى ولاية أورانج الحرة فى قضية بعد رفع الحظر عنى . وكنت أشعر بأمان زائف وأنا أدخل قاعة المحكمة ذلك الصباح . وهناك فوجئت بمجموعة من رجال الشرطة فى انتظارى وأبلغونى أمرا بموجب قرار حظر الشيوعية أن علىَّ أن أستقيل من المؤتمر وحددت إقامتى فى جوهانسبرج ومنعت من حضور أى اجتماعات أو تجمعات لمدة عامين .

كنت فى الخامسة والثلاثين وأنهى قرار الحظر ذلك عقدا من الاشتغال مع المؤتمر ، وكانت تلك السنوات هى سنوات يقظتى ونموى والتزامى التدريجى بالمعركة التى أصبحت حياتى . ومنذ ذلك الوقت فقد كان على جميع أفعالى وخططى المتعلقة بالمؤتمر وبالمعركة أن تصبح سرية وغير قانونية . وكان علىَّ العودة فورا إلى جوهانسبرج .

وهكذا ازاحنى الحظر من بؤرة المعركة إلى الهوامش . ورغم أنه كانت تتم استشارتى وكنت قادرا على تحريك مسار الأحداث فقد كنت أفعل ذلك عن بعد وعندما يطلب منى . وكان على إطاعة القوانين وإلا سجنت بتهمة خرق الحظر وكان هذا لن يفيدنى أو يفيد المؤتمر . وحينما أجبرت على تقديم استقالتى من المؤتمر كان عليهم أن يجدوا من يحل محلى .

- ١٩ -

حينما تسلمت قرار الحظر كان مؤتمر الترانسفال قد حدد انعقاده بعد شهر وكنت قد أعددت خطابى الرئاسى الذى

قرىء على المؤتمر . وفى ذلك الخطاب الذى عرف فيما بعد بخطاب "صعوبة المسيرة إلى الحرية" وهى مقولة مقتطفة من جواهر لال نهرو قلت أن الجماهير يجب أن تستعد لأشكال جديدة من المقاومة وإن المناهج القديمة تعد الآن نوعا من الانتحار .

وفى إبريل عام ١٩٥٤ تقدمت الجمعية القانونية للترانسفال بطلب للمحكمة العليا بشطب اسمى من جدول المحامين المعتمدين باعتبار أن أنشطتي السياسية تصرف غير شريف وغير مهنى . حدث ذلك فى وقت كان مكتب "مانديللا وتامبو" يلقى نجاحا كبيرا وكنت أذهب إلى المحكمة عشرات المرات إسبوعيا .

وحالاً انتشر الخبر تلقيت عروضا بالمساعدة والمساندة حتى من محامين أفريكان وكان كثير منهم من مؤيدى الحزب القومى لكنهم اعتقدوا أن الطلب غير عادل . وقد دافع عن قضيتى بمهارة وولتر بولاك رئيس مجلس المحامين لجوهانسبرج ولكن آخرين نصحونى أن يدافع عنى شخص غير مرتبط بالمعركة فوكلت أحد أبرز المحاميين فى جوهانسبرج ودافع عنى الاثنان بدون مقابل وقد بنى الدفاع على أساس أن الطلب يعتبر مهانة لفكرة العدالة لأن من حقى أن أدافع عن معتقداتى السياسية وهذا حق للجميع فى دولة يحكم ويطبق فيها القانون . وارتكز بولاك فى دفاعه على سابقة شخص كان معاونا للنازيين فى الحرب العالمية وتم التحفظ عليه وبعد ذلك سمح له بمزاولة المحاماة على أساس أنه لا يجب حظر إنسان على أساس معتقداته السياسية .

وكان القاضى نزيها فرفض الطلب وأمر جمعية القانونيين بدفع النفقات .

- ٢٠ -

استمرت الحملة ضد اخلاء صوفيا تاون واستمرت الاجتماعات والخطب والاحتجاجات بقيادة د . إكسوما . وقد أدرنا نحن الحملة تحت شعار "على جثثنا" وحاولت أنا وأوليفر كمحاميين للمطرودين أن نثبت عدم قانونية الإجراءات ولكن كان ذلك اجراء مؤقتا فلم تكن الحكومة لتأخذ به . وعقد اجتماع جماهيرى فى ميدان الحرية من ١٠ر٠٠٠ نسمة ليستمعوا للرئيس لوثولى . لكن قبل وصوله أبلغ بقرار حظر أعاده إلى ناتال .

وكان الشباب من أعضاء المؤتمر قد أخذوا شعارنا حرفيا وكانوا مستعدين للعمل الثورى ضد الشرطة . لكن حينما خاطبتهم القيادات وأنا منهم مطالبينهم بالتريث شعروا بالغضب والإحباط لكننا كنا نعلم أن العنف ستكون له نتائج مأساوية ولم نكن بعد مستدعين للقتال ضد عدو مستعد .

وفى ٩ فبراير أحاط أربعة آلاف من رجال الشرطة والجيش بالمنطقة بينما أخذ العمال فى إزالة المنازل الخالية وأخذت شاحنات الحكومة فى نقل العائلات إلى المنطقة الجديدة . وبعد أسابيع قليلة انهارت المقاومة وكان قرار الحظر قد صدر لمعظم قياداتنا المحلية واعتقل كثير منهم ولم تكن نهاية صوفيا تاون على أصوات القنابل بل على أصوات الشاحنات والمعاول .

لقد ارتكبنا كثيرا من الأخطاء فى حملة اخلاء صوفيا تاون وتعلمنا دروسا عديدة . فقد كان شعار "على جثتنا" شعارا ديناميكيا لكنه كان معوقا وليس مساعدا . فالشعار هو حلقة وصل بين المنظمة والجماهير . وقد لقى شعارنا استجابة على مستوى خيال الجماهير ولكنهم اعتقدوا أننا سوف نقاتل حتى الموت لنقاوم الاخلاء . ولم يكن المؤتمر بعد مستعدا لذلك . كما أننا لم نقدم للجماهير بديلا عن الانتقال إلى المنطقة الجديدة . فضعفت مقاومتهم وتدفقوا على المنطقة الجديدة بإرادتهم وانتقدوا المؤتمر بواسطة عدد من الأعضاء الذين اتهموا القيادة بحماية مصالح الملاك على حساب المستأجرين .

ولكن الدرس الذى استنتجته أنا هو أن خيارنا الوحيد هو الكفاح المسلح .

إن التعليم هو آلة التطور . ومنذ بداية القرن كان الأفارقة مدينين بتعليمهم للكنائس الأجنبية والإرساليات التى أنشأت وبنت المدارس وتحت حكم حزب المتحدين كانت مناهج المدارس للسود والبيض واحدة تقريبا .

وحتى قبل وصول القوميين إلى الحكم كان الانفاق المتفاوت على التعليم برهانا على العنصرية . فقد كان ينفق على تعليم الأبيض ستة أضعاف ما ينفق على تعليم الإفريقى . ولم يكن التعليم إجباريا للأفارقة وكان مجانيا فقط فى المرحلة الابتدائية . وكانت نسبة من يحضر المدرسة من الأطفال الأفارقة هى النصف . وكان عددا ضئيلا جدا يكمل المرحلة الثانوية .

وحتى هذا القدر لم يكن يروق للقوميين . فقد كان الأفريكانى يعتقد أن تعليم الأفارقة إهدار لأنهم بطبيعتهم جهلة وكسالى .

وفى عام ١٩٥٣ أقر البرلمان قانون تعليم البانتو الذى قصد بمقتضاه أن يضاف طابع الأبارتايد إلى التعليم ونقل أمر إدارة تعليم الأفارقة من هيئة التعليم إلى هيئة شئون الوطنيين وهى هيئة تحظى بالكراهية العميقة من الأفارقة . وخيرت الكنائس والإرساليات بين تسليم مدارسها للهيئة أو تقليص ما يستلمونه من مساعدات .

وقد شرح د . هنريك فيرويرد السياسة الجديدة قائلا إن التعليم يجب أن يعلم الناس ما يناسبه فرصهم فى الحياة . أى أن الأفارقة باختصار يجب أن يتدربوا على الأعمال الوضيعة لكى تستمر سيادة الرجل الأبيض .

أما بالنسبة للمؤتمر فقد رأى أن القانون وسيلة شريرة قصد بها إعاقة نمو الحضارة الإفريقية ككل وأن تلك السياسة إذا نفذت فستصيب معركة التحرير بانتكاسه .

وقد أثار القانون وشرح فيرويرد غير المهذب له غضب السود والبيض وباستثناء الكنيسة الهولندية عارضت الإرسالية اللوثرية وجميع الكنائس الخطوات الجديدة ولكن المعارضة لم تتحد لإدانة القانون ولم تقاومه .

وأغلقت بعض الارساليات والكنائس مدارسها بينما سلمت الأخريات مدارسها للحكومة ولم تستمر سوى كنائس ثلاث فى إدارة مدارسها دون مساعدة الحكومة .

وبدأت مناقشة المؤتمر لخطط مقاطعة المدارس وكانت مناقشاتنا سرية . ودارت حول خيارين : إما مظاهرة احتجاج مؤقتة أو مقاطعة دائمة للمدارس لإفساد القانون قبل أن يشتد عوده . ورأيت أن المقاطعة الدائمة تتطلب آليات وامكانيات لا نمتلكها . وعلى ذلك فقد طالبت أنا وآخرون بمقاطعة مدتها إسبوع . وقررت اللجنة أن تبدأ المقاطعة ولمدة إسبوع يوم ١ إبريل عام ١٩٥٥ . لكن المندوبين في دربان رفضوا التوصية وصوتوا فى صالح مقاطعة غير محددة .

وبدأ الاضراب فى أول إبريل وكانت نتائجه متفاوتة فكان غالبا مشتتا وغير منظم . وفى بعض الأماكن بدأت مسيرات قبل الفجر وقذفت النساء المدارس بالحجارة وقمن باخراج الأطفال الذين ذهبوا إلى مدارسهم وقام البعض بإدارة مدارس للأطفال الذين اشتركوا فى المقاطعة فأصدرت الحكومة قانونا يعاقب بالغرامة والحبس كل من يقدم تعليما بدون إذن . وعملت تلك المدارس فى السر ثم تضاءلت وواجه الآباء الاختيار بين تعليم دونى أو لا تعليم فاختاروا الأول .

ورغم أن الحملة فشلت فى إلغاء القانون فإن الاحتجاج أجبر الحكومة على تعديل القانون ووضع مناهج أفضل . لكن نتائج القانون طاردت الحكومة بطرق لم تتوقعها فقد كان تعليم البانتو هو المسئول فى عام ١٩٧٥ عند تخريج جيل من الشباب الأسود الأكثر غضبا وأكثر ثورة .

وبعد شهور عديدة من تولى الرئيس لوثولى رئاسة المؤتمر عاد البروفسور ماتيوس إلى جنوب إفريقيا بعد عام فى

الولايات المتحدة ودعا فى الإجتماع السنوى للمؤتمر الى عقد إجتماع مؤتمر وطنى يمثل جميع فئات الشعب فى البلاد دون تمييز للون أو عرق لوضع دستور للحرية لجنوب افريقيا الديمقراطية في المستقبل .

وقبل الاقتراح وشكل مجلس لمؤتمر الشعب برئاسة الرئيس لوثولى وأمانة سر سيسولو وكاتشيا . واتفق على أن يكون الميثاق وثيقة مصدرها الشعب نفسه وقد أوكل القادة المؤتمر عبر البلاد أن يبحثوا عن الأفكار كتابة من كل شخص فى مناطقهم .

وتم تشكيل المجلس القومى للعمل من قيادات المؤتمر والمنظمات الأخرى الذى دعا كل المنظمات المشاركة وأتباعها أن يرسلوا اقتراحاتهم للميثاق . وتم طبع تعميمات ومنشورات أرسلت إلى كل أنحاء البلاد تدعو الأفراد أن يتقدموا بمقترحاتهم . واستثارت الدعوة أخيلة الناس . ووصلت مقترحات من النوادى الثقافية والجماعات الكنسية وجمعيات دافعى الضرائب والمنظمات النسائية والمدارس وأفرع الاتحادات التجارية . وكان مما يثير فى النفس التواضع رؤية مقترحات العامة التى تفوق مقترحات القادة جرأة وتقدمية وكان أكثر الطلبات إلحاحا هو "صوت لكل فرد" .

وقد ساهمت أفرع المؤتمر فى كتابة مسودات الميثاق . ونسخت مسودة توافقية من كل تلك المقترحات وتم إرسالها للأقاليم للتعليق . أما الميثاق نفسه فقد صاغته لجنة صغيرة من المجلس القومى للعمل وراجعته اللجنة التنفيذية للمؤتمر .

وأعدت الصيغة النهائية وتقرر أن يعقد الميثاق على مجلس الشعب وأن تخضع كل عناصره لموافقة المندوبين .

وتم عقد مجلس الشعب فى قرية متعددة الأعراق وقد حضره ثلاثة آلاف مندوب ليوافقوا على الصيغة النهائية وكانت الغالبية العظمى من السود لكن كان هناك ثلاثمائة هندى ، ومائتى ملون ومائة من البيض .

وذهبت أنا وولتر وكان علينا قرار حظر فاخترنا مكانا فى الطرف يمكن منه المراقبة . كان الجميع يرتدون ما يدل على انتماءاتهم وكان هناك الشباب والشيوخ والرجال والنساء . وكان رجال الشرطة البيض والأفارقة وأعضاء من الفرع الخاص يطوفون بالمكان يلتقطون الصور ويكتبون الملاحظات .

وانبعثت عشرات الأغانى وألقيت عشرات الخطب وقدمت المأكولات وفى عصر اليوم الأول قرىء الميثاق فقرة فقرة بالإنجليزية والإكسهوسا والسيسوتو وبعد كل فقرة كانت الحشود تصيح موافقة وتطلق شعار "إفريقيا" .

وكان اليوم الثانى مثل اليوم الأول . وفى الساعة الثالثة والنصف حينما حان وقت أخذ الأصوات على الموافقة النهائية اجتاح لواء من الشرطة والبوليس السرى المنصة شاهرين أسلحتهم وأخذ أحدهم مكبر الصوت وأعلن باللغة الأفريكانية أن هناك شكا فى الخيانة وأنه من غير المسموح لأحد أن يغادر المكان دون إذن الشرطة . وأخذوا يدفعون الناس ويصادرون الوثائق والصور واللافتات وأجاب

المحتشدون بالأغانى الوطنية وبعد ذلك سمح للمندوبين بمغادرة المكان بعد سؤالهم وتسجيل أسمائهم وتسللت أنا عائدا لجوهانسبرج لحضور اجتماع طارىء وأنا أعلم أن تلك الغارة هى بداية سياسة جديدة للحكومة .

ورغم فض مجلس الشعب إلا أن الميثاق ذاته أصبح علامة مضيئة لمعركة التحرير وكان كغيره من الوثائق السياسية الباقية كاعلان الإستقلال الأمريكى وإعلان حقوق الإنسان للثورة الفرنسية ، والمانيفستو الشيوعى خليطا من الأهداف العملية واللغة الشعرية . وكان يمجد إلغاء التمييز العنصرى والحقوق المتساوية للجميع ويرحب بكل من يعتنقون الحرية ليسهموا فى صنع جنوب إفريقيا ديموقراطية لا عرقية وكانت المبادىء الاساسية للميثاق هى الحكم للشعب - حقوق متساوية لجميع المجموعات القومية - مشاركة كل الشعب فى ثروة البلاد - توزيع الأرض بين هؤلاء الذين يفلحونها .

وعارض بعض أعضاء المؤتمر وخاصة الأفارقة القوميون الذين كانوا ضد الشيوعية وضد البيض الميثاق على أساس أنه خطة لايجاد جنوب إفريقيا مختلقة عما نادى به المؤتمر طوال تاريخه وادعوا أن الميثاق يميل إلى نظام اشتراكى . وفى ١٥ يونيو كتب فى صحيفة "لبراشن" أن الميثاق يقر المشاريع الفردية وأنه يضمن للأفارقة الفرصة لكى يتملكوا مشاريعهم التجارية ومنازلهم وأراضيهم باسمهم وهكذا ينجون كرأسماليين ومضاربين . أما الفقرة الخاصة بتأميم المناجم والبنوك والصناعات الاحتكارية فإنها خطوة لابد أن تؤخذ لئلا يتملك رجال الأعمال البيض الاقتصاد ويديرونه .

وكان الميثاق وثيقة ثورية لأن المتغيرات المتصورة لا يمكن تحقيقها بدون تغيير جذرى للبنية الاقتصادية والسياسية . ولم يقصد بالوثيقة أن تكون رأسمالية أو اشتراكية لكن تشكيلة متآلفة من مطالب الشعب لانهاء الاضهاد .

- ٢١ -

وفى أوائل سبتمبر عام ١٩٥٥ انتهى الحظر المفروض علىَّ وكنت لم أتمتع بإجازة منذ عام ١٩٤٨ وشعرت بشوق لزيارة الريف ورؤية أسرتى والاجتماع بسباتا وداليونحا لأن المؤتمر كان يرغب فى أن أناقشهم فى بعض الأمور وعلى ذلك فقد قمت باجازة عمل .

وعند وصولى إلى أومتاتا اجتاحنى شعور بالألفة والذكريات المحببة وثارت مشاعره بعنف للقاء والدتى وبيتنا المتواضع وأصدقاء صباى . لكن رحلتى لترانسكى كان لها هدف آخر فقد تزامن وصولى مع عقد اجتماع لجنة خاصة تمَّ تعيينها لتشرف على نقل مجلس السلطة المحلية القبلية فى ترانسكى إلى سلطات البانتو .

وكان المجلس يتكون من ١٠٨ أعضاء ربعهم من البيض وثلاثة أرباعهم من الأفارقة وكانت مهمته استشارية للحكومة فيما يختص بالتشريعات التى تؤثر فى الأفارقة وتنظيم الشئون المحلية كالضرائب والطرق . ورغم أن صفة المجلس كانت استشارية فقد هدف قانون البانتو الجديد إلى احلال نظام قمعى اقطاعى محله يستند على الأسس الوراثية والفروق القبلية لاذكاء التنافس القبلى . ورأى المؤتمر أن قبول القانون

الجديد هو أذعان للحكومة . وفى ليلة وصولى عقدت اجتماعات مع عدد من المستشارين الترنسكاييين وبابن أخى الذى كنت أدعوه داليونجا وكان يحاول اقناع المجلس بقبول قانون البانتو لأن ذلك سيزيد من قوته .

وذهبت إلى قريتى قونو وأيقظت والدتى التى بدت وكأنما رأت شبحا ورغم سعادتى بالعودة فقد شعرت بالذنب من مظهر والدتى وهى تعيش وحيدة فقيرة . حاولت إقناعها بالذهاب معى إلى جوهانسبرج لكنها أقسمت ألا تترك الريف الذى أحبته . ثم قمت بزيارة مفهكزوينى وقضيت اسبوعين أتنقل بين القريتين زرت خلالهما أمى الثانية أرملة الحاكم وأختى ميبل وتناولت نفس الطعام الذى كنت أتناوله وأنا صبى وسرت فى نفس الحقول وحملقت فى نفس السماء بالنهار ونفس النجوم بالليل . فإن من المهم ألا يفقد المقاتل من أجل الحرية الصلة بجذوره وأحيت هذه الزيارة إحساسى بالمكان الذى ترعرعت فيه .

وبدأت مناقشة قانون سلطات البانتو مع داليونجا فى حضور اثنين من مؤيدى المؤتمر وقلت أن القانون غير عملى لأن كثيرا من الأفارقة قد هجروا مواطنهم إلى المدينة وأضفت أن سياسة الحكومة تهدف إلى وضع الأفارقة داخل سياجات إثنية لأنها تخشى توحدهم . وقلت إن الشعب يطلب الديمقراطية وقيادة سياسة مبنية على الجدارة وليس على النسب . وكانت إجابة داليونجا أنه يحاول استرداد مكانة أسرته الملكية التى سحقها البريطانيون وأكد حيوية النظام القبلى والقيادات التقليدية وأنه هو الآخر يريد جنوب إفريقيا

حرة ولكنه يعتقد أن الهدف يمكن تحقيقه أسرع وبسلام عن طريق سياسة الحكومة للتنمية المنفصلة وأن المؤتمر سيأتى بسفك الدماء والمرارة . ودامت المناقشة طوال الليل ولكن وجهات نظرنا لم تتقارب . ورغم استمرار صداقتنا فقد أصبحنا أعداء سياسيين .

قضيت أياما قليلة أخرى فى قونو ثم قفلت راجعا . وفى بورت إليزابث التقيت بمهلابا وبارد وجوفان مبيكى المفكر الصحفى والسياسى النشيط والذى لعب دورا فى التخطيط لمجلس الشعب والذى سيصبح أيضا أحد القيادات فى المنظمة .

وتوقفت فى مدينة صغيرة على بعد مائة متر إلى الغرب من بورت إليزابث لألقي نظرة على ما يحوطنى وفى كل الاتجاهات كنت أرى غابات شديدة الكثافة ممتدة . ولم أفكر حينئذ فى الخضرة لكن فى أن هناك أماكن كثيرة يمكن لجيش من الفدائيين أن يعيش فيها ويتدرب دون أن يكتشف .

وفى كيب تاون حيث توقفت لمدة إسبوعين وعقدت عدة اجتماعات وبينما كنت أسير فى المدينة رأيت أمرأة بيضاء تقرض بقايا عظام سمك . كانت فقيرة وعلى ما يبدو بدون مأوى وكانت صغيرة السن ولا تنقصها الجاذبية . كنت أعلم بوجود فقراء بيض فى جنوب إفريقيا ولكن لم أكن قد رأيتهم وشعرت بالرغبة فى أن أعطى تلك المرأة نقودا بينما أنا لا أعطى نقودا لمتسولين . وفى تلك اللحظة تبينت ما يفعله الأبارتايد بالإنسان فإن العذاب الذى يعانيه الأفارقة يوميا

يبدو أمرا طبيعيا بينما ساءنى منظر وتعاطفت مع تلك المرأة البيضاء الموحلة .

وبينما كنت أستعد لمغادرة كيب تاون ذهبت إلي مكاتب صحيفة العهد الجديد لأرى أصدقاء قدامي وكانت الصحيفة يسارية وعلى علاقة حسنة بالمؤتمر . كان ذلك يوم ٢٧ سبتمبر وبينما كنت أصعد درجات السلم سمعت أصواتا غاضبة وصوت قطع أثاث تحرك من مكانها وعرفت أن رجال الشرطة يقومون بتفتيش المكتب وبعد ذلك علمت أنها لم تكن واقعة فردية ولكن الأوامر كانت قد صدرت فى جميع أنحاء البلاد بضبط أى شيء يعتبر قرينة على الخيانة العظمى والفتنة والإخلال بقانون حظر الشيوعية وأن الشرطة قد قامت بتفتيش أكثر من خمسمائة فرد فى منازلهم ومكاتبهم عبر البلاد وأنه قد تم تفتيش مكتبى ومنازل د . موروكا والبروفسور ماثيوس .

- ٢٢ -

وعند عودتى قدمت تقريرا عن رحلتى للجنة العاملة للمؤتمر . وكان شاغلنا هو ما إذا كانت تحالفات المؤتمر من القوة فى الأقاليم بحيث تستطيع ايقاف مخططات الحكومة . فأخبرتهم أن شئون المؤتمر في ترانسكي ليست على قدر كبير من التنظيم . ثم تقدمت ببديل وهو أن يسهم المؤتمر فى البنيات الجديدة لسلطات البانتو كوسيلة لبقائه على صلة بالجماهير هناك وفى الوقت المناسب تصبح تلك المساهمات منصة تنطلق منها أفكارنا وسياستنا . وقوبل إقتراحى بالمعارضة الغاضبة .

ولم يلق تقريرى اهتماما كبيرا نظرا لوجود تقرير بخصوص ما عرف حينئذ بنظام البانتوستان وهو نظام من اختراع د . فيرويرد وكان يتلخص فى انشاء محميات تكون سياجا إثنيا أو مواطن لكل الأفارقة . وكانت الفكرة هى الاحتفاظ بالوضع كما هو عليه حيث يمتلك ثلاثة ملايين من البيض ٨٧٪ من الأرض وتخصص نسبة الـ ١٣٪ الباقية لثمانية ملايين إفريقى . وكان الموضوع الرئيسى للتقرير هو رفضه فكرة اندماج الأعراق المختلفة مع احلال تنمية منفصلة لكل منطقة . وكان هدف الحكومة من ايجاد نظام المواطن هو الإبقاء على ترانسكي والمناطق الإفريقية الأخرى مستودعات للعمالة الإفريقية الرخيصة للصناعة البيضاء . أما الهدف الآخر غير المعلن فهو خلق طبقة وسطى افريقية للحد من جاذبية المؤتمر والنضال من أجل الحرية .

وقد أدان المؤتمر التقرير رغم بعض توصياته الليبرالية فكما قلت لداليونجا أن التنمية المنفصلة هى حل زائف لمشكلة لا يعرف البيض كيف يتحكمون فيها . وفى النهاية وافقت الحكومة على التقرير ولكنها رفضت بعض توصياته التى رأست أنها تقدمية .

وفى مارس عام ١٩٥٦ صدر قرار الحظر علىّ للمرة الثالثة وحددت إقامتى فى جوهانسبرج لمدة خمس سنوات ومنعت من حضور أى اجتماعات . لكن هذه المرة تغير موقفى من الحظر وقررت ألا أسمح لعدوى أن يقرر مدى نشاطاتى السياسية وصلتى بالمعركة وقررت أيضا ألا أنصب نفسى سجانا على نفسى .

الجـزء الخـامـس
الخيـانـة

- ٢٣ -

فى فجر الخامس من ديسمبر عام ١٩٥٦ أيقظنى طرق على الباب وعرفت فورا أنها الشرطة ووجدت الكونستال روسو الذى كان معروفا بالمنطقة ومعه رجلا شرطة وأبرز أمرا بالتفتيش وبدأ ثلاثتهم فى تمشيط المنزل واستيقظ الأطفال ونظرت إليهم آمرا إياهم بالصمت . وبعد ذلك أرانى أمر القبض علىَّ الذى كان مكتوبا عليه "الخيانة العظمى" . واصطحبنى روسو بالسيارة وكان معه أمر بتفتيش مكتبى واستمر تفتيشه لمدة خمس وأربعين دقيقة ثم اصطحبنى إلى سجن جوهانسبرج وكان هناك عدد من الزملاء الذين قد ألقى القبض عليهم وتم احضار أصدقاء ورفاق آخرين على مدى الساعات التالية وتمكن أحدهم من تهريب العدد المسائى من صحيفة ستار وعلمنا من العناوين الرئيسية أن الحملة شملت جميع أنحاء البلاد وأن القادة الكبار لمجلس التحالف تم اعتقالهم بتهمة الخيانة العظمى والتآمر لإسقاط الدولة ومن بينهم لوثولى ونيكر وسبتمبر وليليان نجويى وبيليفيلد الذين تم نقلهم بطائرة حربية إلى جوهانسبرج وبلغ مجموع من ألقى القبض عليهم مائة وخمسة وأربعين شخصا . وفى اليوم التالى ظهرنا فى المحكمة ووجهت إلينا التهمة رسميا . وبعد إسبوع تم اعتقال

وولتر سيسولو وأحد عشر آخرين فكان المجموع مائة وخمسة إفريقيين وواحدا وعشرين هنديا وثلاثة وعشرين من البيض وسبع ملونين .

وسرعان ما تم نقلنا إلى سجن جوهانسبرج الذى كان يلقب بالقلعة وأخذنا إلى ساحة رباعية الأضلاع وأمرنا أن نخلع ملابسنا ونصطف على الحائط وأجبرنا على الوقوف هكذا لأكثر من ساعة .

وحينئذ دخل طبيب أبيض وسألنا إن كان أحد منا مريضا ولم يكن أحد يشكو من أى مرض . وهنا أمرنا أن نرتدى ملابسنا واصطحبنا إلى زنزانتين كبيرتين ليس بها أى أثاث وأعطى كل واحد منا بطانية خفيفة وكان بكل زنزانة مبولة أرضية غير مغطاة .

ومكثنا فى القلعة اسبوعين وكان يسمح لنا بالصحف وكانت موجة الغضب التى اجتاحت جنوب إفريقيا والاستنكار فى العالم مبعث رضا لنا . وتحولت زنزانتنا الموحدة إلى نوع من المؤتمر أجرينا فيه المناقشات ووضعنا برنامجا للنشاط اليومى شمل التمرينات الرياضية والمحاضرات والأغانى القومية والرقصات والسِّير البطولية .

وبعد إسبوعين اصطحبنا إلى قاعة التدريب العسكرى فى جوهانسبرج لاجراء المساءلات المبدئية وتم نقلنا فى عربات شرطة مصفحة يراقبها عدد من حافلات القوات مليئة بالجنود المسلحين وكانت جماهير مؤيدينا تسد الطريق وكان بإمكاننا سماعهم يحيون ويغنون وتحولت الرحلة إلى مسيرة نصر .

وداخل القاعة استقبلتنا جماهير أخرى من المؤيدين حتى بدت القاعة وكأنها إجتماع احتجاج صارخ أكثر منها قاعة محاكمة . وسرنا ونحن نرفع أصابعنا باشارة تحية المؤتمر ونومىء إلى مؤيدينا واختلط المتهمون بالمراسلين الصحفيين والأصدقاء حتى بدأ الأمر إحتفالا وليس عقوبة .

كانت التهمة الموجهة إلينا جميعا من قبل الدولة هى الخيانة العظمى والتآمر لاستعمال العنف لقلب الحكومة الحالية وإحلال حكومة شيوعية محلها وكانت المدة التى شملها الإتهام هى من ١ أكتوبر عام ١٩٥٢ إلى ١٣ ديسمبر عام ١٩٥٦ أى أنها شملت حملة التحدى واخلاء صوفيا تاون ومجلس الشعب . وكان تعريف الخيانة طبقاً لقانون جنوب افريقيا هى أنها نوايا عدوانية للاحتلال والإضرار باستقلال الدولة وأمنها أو تعريضها للخطر . وكانت العقوبة هى الموت .

وكان القاضى المحقق الذى ينظر القضية هو ن . س . ويسيل ونظرا لعدم وجود مكبرات صوت فى القاعة تأجلت الجلسة ونقلنا مرة أخرى وسط هتاف الجماهير إلى القلعة .

وفى اليوم التالى كانت الجماهير أكثر عددا والشرطة أكثر تأهبا . وحينما وصلنا وجدنا أن الدولة قد قامت بتشييد قفص هائل من الأسلاك . لنجلس فيه وتم اقتيادنا داخله وجلسنا على مقاعد طويلة محاطين بستة عشر جنديا .

وكان مؤيدو المنظمة قد جمعوا فريق دفاع هائلا من بينهم برام فيشر ونورمان وزنبرج وإسرائيل ميزلس وموريس فرانك . وقد بدأ فرانك باحتجاج عنيف ضد الدولة لامتهان

كرامة موكليه ومعاملتهم كما لو كانوا حيوانات متوحشة وأضاف إنه إذا لم يتم إخراجنا من القفص فإن جميع المحامين سينسحبون . وبعد مداولة قرر القاضى هدم القفص وبدأوا بنزع الواجهة .

واستمرت قراءة عريضة الاتهام يومين حاول المدعى العام أن يثبت للمحكمة أن المتهمين بمساعدة دولة أجنبية كانوا يخططون لقلب نظام الحكم القائم باستعمال العنف وفرض حكم شيوعى على جنوب إفريقيا وبرهن على ذلك بمقتطفات من الميثاق . وأفرج عنا في اليوم الرابع بكفالة وكانت الكفالة مثلا آخر من أمثال الأبارتايد فكفالة الأبيض كانت ٢٥٠ جنيها ، ١٠٠ للهندى ، ٢٥ للإفريقى والملون وتقدم الكثيرون من مختلف مناحي الحياة ليدفعوا الكفالة لكل المتهمين كرمز للمساندة وأصبحت تلك الظاهرة فيما بعد صندوق الدفاع عن المتهمين فى قضية الخيانة وبدأه الأسقف ريفز ومجموعة أخرى وتم الأفراج عنا على أن نثبت حضورنا فى مقر الشرطة مرة كل أسبوع ومنعنا من حضور أية إجتماعات عامة . وتقرر نظر القضية فى يناير .

- ٢٤ -

بدأ زواجى من إيفلين فى التداعى قبل المحاكمة . كانت قد بدأت تدرس التوليد فى دربان وكان ذلك يبعدها أشهرا عن المنزل . وكان ذلك ممكنا فى حينه حيث كانت أمى وأختى تقيمان معنا . ونجحت إيفلين وعادت إلى المنزل وكانت حاملا ثم ولدت لنا طفلة اسميناها مكازيوى تسميا بتلك التى فقدناها . وفى غضون السنة التالية بدأت تندمج فى نشاط

جمعية شهود چيهوڤا وتوزع منشوراتهم وحاولت أن تضمنى لصفوفهم كبديل عن التزامي بالمعركة . ولكن انشغالى بالنضال قد أقلق إيڤيلين التى كانت تعتقد أن السياسة تمضية وقت للشباب وأننى يوما سأعود إلى ترانسكي وأمارس المحاماة هناك وشرحت لها مليا مبينا أن السياسة هى عمل حياتي وجزء أساسى من كيانى ولم تتقبل ذلك بينما حاولت هى اقناعي بقيمة الإيمان والتدين وإن قلت لها أنى أخدم الأمة كانت ترد قائلة : إن خدمة الله أهم من خدمة الأمة . ولم تكن بيننا أرض مشتركة وأصبح الزواج واهنا .

وتنازعنا أيضا حول قلوب وعقول الأطفال فقد كانت تريد لهم أن يكونوا متدينين وكنت أعتقد أنهم لابد أن يسيسوا وكانت تصطحبهم إلى الكنيسة وتعطيهم المنشورات ليوزعوها وكنت أناقش الأولاد فى السياسة وكان ثيمبى عضوا فى منظمة الرواد فى المؤتمر .

وكان برنامجي فى تلك الأيام قاسيا فكنت أترك المنزل فى الصباح الباكر وأعود متأخرا فى الليل إذ أنى كنت أحضر اللقاءات فى المساء ولم تكن إيڤيلين تفهم ذلك وأخذت تشك أن لى علاقات نسائية . وفى عام ١٩٥٥ وجهت لى إنذارا أن أترك المؤتمر وحاول وولتر وزوجته ألبرتينا التدخل وعندما حاول وولتر أن يحادثنى فى الأمر لم أعطه فرصه . وذات يوم اصطحب وولتر شقيق زوجتى إلى مكتبى وحاولنا مناقشة الأمر ولكن لم تفلح المحاولة .

وبعد القبض علينا فى ديسمبر حضرت إيڤيلين لزيارتى مرة واحدة وعند خروجي من السجن وجدت أنها انتقلت من

المنزل وأخذت الأولاد . وكانت خلافاتنا لا يمكن حسمها فلم أكن بمستطيع ترك المعركة ولم تكن هى لتقبل سوى أن أكرس نفسى لها وللأولاد . ولم أفقد أبدا اعجابى بها واحترامى لها ولكننا فى النهاية لم نستطع انجاح الزواج .

- ٢٥ -

وفى التاسع من يناير عام ١٩٥٧ اجتمعنا مرة أخرى فى صالة التدريب وجاء دور الدفاع ليفند ادعاءات الدولة . وفى دفاعه قال بيرانجيه أن مبادىء الميثاق قد تكون متعارضة مع سياسة الدولة ولكنها تمثل معتقدات الغالبية العظمى فى العالم من مختلف الأعراق والألوان كما أنها معتقدات الغالبية العظمى فى جنوب افريقيا . فقد كان خط دفاعنا ينصب على عدم اثبات براءتنا فقط بل أيضا على إثبات أن الحكومة تضطهدنا للقيام بأعمال مبررة أخلاقيا .

وبعد ذلك أخذت الدولة تستعرض أدلة الإتهام الأمر الذى استغرق شهرا . وكانت الأدلة تشمل أشياء تتراوح بين اعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة وكتاب طهى روسى . وخلال الفحص المبدئى الذى استمر لعدة شهور استمعنا إلى رجال الأمن ومن الشرطة السرية من البيض والسود يقرأون ما دونوه فى مذاكرتهم المشوشة والملفقة عن اجتماعات المؤتمر .

وخلال الشهور الستة التى استغرقتها المحاكمة أكدت الدولة أنها ستقدم برهانا على التخطيط للعنف وكان شاهد الدولة الرئيسى هو سولومون نجوباسى وكان يقضى عقوبة

عن جريمة احتيال . وقد قال فى البدء أنه يحمل درجة الليسانس من فورت هير وأنه يعمل محاميا وأنه كان سكرتير المؤتمر فى بورت إليزابث وعضوا فى اللجنة المركزية وأنه كان حاضرا فى اجتماع اللجنة المركزية حينما اتخذ قرار بسفر وولتر سيسولو وداڤيد بوبابى إلى الاتحاد السوڤييتى للحصول على أسلحة للقيام بثورة عنيفة فى جنوب إفريقيا . وأضاف أشياء أخرى منها أننا كنا نخطط لأعمال شغب واغتيال جميع البيض فى ترانسكى كما تفعل الماوماو فى كينيا وقد سببت شهادة نجوباسى قلقا وهياجا فى المحكمة ولكن استجواب بيرانچيه له أثبت أنه كذاب ومجنون معا . فقد برهن على أنه ليس خريجا من الجامعة وليس عضوا فى المؤتمر وأنه قام بتزوير شهادات جامعية ومارس المحاماة بشكل غير قانونى هذا إلى جانب قضية الاحتيال المتهم فيها وأثبت أن شهادته كلها لا أساس لها من القيمة .

وقد قام جوسو لوڤو أحد المتهمين وكان محاميا بالدفاع عن نفسه وأثبت فى استجوابه لرجال البوليس السرى تلفيقهم للتهم حيث أن بعضهم لا يعرف الإنجليزية أطلاقا وادعى أنه حضر اجتماعات المؤتمر وسجل مذكرات بما جرى .

واخيرا وفى ١١ سبتمبر أى بعد عشرة أشهر من تجمعنا فى صالة التدريس أعلن المدعى أن المراحل التمهيدية للقضية قد استكملت وأعطى الدفاع أربعة أشهر للإطلاع على ثمانية آلاف صفحة مطبوعة من البراهين ضدنا واثنتى عشر ألف وثيقة . وانفضت المحكمة فى سبتمبر وبدأت هيئة الدفاع فى مراجعة القرائن . وبعد ثلاثة أشهر أعلنت الدولة إسقاط

التهم عن واحد وستين متهما من بينهم لوثولى وتامبو .

وبعد ثلاثة عشر شهرا من الفحص المبدئي وجد القاضى أسبابا كافية لمحاكمتنا أمام محكمة الترنسفال العليا بتهمة الخيانة العظمى .

- ٢٦ -

فى عصر يوم من الأيام وأثناء الاستراحة فى الفحص المبدئي كنت أقوم بتوصيل صديق لى ومررت قريبا من محطة للحافلات ومن طرف عينى رمقت فتاة جميلة تنتظر الحافلة . ثم نظرت خلفى لأتملى منها لكن سيارتى كانت قد قطعت مسافة .

وبعد أسابيع كنت فى المكتب وخرجت من غرفتى لأرى أوليڤر ووجدت نفس الفتاة جالسة مع أخيها أمام مكتب أوليڤر وقدمنى أوليڤر لهما قائلا إنهما جاءا لاستشارة قانونية . كان إسمها نومزامو وينيفريد مايكيزيلا وتعرف بوينى وقد أكملت دراستها في مدرسة الخدمة الاجتماعية وكانت أول سوداء تعمل اخصائية اجتماعية فى أحد المستشفيات . ومن أول لقاء أردت وينى زوجة لى .

واتصلت بها هاتفيا وطلبت منها المساعدة فى جمع أموال لقضية الخيانة ودعوتها للغداء ثم ذهبنا لنزهة بالسيارة وكلمتها عن آمالى وعن مصاعب المحاكمة وأخبرتها أنى أريد أن أتزوجها . لقد شعرت بمجرد رؤيتها بتفتحها للحياة وعاطفتها الجياشة وشجاعتها واصرارها . وخلال الشهور التالية كنا نلتقى كلما استطعنا كما قامت هى بزيارتى فى صالة التدريب وفى المكتب وقابلت أولادى ثمبى وماكجاثو

وماكازيوى وحضرت الاجتماعات السياسية وقد كنت أتودد إليها وأسَّيسها فى نفس الوقت .

وبعد ذلك اتخذت اجراءات الطلاق من ايفيلين . وكانت المحاكمة قد دخلت عامها الثانى وألقت بثقلها الخانق على عملنا فى المكتب الذى بدأ فى التدهور لأننا لم نكن باستطاعتنا التواجد هناك وكنا نواجهه أنا أوليڤر مشاكل مادية . وكان أوليڤر وبعد سقوط التهم عنه يعمل ساعات تعويضية لكن الضرر كان قد وقع وأصبحنا نبحث عن عملاء . وشرحت تلك الظروف لوينى وأخبرتها أننا من المحتمل أن نعيش على راتبها الصغير ووافقت ولم أعدها بالماس والذهب ولم أستطع أبدا أن أعطها ذلك وتم الزواج فى ١٤ يونيو عام ١٩٥٨ .

ورغم أننى كنت أحاكم بتهمة الخيانة فقد منحتنى وينى الأمل وشعرت أن فرصة ثانية للحياة قد أتيحت لى .

- ٢٧ -

كان الحدث الهام الذى ينتظر البلاد فى عام ١٩٥٨ هو الإنتخابات العامة وكان المؤتمر يرى أن علينا ألا ندع المناسبة تمر دون عمل فإن هزيمة حزب القوميين كانت مصلحة لنا .

واتحدت المنظمات الأربعة ودعونا إلى اضراب وبدأت حملتنا التى كان شعارها "يجب أن يذهب القوميون" وكان قادة الحملة يعملون فى السر وفى يوم الأضراب أجرينا الاتصالات من مخابئنا بالقيادات المختلفة وأرسلنا أشخاصا

إلى الأماكن الاستراتيجية فى المدن لتقرير مدى استجابة الناس للإضراب وكانت التقارير تقول إن الناس قد تجاهلوا الاضراب . وقررنا إلغاء الدعوة للاضراب ورغم أن التراجع كان مهينا شعرنا أن الإمتهان الأكبر هو عدم التراجع .

ولكن ما حدث أنه كان هناك مناطق لم تسمع بالإضراب ففى اليوم التالى كانت الاستجابة حسنة فى بورت إليزابث . وعلى أية حال فقد فاز القوميون بزيادة ١٠٪ من الأصوات .

- ٢٨ -

قررت الحكومة تطبيق نظام تصاريح المرور على النساء وعزمت النساء على عدم الخضوع للقرار .

وفى عام ١٩٥٧ وتحت تأثير التنظيم النسائى للمؤتمر أظهرت النساء فى جميع أنحاء البلاد غضبهن ضد اصرار الحكومة على قرارها . وأظهرن شجاعة وحماسا فى احتجاجهن حتى صارت مقاومتهن معيارا لا يضاهى فى الاحتجاج على الحكومة . ففى جوهانسبرج تجمعن خارج مكتب التصاريح الرئيسى وقمن بتفريق النساء اللائى جئن للحصول على تصاريح والموظفين الذين يعملون بالمكتب الأمر الذى أوقف العمل واعتقلت الشرطة المئات منهن .

وذات يوم أخبرتنى وينى أنها تعتزم أن تنضم للنساء المحتجات فى اجتماعهن فى اليوم التالى عند مكتب التصاريخ ورغم أعجابى بإلتزامها وشجاعتها فقد كنت حذرا . فقد كانت وينى قد انضمت إلى فرع المؤتمر النسائى فى غرب أورلاندو . وقلت لها إنى أرحب بقرارها لكنى حذرتها من

تلك الخطوة التى ستغير حياتها . فقد كانت تنتمى إلى أسرة ميسورة بالمعايير الإفريقية ولم تكن قد تعرضت لواقع الحياة البغيض فى جنوب إفريقيا . وأخبرتها أنه إذا تم القبض عليها فستفقد وظيفتها التى يقيم دخلها أودنا هذا بالإضافة إلى كونها حامل . فقد كنت أشعر أننى كقائد للمعركة . وكزوج يجب أن أوضح لها نتائج عملها . ولكنها كانت قد عقدت العزم وفى الصباح اصطحبتها بالسيارة إلى المحطة التى كانت النساء ستستقل منها القطار إلى المدينة وعرفت أنها قد بدأت رحلة الأخطار الطويلة .

وتجمعت مئات النساء عند مكتب البريد الرئيسى . كان هناك الفتيات والكبيرات السن وكانت هناك من يحملن أطفالهن على ظهورهن الفتيات ومن يلتحفن بالبطاطين القبلية ومن يرتدين ملابس أنيقة . ونظمن المسيرات وأطلقن الأناشيد والأغنيات . وخلال دقائق حاصرهن رجال الشرطة المسلحون وألقوا القبض عليهن واقتادوهن إلى نقطة شرطة ميدان مارشال . وبدت النساء مبتهجات وكن يلقين إلى مراسلى الصحافة بعبارات التحدى الفكاهية . وقد تم اعتقال ألف امرأة فى ذلك اليوم . ومثل "مانيدللا وتامبو" معظم النساء اللائى ألقى القبض عليهن وتوجهت لقسم الشرطة لعمل ترتيبات الكفالة ورأيت ويني مبتهجة هناك . وفى اليوم التالى تم اعتقال ألف امرأة أخرى وأحيلت بعضهن للقلعة لتنتظرن المحاكمة . وقد سبب ذلك متاعب للسلطات إذ لم تكن هناك أماكن لهن جميعا هذا بالإضافة إلى عدم وجود أغطية وحصر ومراحيض كافية . ورغم أننى والقادة الآخرين كنا نحاول الإفراج عنهن بالكفالة فقد عارضت ليليان نجويى رئيسة

التنظيم النسائى وقيادات أخرى ذلك الإجراء ورأت أن تقضى النساء مدة العقوبة التى يحكم عليهن بها من أجل فاعلية ومصداقية الاحتجاج . وكحل وسط اتفقت مع ليليان أن تقضى النساء إسبوعين فى السجن نقوم بعدها بتقديم الكفالة .

- ٢٩ -

كنا لمدة أشهر نستعد لمحاكمتنا الرسمية التى كان موعدها أغسطس عام ١٩٥٨ وكانت الحكومة قد كونت هيئة محكمة عليا خاصة من القضاة رامف ، وكيندى ، ولودورف وكان لثلاثتهم صلة بالحزب الحاكم هذا بالإضافة إلى شهرة كينيدى "كقاضى الإعدام" حيث أنه قد حكم بالإعدام على ثلاثة وعشرين إفريقيا بتهمة قتل اثنين من رجال الشرطة البيض .

ونقلت الدولة مكان المحاكمة إلى بريتوريا على بعد ٣٦ ميلا . وكان جميع المتهمين وهيئة الدفاع من سكان جوهانسبرج مما ألزمنا بالسفر يوميا ما استلزمه ذلك من ضياع الوقت وزيادة النفقات هذا بالاضافة إلى ما عناه القرار من تحطيم معنوياتنا بعزلنا عن مؤيدينا إذ كانت بريتوريا من معاقل الحزب الحاكم ولم يكن للمؤتمر هناك سوى تواجد طفيف . وكانت رحلة الذهاب التى كانت تبدأ فى السادسة صباحا والعودة فى الحافلة غير المريحة ذات المقاعد الخشبية الطويلة تستغرق خمس ساعات يوميا .

كان فريق دفاعنا بقيادة إسرائيل ميسلز فريقا نضاليا

قويا . وبدأ ميسلز بطلب تغيير القاضيين لودورف ورامف باعتبار أن لهما اهتمامات تمنعهما من اتخاذ قرارات عادلة حيث كان رامف قاضى محاكمات التحدى وكان لودورف ممثل الحكومة عام ١٩٥٤ فى قضية لنا ضد الشرطة . كان ذلك الطلب استراتيجية خطرة لعلمنا أن هناك قضاة أسوأ بكثير من هذين وكنا أيضا على ثقة أن رامف يقف دائما مع القانون رغم انتماءاته السياسية . وأعلن لودورف انسحابه ورفض رامف قائلا أن تحكيمه فى قضية التحدى لن يكون له أثر على هذه القضية وعينت الحكومة القاضى بيكر محل لودورف ولقى منا الترحيب حيث لم تكن له ارتباطات بالقوميين .

وبعد ذلك حاولنا اثبات عدم صحة قرار الاتهام على أساس عدم الوضوح والدقة حيث أن أساس الإتهام بالخيانة العظمى وهو التخطيط للعنف لم يثبت . وبدا القضاة الثلاثة مقتنعين بذلك وبعد محاولات قانونية استمرت شهرين وفى ١٣ أكتوبر أعلنت الدولة فجأة سحب الإتهام بالكامل . وبعد شهر أصدر المدعى العام اتهاما آخر صيغ بعناية ودقة قائلا إن المحاكمة ستستمر ضد ثلاثين من المتهمين من بينهم أنا وأن الآخرين سيحاكمون فيما بعد . واستمرت المحاكمة شهورا عديدة قضيت معظمها فى مناورات قانونية عقيمة . ورغم نجاح هيئة الدفاع فى ايضاح زيف الادعاء فإن الحكومة استمرت وأعلن وزير العدل وقتها أن المحاكمة ستستمر رغم الملايين التى ستتكلفها .

وفى ٤ فبراير ١٩٥٨ وضعت وينى طفلتنا التى أسميناها زينانى ويعنى الإسم "ماذا أحضرت إلى العالم" ويجسد

التحدى . وحضرت أمى لمساعدة وينى .

- ٣٠ -

فى ٦ إبريل ١٩٥٩ وفى الذكرى السنوية لرسو جان فان رايبيك فى الكيب ولدت منظمة جديدة أخذت تعمل على منافسة المؤتمر كمنظمة إفريقية رائدة فى جنوب إفريقيا . كانت المنظمة تدعى "مجلس كل الأفارقة" وقد أعلنت منذ البداية رفضها لسياسة كل الأعراق التى يتبعها المؤتمر . وكان الأعضاء المؤسسون يعتقدون أن منظمة المؤتمر ليست نضالية بالدرجة الكافية وأن أعضاءها لا يرتبطون بالجماهير وأنها يسيطر عليها غير الأفارقة . وتم انتخاب روبرت سوبوكوى رئيسا وبوتلاكو ليبالو أمينا عاما وكلاهما من الأعضاء السابقين لتنظيم الشباب . وفى الخطاب الافتتاحى دعا سوبوكوى إلى حكم الأفارقة للأفارقة ومن أجل الأفارقة وقدمت المنظمة مانيفستو ودستورا . وأعلنت أنها تنوى الإطاحة بسيادة البيض وأن تؤسس من الأفارقة اشتراكية قوامها الديمقراطية واستنكرت الشيوعية بجميع أشكالها واعتبرت البيض والهنود أقليات أجنبية ليس لها مكان فى جنوب إفريقيا .

ولم يسبب ميلاد المنظمة الجديدة لنا الدهشة فقد كان الأفارقة القوميون فى المؤتمر يجهرون بالشكوى منذ أكثر من ثلاث سنوات ، وفى عام ١٩٥٧ دعوا إلى سحب الثقة من اللجنة التنفيذية للترنسفال ولكنهم هزموا وعارضوا قرارات عديدة للمؤتمر مما أدى إلى فصل ليبالو وكان مجموعة الأفارقة القوميين قد عارضوا الميثاق على أساس أنه خرق

لمبادىء القومية الإفريقية . ورفعت المنظمة الجديدة شعارات إفريقيا للأفارقة والولايات المتحدة الإفريقية .

وكان المؤسسون أصدقاء وزملاء لى وشعرت بالاستياء أن راديبى معلمى السياسى قد انضم للمنظمة الجديدة رغم كونه عضوا سابقا فى الحزب الشيوعى .

وكان عديد ممن انضموا للمنظمة الجديدة قد فعلوا ذلك لأسباب شخصية منها الغيرة والرغبة فى الانتقام . وكان اعتقادى دائما أن على المقاتل من أجل الحرية أن يكبت كثيرا من المشاعر الشخصية التى تجعل منه فردا مستقلا بدلا من جزء من حركة جماهيرية واعتقدت أن كثيرا من آراء وتصرفات غير ناضجة . ورغم تعاطفى مع آراء الأفارقة القوميين وأن كثيرا من آرائهم ضمن معتقداتى فى وقت من الأوقات فقد كنت أعتقد أن النضال من أجل الحرية يتطلب من الإنسان القبول بآراء وسيطة وتقبل نظم قاومها حينما كان أحدث سنا .

وقدمت برنامج عمل مثيرا وطموحا يعد بالحلول السريعة وكان ضمن ذلك الوعد بأن التحرير سيتم عام ١٩٦٣ . ورغم أن ذلك التنبؤ أثار الأمل والحماس بين الجماهير التى تعبت من الانتظار فإنه لمن الخطر أن تعد منظمة جديدة بما لا تستطيع تنفيذه .

ورغم ترحيبنا الدائم بانضمام أى شخص لمعركة الكفاح فإن المنظمة الجديدة كانت كثيرا ما تقوم بدور المفسد . فقد أدت إلى تقسيم الناس فى لحظة حرجة . فكانوا مثلا يطلبون من الناس الذهاب إلى العمل فى وقت نكون قد دعونا فيه إلى

الإضراب وكانت تصدر تصريحات مضللة ترد بها على تصريحاتنا . لكننى كنت آمل فى الوحدة بين المنظمتين رغم أن المؤسسين كانوا قد انفصلوا عن المؤتمر . وهكذا بدأت أهتم بنشاط تلك المنظمة وسياستها على أمل أن أجد مماثلا أكثر من الإختلاف الظاهر .

- ٣١ -

وفى عام ١٩٥٩ أقر البرلمان قانون الحكم الذاتى للبانتو الذى أدى إلى خلق ثمانى بانتوستانات عرقية منفصلة وكان ذلك تأسيسا لما أسمته الدولة بالأبارتايد الأعظم . وتبع ذلك قرار منع غير البيض من الالتحاق بالجامعات التى كانت تقبلهم بحجة استحالة دمج الأفارقة فى مجتمع أبيض . وطبقا للقانون الجديد فقد حرمنا نحن الأفارقة الذين نعيش فى مناطق "البيض" من الحرية فى تلك المناطق ومن الإستقلال فى "مناطقنا" العرقية .

وحدثت مقاومة شديدة للقانون الجديد فى المناطق الإفريقية اعتقل على اثرها عشرات الأبرياء وحوكموا وسجنوا ونفوا وعذبوا وقتلوا . ووصلت المقاومة فى سكهوكهو نيلاند إلى تحد علنى رفض الناس على إثره دفع الضرائب وكان المؤتمر قد لعب دورا قائدا فى الاحتجاج فى تلك المنطقة وفى منطقة زيروست . وانبثقت فروع جديدة للمؤتمر فى زيروست لحق بعضويتها ألفان وحظر نشاط المؤتمر هناك . كما انفجرت المقاومة فى أماكن اخرى عديدة قوبلت بالقمع . أما فى ثمبولاند فقد كانت المقاومة قد بدأت منذ عام ١٩٥٥ وكان ساباتا أحد قوى الاحتجاج .

وقد آلمنى أن يتوجه غضب الناس فى ترانسكى إلى داليونجا الذى كان يتعاون مع الحكومة والذى كان ابن أخى ومعلمى فى وقت من الأوقات . واتخذ هو ضد المواطنين إجراءات تعسفية وكانت هناك محاولات عدة لاغتياله . وكان مصدر ألم آخر لى هو أن والد وينى كان من مؤيدى الحكومة .

- ٣٢ -

وفى ٣ أغسطس وبعد عامين وثمانية أشهر من اتهامنا بدأت محاكمتنا الفعلية . وقد ضمت المحكمة حوالى ألفين من الوثائق إلى ملف الدعوة ودعت مائتين وعشر شهود منهم مائتين من أعضاء الشرطة السرية الدين اعترفوا أنهم قاموا بالاختباء فى دواليبنا وتحت أسرتنا والتخفى كأعضاء فى المؤتمر بالاضافة إلى العديد من الوسائل الأخرى لجمع المعلومات . وكانت معظم الوثائق عبارة عن كتب وأوراق ضبطت فى حملات التفتيش ومذكرات كتبها رجال الشرطة السرية أثناء اجتماعنا وكانت معظمها مشوشة .

وبدأ استجواب الشهود ورغم حجم الوثائق المقدمة فلم يكن بها ما يديننا . وفى مارس أعلن الادعاء أنه أتى بدليل الإدانة القاطع وكان ذلك تسجيلا لكلمة ألقاها روبرت ريشا على عدد من المتطوعين قبل أسابيع من إلقاء القبض علينا وجاء فيها "إذا طلبت المنظمة منكم عدم استعمال العنف فيجب عليكم ألا تستعملوه . وإذا كنت متطوعا حقا واطلب إليك أن تستعمل العنف فعليك أن تصبح عنيفا لأقصى درجة ، لابد أن تقتل .. تقتل .. وهذا هو كل شىء"

واعتقد المدعى أنه قد ختم القضيةورددت الصحف كلمات ريشا واعتبرت الدولة والصحافة أنها قد كشفت النقاب عن ادعاءات المؤتمر بعدم استعمال العنف . وكانت كلمات ريشا غير معتادة وكما أثبت الدفاع فقد كان يؤكد على أهمية النظام وعلى أن يفعل المتطوع ما يطلب منه مهما كان لا يروقه وكانت تلك الكلمات مقتطعة من السياق كما برهن الشهود .

وبعد ذلك كان علينا استدعاء الشهود وكان شاهدنا الأول هو د . ويلسون كونكو على خلاف جميع التوقعات فى أن يكون هو الرئيس لوثولى . وكان كونكو من زولو إقليم الناتال وكان طبيبا ممارسا نابها وضمن مؤسسى تنظيم الشباب وأحد الذين شاركوا فى حملة التحدى . وكنا قد طلبنا ضم سجله فى جامعة وبتس حيث كان الأول على دفعته إلى القضية . وقد بدا على القاضى كيندى أنه هو الآخر فخور به حيث أنه كان هو ناتاليا أيضا . وقد سبب وجود كونكو أن ينظر إلينا كيندى على أننا لسنا مثيرى شغب بل رجال لهم طموحاتهم . وقد برهن كونكو فى شهادته التزام المؤتمر بعدم العنف . وبعد ذلك صعد الرئيس لوثولى منصة الشهادة وترك أثرا إيجابيا على الهيئة القاضية لوقاره وصدقه وقد استمرت شهادته عدة أيام برهن فيها بصدق سعى المؤتمر إلى التناسق الاجتماعى كما وضح أن هناك فرقا بين عدم العنف والمسالمة فإن الذين يميلون الى عدم العنف يدافعون عن أنفسهم إذا هوجموا على عكس المسالمين . ولكن وقع حدث هام فى جنوب إفريقيا يوم ٢١ مارس قطع سير شهادة لوثولى وحينما عاد مرة أخرى كانت جنوب إفريقيا قد تغيرت كثيرا .

في ديسمبر عام ١٩٥٩ عقد الاجتماع السنوى للمؤتمر فى دربان وسط مظاهرات صاخبة ضد تصاريح المرور وقرر المجتمعون بالاجماع بدء حملة على مستوى البلاد ضد التصاريح يوم ٣١ مارس تبلغ ذروتها يوم ٢٦ يونيو بحرق جماعى للتصاريح .

وبدأت الحملة فورا وأرسلت الوفود إلى السلطات المحلية وجاب موظفو المؤتمر البلاد متحدثين عن الحملة وسرت الأخبار فى المناطق والمصانع وتم طبع منشورات وملصقات وتوزيعها ولصقها فى القطارات والحافلات . وأخذت الدولة تهدد بحظر المؤتمر . أما فى أنحاء إفريقيا فكانت مسيرة الحرية تتقدم وأعلنت غانا جمهورية مستقلة برئاسة نيكروما الإفريقى القوى المعارض للأبارتايد مما سبب الذعر للحزب القومى وجعلهم أكثر اصرارا على اخماد المعارضة فى البلاد . وفى عام ١٩٦٠ تم استقلال عدة مستعمرات سابقة فى افريقيا وأصبحت دولا مستقلة . وفى فبراير زار هارولد ويلسون رئيس وزراء بريطانيا جنوب إفريقيا وتحدث فى البرلمان عن رياح التغيير التى تهب على إفريقيا .

وكانت قيادة P.A.C تبحث عن مناسبة تضم إليها التابعين . فبدلا من أن يلحقوا بحملة المؤتمر المعارضة للتصاريح قرروا بدء حملتهم المنفردة يوم ٢١ مارس أى قبل حملتنا بعشرة أيام . وفى اليوم المحدد سار سوبوكوى ولجنته التنفيذية إلى مركز الشرطة ليسلم نفسه للحبس معلنا أنه لن

يدافع عن نفسه أو يدفع غرامة أو يخرج بكفالة فقد اعتقد أن حبسهم لن يتجاوز الأسابيع وبدلا من ذلك حكم بسجنهم ثلاث سنوات دون أى خيار آخر .

ورغم أن دعوة الـ P.A.C لم تلق استجابة قوية فى جوهانسبرج . ففى ايفاتون تقدم عدة مئات للشرطة طالبين إلقاء القبض عليهم لعدم حملهم التصاريح . كما حدثت مظاهرة ضخمة من حوالى ٣٠٫٠٠٠ شخص فى كيب تاون ووقعت حوادث شغب قتل فيها إثنان . وكانت آخر الأماكن التى وقعت فيها مظاهرات هى شاربفيل حيث انتهى الأمر بمأساة . فقد توجه عدة آلاف إلى الشرطة وكانوا هادئين غير مسلحين ونظرا لتفوقهم العددى شعرت قوة الشرطة وعددها خمسة وسبعين بالخوف وفتحت نيرانها على الجموع التى استدارت وبدأت فى الهرب من الرصاص . وكانت النتيجة مقتل ستة وتسعين إفريقيا أصيب معظمهم برصاص فى ظهره وبلغ عدد الجرحى أكثر من أربعمائة من بينهم عشرات النساء والأطفال . وكانت مذبحة نشرت صورها صحف العالم وأثارت ردود فعل عنيفة على المستوى المحلى والدولى وصدرت احتجاجات غاضبة من جميع أنحاء العالم بما فيها المصادر الرسمية الأمريكية . ولأول مرة يتدخل مجلس الأمن فى شئون جنوب إفريقيا ويصدر لوما للحكومة ويطالبها ببدء خطوات لإحلال المساواة بين الأعراق وهبطت أسعار البورصة وبدأ تهريب رؤوس الأموال ألى الخارج وأخذ البيض فى رسم خطط الهجرة بينما أصدرت الحكومة بيانا قالت فيه أن أحداث شاربفيل كان مؤامرة شيوعية .

وقد خلقت تلك الأحداث موقفا جديدا فى البلاد فرغم عدم نضج وانتهازية بعض القيادات فقد أظهرت المنظمة شجاعة وقوة احتمال فى المظاهرات فى شاربفيل . وفى خلال يوم واحد احتلت المنظمة الصفوف الأمامية فى المقاومة ولقى سوبوكوى الترحيب فى الداخل والخارج كمخلص للبلاد وقائد لحركة التحرير .وكان على المؤتمر أن يقوم بتعديل خططه طبقا للموقف الجديد .

وعقدت جماعة صغيرة منا ـ وولتر ودومانوكوى وچو سلوڤو وأنا ـ اجتماعا دام طوال الليل للتخطيط لرد الفعل . وكنا نعرف أن علينا أن نعلن علمنا بالأحداث وأن نهيىء للناس فرصة للتعبير عن غضبهم وحزنهم . وأخبرنا الرئيس لوثولى بخطتنا وفى ٢٦ مارس قام بنفسه بإحراق جواز مروره علنا فى بريتوريا ودعا الآخرين أن يفعلوا مثله وأعلن يوم ٢٨ مارس يوما يلزم المواطنون فيه منازلهم للحداد والاحتجاج على وحشية حوادث شاربفيل وقمت أنا ودوما نوكوى بحرق تصاريحنا فى أورلاندو أمام مئات الناس ومراسلى الصحف .

وفى يوم ٢٨ مارس كانت هناك استجابة رائعة لدعوة الرئيس وأثبت ذلك جماهيرية المؤتمر كمنظمة . وفى كيب تاون اجتمع حوالى خمسين ألفا فى منطقة لانجا للاحتجاج . وثارت أحداث شغب فى أماكن عديدة . وأعلنت الحكومة حالة الطوارىء وأعطت لنفسها سلطات واسعة فى اتخاذ الاجراءات ضد أى نوع من العصيان وباتت جنوب إفريقيا خاضعة للأحكام العسكرية .

فى الواحدة والنصف من صباح ٣٠ مارس استيقظت ع
صوت طرقات معادية على الباب وعرفت أنها الشرطة وفتد
الباب لأجد عددا من رجال الشرطة المسلحين الذين قام
بقلب المنزل رأسا على عقب وأخذوا معهم كل قصاصة ور
وجدوها حتى السجلات التى كنت أقوم بجمعها عن ذكريا
والدتى عن التاريخ والأساطير القبلية . وتم القبض علىَّ دو
اعطائى فرصة للاتصال بمحاميى وأخذت إلى مركز شرط
نيوزلاند فى صوفيا تاون حيث وجدت عددا من زملائى بينه
وصل آخرون أثناء الليل ووصل عددنا أربعين . وفى السابع
والنصف صباحا نقلنا إلى زنزانة صغيرة بها حفرة فى الأرض
ولم نعط أى بطاطين أو حصائر .

وأخذت الحفرة فى الانسداد بانتظام وأصبحت الرائحة لا
تحتمل . واحتججنا وقوبل الاحتجاج بالصمت فقررنا الاندفاع
حين فتح الباب ورفض العودة لحين احضار طعامٌ ولما فعلنا
ذلك أمرنا الجاويش بالعودة فورا وإلا أحضر خمسين شرطياً
بهراوات لكسر رؤوسنا . وفعلنا .

وفى الثالثة ظهرا وضعوا لنا اناء به ثريد ذرة دون أى
أدوات إطعام ورغم ذلك أكلنا بأيدينا غير المغسولة نظرا لشدة
جوعنا . وبعد ذلك انتخبنا لجنة كنت متحدثها وكتبنا طلبا
نحتج فيه على الظروف غير المناسبة ونطلب الإفراج عنا على
أساس عدم قانونية احتجازنا . وفى السادسة مساء أحضروا
لنا بطاطين وحصرا ملوثة بالدماء الجافة والقيء وترعى فيها
الحشرات والهوام كالقمل والصراصير ومنبعث منها رائحة

تنافس رائحة البالوعة . وفى منتصف الليل بدأوا فى استدعائنا وكنت أول المستدعين ووجهوا إلينا أسئلة أعيد بناء عليها إلقاء القبض علينا طبقا لقانون الطوارئ . وفى الصباح قيل لنا أن علينا أن نرحل إلى بريتوريا لحضور جلسة المحاكمة .

- ٣٥ -

وكانت المحاكمة قد استؤنفت فى غيابنا يوم ٣١ مارس وكان الذين حضروها هم الذين فشلت الشرطة فى إلقاء القبض عليهم . وكان على الرئيس لوثولى أن يدلى ببقية أقواله وعندما سأل عنه القاضى رامف أبلغ أنه فى حيازة الشرطة . وطلب القاضى استدعاءه ورفعت الجلسة .

وبعد ذلك اكتشفت أنه قد وقع اعتداء على الرئيس بعد القبض عليه وكانت معاملة كتلك لشخص فى مثل منزلته ، هذا بالاضافة الى مرضه بالقلب ، شيئا لا يحتمل وحينما أحضرنا مرة أخرى إلى المحكمة أبلغ القاضى أن الشرطة رفضت احضار لوثولى وتأجلت الجلسة . وألقى القبض علينا مرة أخرى وسط هرج وفوضى . ووقعت يومها الشرطة فى خطأ مضحك . فقد كان ويلتون مكوايى أحد العناصر النشيطة فى المؤتمر قد حضر من بريتوريا لحضور المحاكمة وحدث أن أنفصل عن زملائه المسجونين داخل القاعة وحينما أراد الخروج ورأى الحلقة التى كان قد أحدثها اعادة القبض علينا سأل رجل الشرطة عن الأمر فأخبره أن ذلك لا يخصه فلما أبلغه أنه أحد المقبوض عليهم أهانه الضابط وهدده وانصرف ويلتون واختبأ لعدة أشهر ثم تم تهريبه خارج البلاد ليظهر مرة

أخرى كممثل اتحاد النقابات التجارّية فى الخارج وليذهب بعد ذلك إلى الصين ليدرب عسكريا .

وكانت الحملة قد اسفرت عن اعتقال أكثر من ألفى شخص فى جميع أنحاء البلاد رجالا ونساء من جميع الأعراق وكلهم معارضون للأبارتايد . وفى يوم ٨ إبريل أعلن المؤتمر P.A.C ومنظمتين غير قانونيتين وأصبحت عضويتهما جريمة تعاقب بالغرامة والحبس وكانت عقوبة تعزيز أهداف المؤتمر عشر سنوات سجن وهكذا أصبحنا جميعا خارجين على القانون .

ونقلنا إلى سجن بريتوريا الذى أصبح منزلا لنا لمدة طويلة . فقد كنا نغادره فى الصباح إلى المحكمة ونعود إليه بعد الظهر . وطبقا لتعاليم الأبارتايد كان السجن يفصل بين المحتجزين طبقا للون البشرة وكانت الوجبات تحدد طبقا للون البشرة . فكانت تصرف فى الأفطار كميات متساوية للأفارقة والهنود والملونين لكن الهنود والملونين كانوا يحظون بنصف ملعقة سكر للفرد . وكانت وجبات العشاء موحدة إلا أنه لم يكن يصرف خبز للأفارقة . أما طعام البيض فكان متميزا حتى فى النوعيات التى تقدم .

وكنت أثناء مدة الحجز أتمتع برحلات عمل فى نهاية الأسبوع إلى جوهانسبرج . فقبيل إعلان حالة الطوارىء غادر أوليفر جنوب إفريقيا عملا بأوامر المؤتمر الذى كان قد قرر أنه يجب سفر بعض الأعضاء لتقوية المنظمة فى الخارج تحسبا لليوم الذى تحظر فيه . وكانت مناورة أوليفر من ضمن الأعمال الموفقة من جانب المؤتمر حيث لم تكن وقتها نتخيل الأهمية الحيوية التى ستكون للجناح الخارجى . وكان أوليفر قبل

سفره قد أوكل إلى صديق مشترك لنا وهو هايمي داڤيدوف أمر اغلاق مكتبنا وإنهاء عملنا وقد طلب داڤيدوف من السلطات السماح لى بالحضور إلى المكتب ووافقت السلطات فى نوبة من الكرم .

- ٣٦ -

وفى يوم ٢٥ إبريل أى قبل استئناف المحاكمة استدعانا ميسلز لمناقشة الآثار الخطيرة لحالة الطوارئ على سير المحاكمة . وكانت الاستشارات بيننا وبين هيئة الدفاع قد أصبحت مستحيلة بسبب قانون الطوارئ . واقترحت هيئة الدفاع الإنسحاب كنوع من الاحتجاج رغم معارضة ميسلز خوفا من استفزاز القضاة . وقررنا بالإجماع أن نتولى نحن المحتجزين الدفاع عن أنفسنا وأن أتولى أنا ودوما نوكورى اعداد القضية وقام نوكورى باعلان ذلك فى المحكمة يوم ٢٦ إبريل وكانت صدمة للقضاة الذين حذورنا من مغبة تصرفنا .

وكانت استراتيجيتنا أن نطيل أمد القضية حتي انتهاء حالة الطوارئ وعند ذلك يعود محامونا ويتمكنون من الدفاع عنا فى أحوال طبيعية .

وكان من الصعب الإعداد للقضية فى السجن حيث تعوقنا أنظمة الأبارتايد فقد كنا نحتاج أن نتقابل لكن قوانين السجن كانت تمنع لقاء الرجال والنساء والبيض والسود وبعد مفاوضات مطولة مع سلطات السجن سمح لنا بالتشاور تحت ظروف مشددة وتمت إقامة فواصل حديدية شبكية تفصل البيض عن السود أثناء تلك اللقاءات . وقمنا بتدريب المتهمين على إجراءات الشهادة والدفاع .

وبعد فترة من الأدلاء أمام المحكمة بدأ التعب ينتاب البعض . وطلب أحدنا التأجيل ورفضت هيئة المحكمة مذكرة إيانا بتحذيرنا عندما طلبنا من هيئة الدفاع الانسحاب . وعندما عدنا إلى السجن تعرضت للهجوم وطالبنى البعض بالكشف عن السبب الذى من أجله أخبرتهم أن يستغنوا عن فريق الدفاع وأخبرتهم أن ذلك كان قرارا جماعيا وحذرتهم من أن يفقدوا شجاعتهم وإلا فسنواجه متاعب جمة وذكرت أن القضية أكبر من أن تكون مجرد محاكمة لخرق القانون إذ أنها إختبار لقوتنا وخمد الاحتجاج .

وعندما بدأ المتهم الثالث أحمد كاثرادا قضيته وأثناء استجوابه للشهود أعلن فيرويرد رئيس الوزراء عن قرب رفع حالة الطوارىء اعتقادا منه أن الحكومة قد قضت على معركة التحرير . عندئذ عادت هيئة الدفاع وشعرنا بالارتياح فقد كان قد مر علينا خمسة أشهر فى الحجز بدون محامين .

بدأت أقوالى يوم ٣ أغسطس وكان قد مرت علىَّ سنوات ثلاث من الصمت والحظر والنفى الداخلى وكنت أترقب تلك الفرصة لأعبر عن نفسى أمام من يحاولون الحكم علىَّ . وفى أثناء شهادتى الرئيسية قلت أننا نطالب بالحقوق الدستورية لكل البالغين وأننا مستعدون للقيام بضغوط اقتصادية لتحقيق ذلك حتى تضطر الدولة للحوار معنا . فإذا اقترحت الحكومة مثلا أنه نظرا لعدم استعداد الأوروبيين الآن أن يسيطر عليهم الأفارقة وأنها على استعداد لمنحنا ستين مقعدا فى البرلمان على أن تعيد تقييم الموقف بعد خمس سنوات فإنى أعتبر ذلك انتصارا . ولكن الدولة مصرة على كونى شيوعيا خطيرا ورغم

عدم كونى شيوعيا فأنا لا أرغب فى التباعد عن أصدقائى الشيوعيين ولهذا ورغم خطر إعادتى للسجن للادلاء بهذه الآراء فأنا لا أتردد فى التأكيد على الدعم الهائل الذى منحه إيانا الشيوعيون .

وعندئذ سئلت عما إذا كان نظام الحزب الواحد مناسبا لجنوب إفريقيا فأجبت أن المشكلة ليست مشكلة شكليات ولكنها مشكلة الديمقراطية فإن كان بالامكان التعبير الديمقراطى من خلال الحزب الواحد فلابد لى أن أبحث الأمر جيدا وكذلك أفعل إذا ما كان بالإمكان التعبير الديمقراطى من خلال التعددية الحزبية . وقلت أنه فى هذه البلد يوجد نظام متعدد الأحزاب لكن فيما يختص بغير الأوروبيين فلا توجد سوى ديكتاتورية شريرة .

وأغضبنى القاضى حينما قال إن التمثيل البرلمانى لا يجدى مع غير المتعلمين فقد نسى أن التعليم لا يعنى القراءة والكتابة فالشخص الأمى من الممكن أن يكون ناخبا متعلما يفوق من يحمل درجة جامعية . وأخبرت المحكمة أيضا أننا نعتقد بإمكانية تحقيقنا لمطالبنا دون عنف نظرا لغلبتنا العددية . وأنه عن طريق سياسة الضغط الإقتصادى كالاضرابات مثلا فلابد وأن يستجيب الأوروبيون .

ورفعت القوانين الاستثنائية آخر أغسطس وأفرج عنا واستقبلتنا الجماهير بحماس زائد وجاءت وينى إلى بريتوريا ولأول مرة منذ خمسة شهور أقضى الليل فى سريرى .

واستمرت المحاكمة بعد ذلك تسعة شهور وكانت أياما

مجيدة حيث كان بإمكان أفرادنا أن يقفوا على المنصة متحدثين عن سياسة المؤتمر . وكذلك فعلوا .

وفى أكتوبر دعى البروفسور ماثيوس كشاهد أخير . وأدى أقواله برباطة جأش وكان يعامل ممثلى الادعاء كطلبة فى حاجة إلى توبيخ وشرح بإسلوب بديع أن الأفارقة يعلمون أن المعركة القائمة على عدم استعمال العنف تتطلب معاناة وقد اختاروا ذلك لأنهم يفضلون الحرية على أى شىء آخر . وهكذا أنهى الدفاع نهاية رائعة وبعد أن أنتهى صافحه القاضى كيندى وأعرب عن أمله أن يلتقيا ثانية فى ظروف أفضل .

- ٣٧ -

وبعد رفع الطوارىء اجتمعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر سرا فى سبتمبر لمناقشة المستقبل وقررنا ألا نحل أنفسنا بل نعمل سرا وكان ذلك يتطلب توقف سياستنا الديمقراطية المبنية على الاجتماعات والمؤتمرات وخلق هياكل جديدة للاتصال بمنظمات المؤتمر غير المحظورة وكانت تلك الهياكل غير قانونية مما يعرض المشاركين للسجن وكان علينا بالضرورة حل تنظيمى الشباب والمرأة .

ورغم أن "مانديللا وتامبو" كان قد أنهى أعماله فقد كنت أمارس عملى القانونى من خلال شقة أحمد كاثرادا وتكاثر العملاء حتى أصبحوا يزحمون المكان . وكانت وينى فى ذلك الوقت حاملا للمرة الثانية وكانت تأمل أن أكون معها وقت الوضع . لكن مرض ابنى مكجاثو جعلنى أخرق أمر الحظر وأسافر إلى ترانسكى وأحضره لإجراء جراحة له فى

جوهانسبزج . وحين عدت كانت وينى فى المستشفى وأسرعت هناك لأجدها قد وضعت بنتا أسميناها زيندا زيسوا .

- ٣٨ -

واستغرقت المحكمة شهرا لتستكمل تلخيصها الأخير للقضية وفى مارس بدأ ميسلز الدفاع وأعقبه برام فيشر. ولكن المحكمة قطعت دفاع فيشر فى ٢٣ مارس وطلبت التأجيل إسبوعا .

وكان قرار الحظر مقررا له ان ينتهى عقب ذلك بيومين وقررت أن أذهب فى غفلة من الشرطة لحضور مؤتمر "الجميع فى المعركة" الذى كان هدفه اثارة القلاقل من أجل مؤتمر دستورى لجميع مواطنى جنوب إفريقيا وكان مقررا أن يعقد فى مدينة على بعد ثلاثمائة ميل وكنت أنا المتحدث الرئيسى .

وفى اليوم السابق لسفرى عقد إجتماع سرى للجنة العاملة القومية لبحث الاستراتيجية وكنا قد قررنا العمل سرا وفقا لخطة "م" . واتخذ القرار بأنه إذا لم تتم إدانتى فعلى أن أختفى وأسافر عبر البلاد لتنظيم المؤتمر المقترح كما تقرر أن أظهر فى بعض المناسبات لأعلن أن المؤتمر مازال يكافح .

وشرحت لوينى ما حدث وأخبرتها أنى سأرحل فى اليوم التالى وأننى قد أعود لبريتوريا يوم الاثنين لسماع النطق بالحكم وعلى أية حال فلن أعود إلى المنزل فإن تمت إدانتى فسأذهب إلى السجن وإذا ما ابرئت فسأختفى .

حضر المؤتمر ألف وربعمائة مندوب من أنحاء البلاد يمثلون مائة وخمسين هيئة دينية وإجتماعية وثقافية وسياسية وحينما وقفت لإلقاء كلمتى قوبلت برد فعلي حماسي ودعوت فى خطابى إلى اجتماع يجلس فيه جميع الجنوب الافريقيين فى تآخ ويأتون بدستور يمثل تطلعات البلاد ككل وإختتمت كلمتى داعيا إلى الوحدة .

ودعا مؤتمر "الكل فى المعركة" إلى مؤتمر قومى عام من ممثلين منتخبين لكل الراشدين من مبدأ التساوى لتقرير دستور جديد ديمقراطى لا عرقى . وتم انتخاب مجلس قومى للعمل انتخبت أمينا عاما شرفيا لإبلاغ هذا المطلب للحكومة . وأنه فى حالة عدم دعوة الحكومة لمثل هذا المؤتمر فسندعو إلى ثلاثة أيام من الأضراب فى المنازل يوم ٢٩ مايو الذى يوافق عيد الجمهورية فى جنوب إفريقيا .

وكان ذلك اليوم قد حدد لإعلان الجمهورية فى جنوب إفريقيا . وعقب المؤتمر وجهت خطابا إلى رئيس الوزراء فيرديرد اطالبه بعقد مؤتمر للدستور وأعلمته باعتزامنا الاضراب ثم اصدرت بيانا صحفيا مؤكدا أن الاضراب سيكون سلميا خاليا من العنف ولم يجب رئيس الوزراء واكتفى بوصف خطابى فى البرلمان بالصلافة .

- ٣٩ -

حتى قبل أن تفتح المحكمة أبوابها يوم ٢٩ مارس عام ١٩٦١ لسماع النطق بالحكم كان جمهور من المؤيدين والصحفيين قد احتشدوا محاولين شق طريقهم إلى الداخل .

وبعد أن استعرض القاضى رامف وقائع القضية قال أنه بناء على جميع الأدلة التى قدمت للمحكمة وعن بحث المحكمة عن الحقيقة كان من المستحيل لهيئة المحكمة أن تصل إلى استنتاج أن المؤتمر الإفريقى قد تبنى سياسة للإطاحة بالدولة بالقوة وكذلك فقد وجدت الهيئة أن الادعاء قد فشل فى أن يثبت أن المؤتمر منظمة شيوعية أو أن الميثاق تصور لدولة شيوعية . وبعد أن تحدث لمدة أربعين دقيقة قال القاضى رامف "وهكذا فقد وُجد أن المتهمين غير مذنبين وتم الإفراج عنهم" .

وانفجرت صيحات الفرح من الجمهور . وعانقنا بعضنا . ولوحنا للقاعة الممتلئة سعادة . وصاحت الجماهير فى الغناء وأخذت فى الانشاد . وعند خروجنا حمل بعضنا هيئة الدفاع على الأكتاف وأخذت الكاميرات تلتقط الصور وأخذنا نحن نبحث عن الزوجات والأصدقاء والأقارب . وجاءت وينى وتعانقنا بفرحة رغم علمى أننى لن أنعم بتلك الحرية طويلا وأخذنا جميعا نغنى لإفريقيا . وتسبب الحكم فى احراج الحكومة فى الداخل والخارج وأدى ذلك إلى شعور الدولة بالمرارة أكثر تجاهنا وتصميمها على أن تكون أكثر صرامة .

ولم أنظر للحكم على أنه تبرير للنظام القضائى فى جنوب إفريقيا أو على أن الرجل الأسود بإمكانه أن يحظى بمحاكمة عادلة فى محاكم الرجل الأبيض فقد كان حكما صحيحا وعادلا لكنه كان نتيجة وجود هيئة دفاع ممتازة وهيئة قضائية عادلة .

أما فى حالة محاكمة قضية الخيانة فإن القضاة الثلاثة سموا فوق تحيزاتهم وتعليمهم وبيئتهم . فأثناء المحاكمة كان

القاضى رامف يعطى انطباعا بأنه يشارك الأقلية الحاكمة آراءها ولكن جوهر العدالة تغلب فى حكمه . ولم يكن كيندى محافظا بنفس درجة زملائه وكان يبدو أن فكرة المساواة تروق له . فقد حدث أن كان مسافرا إلى دربان على نفس الطائرة التى كان نوكوى سيسافر عليها ولما لم يسمح لنوكوى أن يركب الحافلة التى كانت ستقلهم إلى المطار رفض كيندى أن يستقلها . أما بيكر فبدا لى دائما أنه متفتح عقليا وأنه كان على دراية بأن المتهمين قد عانوا كثيرا . وإنى لأمتدح هؤلاء الثلاثة كأفراد وليس كممثلين للمحكمة أو الدولة أو جنسهم .

الجـزء السـادس
البيمبـرنيـل الأسـود

- ٤٠ -

لم أرجع إلى منزلى عقب الحكم فقد كنت أعرف أن السلطات قد توجه ضربتها فى أية لحظة وأردت أن أرحل قبل أن يقع علىَّ الحظر أو يلقى القبض علىَّ .

وفى بورت إليزابث التقيت بعدد من القيادات لنناقش الهياكل السرية للمنظمة والتقيت برئيسى تحرير مجلتين ليبراليتين لأناقش معهما القيام بحملة صحفية من أجل عقد مؤتمر قومى .

وفى اليوم التالى انضممت إلى اجتماع سرى فى دربان مع الأعضاء التنفيذيين لحركة الكونجرس لتقرير ما إذا كنا سننفذ الإضراب فى شكل احتجاج بالمنازل أو فى شكل تنظيم مرابطات أمام المؤسسات ومظاهرات . وكان هناك من يرى أننا فى حاجة إلى عمل أكثر نضالية خاصة وأنه بدأ فى اجتذاب الجماهير . وكان رأيى أن إضراب المنازل يسمح لنا بالاضرار بالعدو دون أن يضر هو بنا وكنت أقول ذلك وأنا أعلم أن الناس قد ضاقوا بالمقاومة السلمية . واتخذ القرار فى صالح إضراب المنازل .

أن تعيش فى السر يتطلب نقلة نفسية . فعلى المرء أن

يخطط لكل فعل مهما صغر . وأن يسائل فى كل شىء . ولا يستطيع المرء أن يكون نفسه فلابد وأن يتقمص الدور الذى يلعبه . ولا أظن أن هذا صعب للشخص الأسود فى جنوب إفريقيا . ففى ظل الأبارتايد عاش الأفارقة حياة ظلية مابين القانونية والخروج عنها ومابين الظهور والاختباء . ولأن تكون أسود فى جنوب إفريقيا فإن ذلك كان يعنى ألا تثق فى أى شىء وهذا لا يختلف كثيرا عن الحياة مختبئا .

أصبحت مخلوقا ليليا فكنت لا أخرج لعملى إلا فى الظلام وفى الأساس كنت أعمل فى جوهانسبرج ولكننى كنت أسافر إذا استدعى الأمر . كنت أقيم فى شقق خالية وفى منازل الآخرين وفى أى مكان يمكن أن أكون فيه وحيدا وغير ظاهر . وعندما كنت أعيش مختبئا كنت لا أسير طويلا معتدل القامة وكنت أتكلم بصوت خفيض بدون وضوح أو تميز وكنت لا أسأل عن أى شىء بل كنت أترك الآخرين يخبروننى عما أعمل . تركت شعرى وذقنى ينموان وكنت غالبا ما اتخفى كسائق أو طباخ أو بستانى وكنت أرتدى الزى الأزرق أو زى عمال الزراعة . كانت لدىَّ سيارة وكنت أرتدى قبعة السائق مع الزى الأزرق وكان ذلك التخفى يناسبنى لأننى كنت أستطيع التنقل متظاهرا بأننى أقود سيارة سيدى .

وفى الأشهر الأولى وحينما كان يصدر امر بالقبض علىَّ وتتبع آثارى الشرطة فقد كان وجودى كخارج على القانون يروق لأخيلة الصحفيين . فتظهر مقالات تدعى أننى أتواجد بأماكن معينة وتضع الشرطة المتاريس على طول الطرق لكى يعودوا خاوين الوفاض . وأطلق علىَّ حينئذ لقب "البيمبرنيل

الأسود" إشارة إلى شخصية روائية تدعى البيمبرنيل الأحمر نجحت فى أن تتحاشى الإمساك بها إبان الثورة الفرنسية .

وكنت أسافر سرا فى أنحاء البلاد . كنت مع المسلمين فى الكيب وعمال السكر فى ناتال وعمال المصانع فى بورت إليزابث وكنت أحضر الإجتماعات السرية فى المناطق المختلفة من البلاد فى المساء . وكنت أحيانا أغذى إسطورة البيمبرنيل بأن أحادث الصحفيين من تليفونات عامة وأخبرهم عما كنا ننوى فعله وعن عجز الشرطة . وكنت أظهر فجأة فى مكان أو آخر مما يضايق الشرطة ويبهج الناس .

إن هناك قصصا غير دقيقة عن تجاربى وأنا مختف فإن الناس يحبون تزيين قصص التحدى . لكننى أيضا كنت أجد نفسى فى مواقف كنت أهرب منها بصعوبة . فحدث أن كنت مسافرا بسيارتى فى المدينة ووقفت فى إشارة مرور ثم نظرت إلى اليسار لأجد الكولونيل سبنجلر رئيس أمن ويتسوتر ساند وكان الإمساك بالبيمبرنيل الأسود سيعتبر إنجازا له . كنت أرتدى قبعة العمال والزى الأزرق والنظارة ، ولكنه لم ينظر ناحيتى ومرت الثوانى كالساعات .

وفى عصر يوم وبينما كنت متخفيا فى زى سائق وأنتظر على ناصية ليصطحبنى أحدهم رأيت رجل شرطة إفريقيا يخطو بعزم تجاهى . ونظرت حولى لأرى ما إذا كان هناك طريق للهرب وقبل أن أفعل نظر إلىَّ وابتسم ورفع ابهاميه باشارة المؤتمر واختفى . وكانت تلك المواقف تحدث كثيرا مما كان يمنحنى الثقة فى ولاء كثير من رجال الشرطة الأفارقة

الذين لعب الكثير منهم أدوارا حقيقية وكانوا ذوى فائدة عظمى لنا .

- ٤١ -

واستغرق الإعداد لاضراب ٢٩ مايو وقتي وأنا مختف . فقد كانت الأمور تسير باتجاه حرب فعلية بين الدولة والحركة الليبرالية . ففى آخر مايو نظمت الدولة غارات على قيادة المعارضة ومنعت الاجتماعات وصودرت المطابع وصدر تشريع يسمح للشرطة بأن تحتجز المقبوض عليهم اثنى عشر يوما مع عدم السماح بالكفالة .

وأعلن فيرويرد أن هؤلاء الذين يؤيدون الأضراب ، إنما يلعبون بالنار . وحثت الحكومة المصانع أن تمد العمال بأماكن للنوم . وقبل الإضراب بيومين قامت الدولة بأكبر استعراض عسكرى لقواتها فى زمن السلم وألغيت عطلات الشرطة ورابطت قوات الجيش فى مداخل ومخارج المناطق المدنية وسارت الدبابات فى الشوارع غير المرصوفة فى المناطق الإفريقية بينما كانت تحلق الطائرات العمودية ثم تنقض لتفريق أى تجمع وكانت تسلط بالليل الأضواء الكشافة على المنازل .

وفى الليلة السابقة للاضراب كان مقررا لى أن ألتقى بعدد من قيادات المؤتمر فى منزل آمن بسويتو . ولكى أتحاشى متاريس الشرطة دخلت سويتو عن طريق لا يوجد به عادة دوريات ولكننى قابلت كمينا وأشار لى الشرطى الأبيض أن أقف وكنت أرتدى زى السائق وبعد أن نظر لى عن قرب أخذ

يفتش السيارة ولما لم يجد شيئا سألنى عن تصريح المرور فأخبرته بأننى قد نسيته خطأ وذكرت له رقما وهميا فأشار لى بالذهاب .

وفى أول أيام الاضراب غامر مئات الآلاف من الناس بوظائفهم ولم يذهبوا إلى العمل ، ففى دربان غادر العمال الهنود المصانع بينما لم يغادر آلاف العمال الملونين منازلهم فى الكيب . أما فى جوهانسبرج فقد لزم نصف العاملين منازلهم وكانت النسبة أعلى فى بورت إليزابث . وقد غطت حملتنا تماما على احتفالات البيض بيوم الجمهورية .

أما على مستوى بقية البلاد فكانت الإستجابة أقل مما توقعنا وذلك لصعوبة الاتصالات . وفى ذلك المساء صرحت لأحد الصحفيين قائلا أن أيام عدم العنف قد انتهت .

وبعد التشاور مع زملائى قررنا أن ننهى الإضراب فى يومه الثانى . والتقيت فى منزل آمن فى ضاحية بيضاء مع صحفيين محليين وأجانب ووصفت الاضراب بأنه نجاح باهر كما ذكرت أنه طالما أن الحكومة تلجأ إلى العنف لقمع نضالنا السلمى فعلينا أن نستعمل طرقا أخرى .

وكان الحوار بشأن استعمال العنف قد بدأ عام ١٩٦٠ وتشاورت مع وولتر واتفقنا على أن المنظمة يجب أن تبدأ نهجا جديدا وكان الحزب الشيوعى قد أعاد ترتيب صفوفه فى السر وكون جناحا عسكريا . وقررنا مناقشة موضوع المقاومة المسلحة مع لجنة العمل فى اجتماعها فى يونيو عام ١٩٦١ : وهناك عارضنى موسيس كوتانى عضو الحزب الشيوعى وقوبل

اقتراحي بالرفض . وقابلت موسيس فى الخفاء وشرحت له الأسباب التى دعتنى إلى الاعتقاد بأنه لا طريق لنا إلا العنف وضربت له مثالا باتيستا الذى استمر فى ممارساته السلمية غير المجدية إلى أن قلب كاسترو الموازين وقلت له إن الناس قد بدأوا فى تكوين وحداتهم العسكرية المستقلة وعلى المؤتمر أن يقودهم . وفى النهاية أخبرنى موسيس بأنه لا يستطيع أن يعد بشىء وأن علىَّ أن أعرض الموضوع للمناقشة مرة أخرى على اللجنة المركزية فى دربان . وكنت متخوفا من معارضة الرئيس لوثولي الذى يعتنق عدم العنف كمبدأ وقلت فى الاجتماع أن العنف هو خيارنا الوحيد إذ أنه خطأ أخلاقى أن نعرض الناس لهجمات مسلحة من الدولة دون أن نقدم لهم البديل وأنه من الأفضل أن نقود نحن أعمال العنف من منطلق مبادئنا حيث ننقذ حياة الأفراد بالهجوم على رموز القمع وليس على الناس .

وفى البدء عارض الرئيس مناقشاتى وجادلناه طوال الليل وأخيرا وافق على أنه لا مفر من الحملة العسكرية وأقرت ذلك اللجنة .

وكانت فكرة الرئيس أن يكون للحركة العسكرية استقلالها الذاتى وفى نفس الوقت تكون متصلة بالمؤتمر وعلى هذا تكون هناك قناتان منفصلتان للمعركة .

وفى اجتماع اللجنة المركزية للحركات التحررية كانت المناقشة ساخنة وعارض بعض المشتركين وخاصة أعضاء المجلس الهندى اللجوء إلى العنف وحاولوا اثناءنا واستمرت المناقشات طوال الليل ووصلنا فى الصباح إلى قرار وفوضنى

المجتمعون فى تكوين منظمة جديدة عسكرية منفصلة عن المؤتمر لأن سياسة المؤتمر يجب أن تظل سلمية .

وكانت تلك خطوة مصيرية . فعلى مدى خمسين عاما عالج المؤتمر عدم استعمال العنف كمبدأ لا يحاد عنه . ولكن فى تلك اللحظة أصبح المؤتمر منظمة مختلفة وأصبحنا على وشك الولوج فى طريق صعب ، طريق العنف المنظم الذى لم يكن باستطاعتنا أن نعلم نتائجه .

- ٤٢ -

وأوكل إلىَّ أنا الذى لم أكن أبدا جنديا ولم أطلق مسدسا مهمة تشكيل جيش . وكان اسم المنظمة رمح الأمة ويرمز إليها بـ M.K ورغم أنه لم يكن يسمح بعضوية البيض للجنة المركزية للمؤتمر فلم تكن هناك قيود على .M.K . وعلى الفور جندت چوسلوڤو الذى شكلت أنا وهو وولتر سيسولو القيادة العليا برئاسته واستعدنا بجهود أعضاء الحزب الشيوعى عن طريق چو الذى كانوا قد بدأوا حملة عنف تشمل قطع أسلاك تليفونات المصالح الحكومية وخطوط الإتصالات . وتم تجنيد جاك هو وجنسون الذى كان قد اشترك فى الحرب العالمية الثانية ورستى بيرنستاين وكلاهما من الحزب وأصبح جاك أول خبير لنا فى التدمير وكان تكليفنا هو توجيه ضربات عنيفة ضد الدولة بينما نتحاشى الاضرار بالأفراد .

وبدأت بالقراءة والتحدث إلى المختصين واكتشفت أن هناك كتبا عديدة فى هذا الموضوع وبدأت أقرأ أدبيات الحرب المسلحة وخاصة حرب العصابات . كنت أود أن أعرف

الظروف الملائمة لمثل تلك الحرب وكيف يكون الفرد ويدرب وكيف تكون قوة فدائية وكيف تسلح وأين تجد إمداداتها إلى آخر المشاكل الأساسية . فقرأت تقرير بلاروكا سكرتير عام الحزب الشيوعى فى كوبا عن سفراتهم كمنظمة غير قانونية فى كوبا وقرأت عن جيفارا وماوتسى تونج وفيدل كاسترو . وفى "الفدائى" بقلم وينيز ريتز قرأت عن تكتيكاتهم أثناء حرب البوير وقرأت كتاب ادجار سنو الرائع "النجم الأحمر" ورأيت كيف أن تصميم ماو وفكره غير التقليدى هما اللذان قاداه إلى النصر . وكنت متشوقا أن أعرف المزيد عن المقاومة المسلحة لشعب اثيوبيا ضد موسولينى وعن جيوش الفدائيين في كينيا والجزائر والكاميرون . كما رجعت إلى تاريخنا ودرست ماضينا قبل وبعد الرجل الأبيض وحروب الأفارقة ضد الأفارقة وضد البيض وحروب البيض ضد البيض . ثم قمت بمسح المناطق الصناعية فى البلاد ونظام المواصلات وشبكة الاتصالات وجمعت خرائط مفصلة وحللت بطريقة نظامية تضاريس كل منطقة فى البلاد .

وفى ٢٦ يونيو وجهت خطابات من مخبئى إلى صحف جنوب إفريقيا أثنيت فيه على الشعب لشجاعته أثناء إضراب المنازل ودعوت إلى مؤتمر وطنى دستورى وأعلنت أن حملة عدم تعاون ستبدأ فى شتى أرجاء البلاد إذا لم تعقد الدولة ذلك المؤتمر وإختتمت خطابى بأننى لن أترك جنوب إفريقيا ولن أستسلم .

- ٤٣ -

وخلال الأشهر الأولى من العمل السرى تقاسمت شقة

مكونة من غرفة واحدة فى دور أرضى مع وولفى كوديش فى ضاحية بيضاء هادئة إلى الشمال من وسط المدينة . وكان وولفى عضوا فى مجلس الديمقراطيين ومراسل صحيفة العهد الجديد وكان قد حارب فى شمال إفريقيا وإيطاليا إبان الحرب العالمية الثانية وكانت معلوماته وخبرته مفيدة لى وبناء على اقتراحاته قرأت بعض الكتب القيمة ومنها كتاب الجنرال البروسى كارل فون كلاوزويتر "عن الحرب" الذى كانت فكرته الأساسية هى أن الحرب استمرار للدبلوماسية . وكنت أقضى النهار داخل الشقة مسدلا الستائر وأترك المنزل للاجتماعات وجلسات التنظيم ليلا .

وكانت .M.K فى ذلك الوقت تتدرب على التفجيرات . وفى إحدى الأمسيات ذهبت بصحبة وولفى لحضور تجربة فى مصانع الطوب على أطراف المدينة . وبدأ جاك هودجسون التجربة ونجحت وعدنا إلى سياراتنا وذهب كل فى اتجاه .

كنت أشعر بالأمان فى تلك الضاحية لكونها منطقة بيضاء ومن غير المحتمل أن تبحث عنى الشرطة هناك . وكنت وأنا أقرأ أثناء النهار أضع لترا من الحليب على حافة النافذة ليخمر فقد كنت مولعا كبقية شعب الإكسهوسا بالحليب الرائب . وذات مساء وبينما كنت أتحدث مع وولفى سمعت حديثا يدور بين رجلين أسودين من الزولو خارج النافذة وكانت الستائر مسدلة فأشرت إلى وولفى أن يصمت . وسأل أحدهما عما يفعله "حليبنا" على حافة النافذة وحينما استفهم الآخر عن مقصده رد الشخص الآخر قائلا "الحليب الرائب على حافة النافذة" وأراد ذلك الشخص الثاقب البصر أن يوحى

بأنه لا يضع الحليب على حافة النافذة سوى شخص أسود وبالتالى فماذا يفعل شخص أسود فى منطقة بيضاء . وحين ذلك قررت أن أرحل . ورحلت إلى مخبأ آخر الليلة التالية .

وتنقلت بين منزل طبيب فى جوهانسبرج ومزارع قصب سكر فى ناتال حيث سكنت فى بيت للشباب متخفيا كمندوب لوزارة الزراعة لتقييم التربة . وكانت المنظمة قد أمدتنى بآلات التقييم وكنت أقضى جانبا من اليوم أفحص التربة وأجرى التجارب ورغم ثقتى من أن المزارعين لم ينخدعوا لكنهم لم يوجهوا إلىَّ أية أسئلة حتى بعد أن رأوا أناسا يصلون بسياراتهم فى الليل وكان بعض منهم سياسيين معروفين فى المنطقة . وحينما كنت أخطط للرحيل من المنطقة شكرت أحد الأشخاص من كبار السن لرعايته إياى فرد قائلا "أهلا بك ، لكن من فضلك أخبرنا ماذا يريد الرئيس لوثولى" ؟ فأخبرته أنى لا أدرى ولكنى أعلم فقط أنه يريد عودة أراضينا ألينا وملوكنا إلى قوتهم كما يريد لنا أن نتحكم فى حياتنا . فرد قائلا "وكيف سيفعل ذلك وهو لا يملك جيشا" ؟ وبينما تشجعت لما قاله الرجل عرفت أنه لابد وأن آخرين قد اكتشفوا مهمتى فرحلت الليلة التالية .

- ٤٤ -

كان مكانى التالى منتجعا اكثر منه مخبأ فقد انتقلت إلى ضيعة فى ريفونيا وهى ضاحية رعوية فى شمال جوهانسبرج وكانت المنظمة قد ابتاعت ضيعة هناك لتكون ملجأ أمينا لمن يعملون فى السر . وكان البيت عتيقا غير مسكون .

وانتقلت هناك متخفيا كخادم يرعى البيت حتى يسكنه سيده . وكنت قد سميت نفسي داقيد موتسمايي وهو إسم أحد عملائى السابقين وأثناء النهار كان المنزل يزدحم بالعمال والبنائين والمبيضين الذين كانوا يصلحون المبنى الرئيسي والمباني الملحقة وكانت الخطة أن نعد غرفا إضافية ملحقة بالمنزل لمزيد من الأفراد وكان كل العمال أفارقة وكانوا ينادونني بالنادل أو الصبي وكنت أقوم باعداد الافطار لهم والشاى فى الصباح وبعد الظهيرة وكانوا يرسلونني فى مهمات بالمزرعة أو يأمرونني بمسح الأرضية أو حمل القمامة . وكانت تحدث مواقف ينهرني فيها العمال بصفتي أقل منهم منزلة .

إن الكثيرين قد رسموا صورة مثالية لطبيعة المجتمع الإفريقي التى تساوى بين البشر . وبينما أشاركهم الرأى إلى حد كبير فإني أجد أن الأفارقة لا يعاملون بعضهم البعض دائما معاملة الأنداد فلقد لعب التصنيع دوره في ادخال فكرة الإحساس بمنزلة الفرد التي تعم مجتمع البيض . وبالنسبة لهؤلاء الرجال فقد كنت أقل منهم مرتبة ، مجرد خادم أعامل باحتقار وقد أتقنت الدور بحيث لم يشك أحد فى أنني غير ذلك .

وواصلت حياتى على النمط السابق فكنت أخرج للإجتماعات ليلا فقط . وبعد أسابيع لحق بي ريموند مهلابا الذى حضر من بورت إليزابث وكان عضوا بإتحاد نقابى قوى وعضوا فى اللجنة المركزية فى الحزب الشيوعى فى الكيب وكان من ضمن أوائل قادة المؤتمر الذين ألقى القبض عليهم

فى حملة التحدى وكان قد تم اختياره للعمل فى .M.K وحضر إلى المزرعة ليستعد للرحيل لجمهورية الصين مع ثلاثة آخرين للتدريب العسكرى وقد ساعدنى فى كتابة دستور الـ .M.K وبعد ذلك لحق بنا چو سولڤو وراستى برنستامين وبعد رحيل ريموند ناتى مايكل هارمل أحد الأعضاء البارزين فى الحزب الشيوعى السرى وأحد مؤسسى مجلس الديمقراطيين ورئيس تحرير مجلة ليبراشن .

وبعد ذلك انتقل أرثر جولد ريتش وعائلته إلى المزرعة كسكان وانتقلت أنا إلى منازل العمال والخدم الملحقة التى كان قد تم بناؤها . وأمدنا وجود آرثر بغطاء لنشاطاتنا وكان آرثر فنانا ورساما وكان عضوا فى مجلس الديمقراطيين وأحد أعضاء الـ .M.K وكانت حياته السياسية غير معروفة للشرطة كما كانت له خبرة فى حرب العصابات إذ أنه قد حارب مع البالماخ وهو الجناح العسكرى للحركة اليهودية القومية فى فلسطين وكان على علم بحرب العصابات مما أفادنى . وبعد ذلك لحق بنا جيلمان وهو صديق قديم للحركة وأصبح رئيس عمال فى المزرعة وأحضر معه عددا من العمال فبدأ المكان كأى منزل آخر فى المنطقة . وكانت أسعد أوقاتى فى المزرعة تلك التى تزورنى فيها زوجتى وكانت تأتى فى عطلات نهاية الإسبوع وكنا نعمل جاهدين على تضليل الشرطة عن تتبع خط سيرها .

وكنا ونحن نخطط لاتجاه وشكل أنشطة .M.K قد درسنا أربع اختيارات : "التخريب ، حرب العصابات ، الإرهاب ،

والثورة المعلنة . وكانت الثورة المعلنة مستحيلة على جيش لم يقو عوده أما الإرهاب فكانت له آثاره السلبية على من يقومون به لأنه يفقدهم أى تأييد جماهيرى" . وكانت حرب العصابات إمكانية ولكن ولأن المؤتمر كان مترددا فى تبنى العنف فقد كان من الصواب أن نتبع الوسيلة التى تسبب أقل الأخطار للأفراد ألا وهى أعمال التخريب ولأن أعمال التخريب لا تتسبب فى اهدار حياة الأفراد فإنها كانت تحمل امكانية المصالحة بين جميع الأعراق فيما بعد .

وكانت استراتيجيتنا تتلخص فى القيام بمناوشات منتقاه ضد المنشآت العسكرية ومحطات توليد القوى وخطوط الهاتف وشبكات المواصلات وغيرها من الأهداف التى تعوق فاعلية الدولة العسكرية وتخيف مؤيدى الحزب القومى وتفزع رأس المال الأجنبى وتضعف الاقتصاد لكى نجر الحكومة إلى المساومة . وقررنا أنه إذا لم تؤد أعمال التدمير نتائجها ننتقل إلى حرب العصابات .

وذات يوم سمعت عبر المذياع أن الرئيس لوثولى قد نال جائزة نوبل للسلام وغمرنى كما غمر غيرى الفرح فقد كان ذلك اعترافا بكفاحنا وبمنجزات الرئيس كقائد وشخص وكان ذلك يمثل اعترافا من الغرب بأن معركتنا معركة أخلاقية كما أنه كان تحديا مهينا للقوميين الذين صوروا لوثولى على أنه ثورى خطير وقائد مؤامرة شيوعية .

وكان توقيت هذا التشريف حرجا بطريقة أثارت التساؤلات حول الجائزة . ففى اليوم التالى لعودة لوثولى من أوسلو أعلنت M.K. عن وجودها بطريقة درامية فى الساعات الأولى

من صباح ١٦ ديسمبر إذ انفجرت قنابل يدوية فى محطات توليد الكهرباء ومكاتب حكومية فى بورت إليزابث وجوهانسبرج ودربان وفى وقت الانفجار وزعت آلاف المنشورات نص فيها على مانيفستو الـ .M.K فى انحاء البلاد وحملنا فيها القوميين مسئولية الموقف .

وكنا قد اخترنا ذلك اليوم لأنه اليوم الذى يحتفل فيه البيض بهزيمة دينجانى قائد الزولو العظيم فى معركة نهر الدم سنة ١٨٣٨ على يد البيض .

وصدمت التفجيرات البيض وجعلتهم يتحققون من أنهم جالسون على فوهة بركان أما السود فبدأوا يدركون أن المؤتمر قد خرج عن كونه منظمة للمقاومة السلبية .

وقد أثار اعلان .M.K حفيظة الحكومة ودفعها إلى شن هجمات مضادة شريرة وقاسية على مدى لم يسبق له مثيل وأصبحت مهمة البوليس السرى الرئيسية القبض على اعضاء .M.K مظهرين عزمهم على اقتلاع ماكانوا ينظرون إليه على أنه أخطر تهديد لوجودهم .

- ٤٦ -

حينما كانت تزورنى وينى كنت أشعر بوهم مؤقت أن الأسرة مازالت متماسكة . وكانت ابنتاى مازالتا صغيرتين أما ابنى ماكجاثو فقد كان فى الحادية عشرة ولذا أخبرناه بألا يذكر إسمى الحقيقى أمام أحد . وذات يوم وبينما كان يلعب مع ابن آرثر وجدا نسخة من مجلة كانت وينى قد أحضرتها معها وأخذا يقلبان الصفحات وفجأة رأى ماكجاثو صورتى قبل

أن أتخفى فصاح "هذا والدى" ولما لم يصدقه الآخر أخبره أن إسمي هو نيلسون مانديللا فرد عليه أن اسمه هو داڤيد ثم جرى إلى والدته لتؤكد ما يقوله . عند ذلك انزعجت وأخبرتنى وهنا تحققت من أنه يجب عليَّ أن أغادر المكان ولكننى لم أفعل لأنه كان مقررا أن أسافر خارج البلاد بعد حوالى إسبوع .

وكان المؤتمر قد تلقى دعوة من حركة "الحرية لكل إفريقيا" لحضور مؤتمرها في أديس أبابا . وكانت مهمتي في إفريقيا أوسع من مجرد حضور المؤتمر ، فقد كان عليَّ أن أرتب مساندة مالية لحركتنا العسكرية وتدريبا لرجالنا إن أمكن داخل القارة خاصة وأن P.A.C كانت قد قامت بحملتها للإعلان عن نفسها .

وقبل مغادرتى ذهبت للقاء الرئيس فى مكان آمن . ولم يكن الرئيس فى حالة صحية جيدة وكانت ذاكرته قد بدأت تضعف فأخذ يؤنبني على تكوين .M.K دون استشارته رغم أننى حاولت تذكيره بمناقشاتنا .

وكان على المؤتمر ترتيب أمر سفرى إلى دار السلام حيث كنت سأستقل الطائرة من هناك إلى أديس أبابا . وكنت سألتقى بوولتر وكاثرادا ونكوييى الذين كانوا سيحضرون الأوراق المطلوبة للسفر . ووصل كاثرادا ولكن تأخر وولتر ونكوييى أكثر من اللازم وعلى ذلك اضطررت للسفر بالسيارة إلى بيتشوالاند حيث أستأجرت طائرة من هناك . وبعد ذلك علمت أنه كان قد تم القبض على وولتر ونكوييى فى ذلك اليوم .

وبعد عبورى حدود جنوب إفريقيا ووصولى إلى مدينة لوباتش وجدت بانتظارى برقية من دار السلام بتأجيل رحلتى اسبوعين وهناك لحق بى جو ماثيوس ولكننى قررت أن علينا أن نسرع إلى دار السلام لأنه كان قد اختطف مؤخرا أحد أعضاء المؤتمر من لوباتش بواسطة شرطة جنوب إفريقيا. وبعد مصاعب جمة وصلنا إلى تانجانيقا ونزلنا فى فندق محلى ووجدنا جمعا من البيض والسود يجالسون بعضهم بعضا ويتحادثون فى شرفة الفندق ولم يكن قد حدث أن تواجدت فى مكان عام ليس فيه تمييز عنصرى . وكنا هناك فى انتظار السيد مواكا نجالى من الاتحاد القومى الإفريقى التانجانيقى وعضو البرلمان . ومن حديثه مع موظفة الإستقبال البيضاء وتوصيته إياها بشأننا أحسست أننا فى بلد يحكمه الأفارقة . وفى كل مكان ذهبت إليه فى تنجانيقا كان لون بشرتى يلقى قبولا ولأول مرة كنت أقيم على أساس عقلى وشخصيتى وليس على أساس لون جلدى .

ووصلنا إلى دار السلام فى اليوم التالى وقابلت جوليوس نيريرى أول رئيس جمهورية للبلد المستقل وتحادثنا فى منزله وأتذكر أنه كان يقود بنفسه سيارة بسيطة ماركة أوستن وقد ترك ذلك أثرا فى نفسى إذ أدركت أنه رجل من الشعب وكان هو يؤكد أن الطبقية غريبة عن إفريقيا وأن الاشتراكية طبيعية .

ولخصت له موقفنا واختتمت بطلب المساعدة وكان سياسيا ماهرا ذا صوت منخفض . ولاقت مهمتنا منه قبولا ولكن سرعان ما ساءنى تفهمه للموقف فقد اقترح أن نؤجل المعركة

المسلحة إلى أن يفرج عن سوبوكوى وكانت تلك أول مرة أعلم فيها بشعبية P.A.C فى بقية إفريقيا . وقمت بوصف نقاط ضعف الـ P.A.C وقلت له أن التأجيل سيكون نكسة للنضال ككل فاقترح أن أحاول كسب الإمبراطور هيلاسى لاسى ووعدنى بتقديمى له .

وكان مقررا أن ألتقى بأوليفر فى دار السلام ولكن بسبب تأخيرى لم يستطع الانتظار وترك لى رسالة أن أتبعه إلى لاجوس حيث ذهب لحضور مؤتمر للدول المستقلة .

وتوقفت الطائرة فى الخرطوم واصطففنا للمرور من الجمرك وكان جو ماثيوس يتقدمنى وباسنر وزوجته من ورائى . وكان باسنر هو المحامي الذى كنت معه وكان قد طلب اللجوء السياسى إلى غانا بسبب اتجاهاته السياسية الراديكالية ونشاطاته اليسارية فى جنوب إفريقيا . وبما أننى لم أكن أحمل جواز سفر فقد كانت معى وثيقة صادرة من تانجانيقا تقول "إن هذا هو نيلسون مانديللا من مواطنى جنوب إفريقيا وهذا تصريح له بالسفر من تانجانيقا والعودة إليها" وقدمت الورقة إلى الموظف السودانى المسن فنظر وهو يبتسم وقال "أهلا بك فى السودان ياولدى" وصافحنى ثم ختم الوثيقة . وحينما قدم له باسنر نفس الوثيقة صاح قائلا "إنها غير رسمية وشرح له باسنر أنه مضطهد فى جنوب أفريقيا لأنه يقاتل من أجل حقوق الرجل الأسود" . فنظر السودانى إليه قائلا "إنه رجل أبيض فوقفت إلى جانب باسنر وأومأت برأسى مؤمنا على كلامه وهنا ختم الرجل الوثيقة قائلا "مرحبا بك فى السودان" .

وكنت لم أر أوليفر منذ عامين وحينما التقيت به فى مطار أكرا تعرفت عليه بصعوبة فقد كان قد أطلق لحيته وشعره وكان يرتدى الزى العسكرى الذى كان يميز المقاتلين فى جميع أنحاء إفريقيا . وامتحدته للإنجازات الهائلة التى أداها فى الخارج فقد قام بانشاء مكاتب للمؤتمر فى غانا وإنجلترا ومصر وتانجانيقا وأنشأ اتصالات قيمة فى بلاد عديدة وكان بذلك أفضل سفير للمنظمة .

وعلى متن الطائرة من أكرا إلى أديس أبابا وجدنا جوز راديبى وبيتر مولوتس وأعضاء آخرين من P.A.C الذين كانوا فى طريقهم إلى المؤتمر وأبدوا دهشتهم لرؤيتى وأخذنا فى مناقشة أمور تتعلق بجنوب إفريقيا ووجدت أننا ونحن خارج بلدنا كان هناك ما يجمعنا أكثر مما يفرقنا .

وتوقفنا قليلا فى الخرطوم ثم ركبنا طائرة أثيوبية إلى أديس أبابا وهنا انتابتنى مشاعر غريبة فقد كان قائد الطائرة أسودا ولم أكن قد رأيت من قبل قائد طائرة أسود وفى تلك اللحظة وجدت أن علىَّ أن أتغلب على الخوف الذى تملكنى وواجهت نفسى ووجدت أن تفكيرى قد تأثر بالأبارتايد فاعتقدت أن الأفارقة أدنى مستوى وأن قيادة الطائرة هى وظيفة رجل أبيض ولمت نفسى لتلك الأفكار .

وكان أول توقف فى أديس أبابا. التى وجدتها خلافا لشهرتها حيث لم يكن هناك سوى شوارع قليلة مرصوفة وكانت هناك أغنام وماعز فى الشوارع أكثر من السيارات

وبخلاف القصر الامبراطورى والجامعة وفندق الرأس حيث كنا نقيم فلم تكن هناك مبان ذات قيمة . ولم تكن أيضا إثيوبيا الحديثة مثلا للديمقراطية فلم يكن هناك أحزاب سياسية أو مؤسسات شعبية فى الحكومة فلا فصل للسلطة . فقط كان الامبراطور هو الشخص الأسمى .

وقبيل انعقاد المؤتمر اجتمع المندوبون فى مدينة صغيرة إسمها ديرازيد وأقيم نصب عظيم فى منتصف الميدان وجلست أنا وأوليڤر فى جانب بعيد عن المنصة . وفجأة سمعنا موسيقى عن بعد تنطلق من بوق ثم أنغام آلات نحاسية تصاحبها دقات طبول إفريقية وحينما اقتربت الموسيقى كان باستطاعتى سماع مئات من الأقدام وهى تسير ومن خلف مبنى على حافة الميدان ظهر ضابط يلوح بسيف يبرق وفى أعقابه كان يسير خمسمائة من الجنود الأفارقة فى صفوف عرضية مكونة من أربع وكل منهم يحمل بندقية لامعة على كتفه وحينما وصلت القوات إلى المنصة الرئيسية سمعت صوتا آخر ينطلق بالأمهارية وتوقف الجنود فجأة وحيوا بدقة رجلا يلبس زيا مبهرا وكان ذلك الرجل هو امبراطور اثيوبيا هيلاسى لاسى أسد يهوذا .

وفى الصباح حضرت وأوليڤر إجتماعا تقدمت فيه كل منظمة بطلب اعتماد ولدهشتنا علمنا أن أوغندا قد أوقفت سير طلبنا على أساس أن منظمتنا قبلية ولما شرحنا لهم الأمر ووضحنا أن رئيسنا لوثولى هوزولو قبل الطلب .

وافتتح الامبراطور المؤتمر رسميا وكان مقررا أن أتكلم عقب الامبراطور وبعد ان استعرضت تاريخ نضالنا

واضطهادنا شكرت الدول المجتمعة لضغطها على جنوب إفريقيا وخصصت بالذكر الدول التى قادت الحملة التى نجحت فى طرد جنوب إفريقيا من الكومنولث وانتقلت إلى تكوين .M.K ولما أعلنت أننى سأعود إلى جنوب إفريقيا لمواصلة الكفاح قوبل ذلك بالهتاف . وتناقشت وأوليفر مع كينيث كاوندا رئيس زامبيا المستقبل ورئيس حزب الاستقلال فى شمال روديسيا وأبدى قلقه لعدم اتحاد فصائل المقاومة فى جنوب إفريقا وكان يقصد P.A.C التى لفتت أحداث شاربفيل إليها الأنظار فى إفريقيا .

وكانت مصر قد تملكت مخليتى وأنا طالب كمهد للحضارة الإفريقية وكنز لجمال الفن والتصميم وكنت دائما أرغب فى زيارة الأهرام وأبوالهول وعبور نهر النيل أعظم أنهار إفريقيا . ومن أديس أبابا ذهبت وأوليفر وروبرت ريشا إلى القاهرة وقضيت يومى الأول فى المتحف أفحص القطع الفنية وأدون الملاحظات وأجمع المعلومات عن نمط الرجال الذين أسسوا حضارة وادى النيل القديمة ولم يكن اهتمامى اهتمام هاو للآثار فإنه لمن المهم للأفارقة القوميين أن يتسلحوا بالبرهان الذى يدحضون به ادعاءات البيض أن الأفارقة لم تكن لهم فى الماضى حضارة تضارع مدنية الغرب . واكتشفت فى صباح واحد أن المصريين كانوا يبدعون أعمالا فنية ومعمارية عظيمة بينما كان الغربيون فى الكهوف .

وكانت مصر نموذجا هاما لنا فقد كان أمامنا على الطبيعة برنامج الاصلاح الاقتصادى الذى أطلقه جمال عبدالناصر . فقد حدد الملكية الخاصة للأراضى الزراعية وأمم بعض

قطاعات الاقتصاد وكانت له الريادة فى بدء برنامج سريع للتصنيع وجعل التعليم ديمقراطيا وبنى جيشا حديثا . وكانت كثير من تلك الاصلاحات هى بالتحديد ما يطمح المؤتمر الى أن يحققه وكان الأهم بالنسبة لنا فى ذلك الوقت أن مصر كانت الدولة الإفريقية الوحيدة التى تمتلك جيشا وإسطولا بحريا وجويا يمكن أن يقارن بذلك الذى تمتلكه جنوب إفريقيا .

وبعد يوم رحل أوليڤر إلى لندن على أن نلتقى فى غانا .

وفى تونس فى اليوم التالى التقينا بالحبيب بورقيبه وكان رد فعله ايجابيا وفوريا وعرض أن يقدم التدريب العسكرى ومنحنا خمسة آلاف جنيه للأسلحة .

وكانت المغرب ملتقى المناضلين من أنحاء إفريقيا فهناك وجدنا أناسا من موريتانيا وأنجولا والجزائر وكانت أيضا معقل جيش الجزائر الثورى وقضينا أياما مع رئيس البعثة الجزائرية فى المغرب وكان الموقف فى الجزائر هو النموذج الأقرب لنموذجنا حيث كان الثوار يواجهون مجتمعا كبيرا من المستوطنين البيض الذين يحكمون الغالبية وهم السكان الأصليون . وشرح لنا د . مصطفى حرب العصابات فى الجزائر والهدف من حرب العصابات الذى هو ليس الكسب العسكرى لكن اطلاق العنان للقوى السياسية . والاقتصادية التى ستهزم العدو ونصحنا بعدم أهمال الجانب السياسى لأهمية الرأى العام العالمى ثم أرسلنا إلى المقر الرئيسى للجيش الجزائرى فى مدينة حدودية صغيرة حيث قمنا بزيارة وحدة جيش على الجبهة وبعد يومين كنت ضيفا فى استعراض عسكرى على شرف أحمد بن بيللا الذى أصبح

فيما بعد رئيس وزراء الجزائر والذى كان قد خرج لتوه من المعتقل .

وكانت محطتى التالية هى سيراليون وعندما وصلت إكتشفت أن هناك اجتماعا للبرلمان قررت أن أحضره وبينما أنا جالس فى مقعد قرب رئيس المجلس إقترب منى أحد الكتبة وطلب منى أن أعرف نفسى فأخبرته أننى ممثل الرئيس لوثولى الحائز على جائزة نوبل فصافحنى بحرارة وقال لى أنه لشرف لهم أن أتواجد هناك . وأثناء الإستراحة وجدت أن المجلس بأكمله قد اصطف لمصافحتى وشعرت بالرضا حتى كان مرور الشخص الثالث أو الرابع الذى تمتم قائلا أنه ليشرفه أن يصافح الرئيس لوثولى وشعرت بأننى مدع وأن الكاتب قد أساء فهمى وعند ذلك حضر رئيس الوزراء وقدمنى ذلك الشخص على أننى لوثولى وهنا حاولت أن أخبر الكاتب أننى لست هو لكنه رفض أن يستمع وقررت أن أكمل الدور حتى لا يضيع كرم الضيافة هباء وبعد ذلك التقيت برئيس الجمهورية وشرحت له الأمر وقدم لى مساعدة مالية سخية .

وفى ليبريا أيضا قدم لى الرئيس تابمان مساعدة سخية وذهبت بعد ذلك إلى غانا حيث قابلت أوليڤر وعند لقائنا مع وزير غينيا المقيم فى غانا أخبرته بأننى لم ألتق بسيكوتورى ورتب لنا لقاء معه وقد أثار سيكوتورى اعجابى فقد كان يعيش فى بيت متواضع ويرتدى حلة قديمة باهتة وشرحنا له تاريخ المؤتمر والـ .M.K وبعد أن استمع الينا جيدا قال إن حكومة وشعب غينيا يؤازرون كفاح إخوانهم فى جنوب إفريقيا مؤازرة تامة وأنهم قد أعلنوا ذلك فى الأمم المتحدة ثم أهدانا كتابين

له بتوقيعه وشكرنا وانتهت المقابلة . وتضايقت وأوليفر وتساءلت إن كان قد تم استدعاؤنا من بلد آخر لنعطي كتابين موقعين وأحسسنا أننا قد أهدرنا وقتنا . وبعد ذلك بقليل . وبينما كنا فى غرفتنا فى الفندق وصل مسئول من وزارة الخارجية وكان يحمل حقيبة ديبلوماسية فتحها ووجدنا أنها مليئة بأوراق النقد .

وفى السنغال أصدر لى الرئيس سنجور جواز سفر ودفع ثمن تذكرتى إلى لندن .

- ٤٨ -

اعترف بأننى أحب كل ماهو إنجليزى فحينما كنت أفكر فى الديمقراطية والحرية الغربية كنت أفكر فى النظام البرلمانى الانجليزى وكان الرجل الإنجليزى هو نموذج الجنتلمان . ولكن بالرغم من أن انجلترا هى وطن الديمقراطية فقد كانت تلك الديمقراطية هى التى عملت على ابتلاء شعبى بذلك النظام الكريه .

وكان من دوافع ذهابى إلى إنجلترا قلقى على صحة أوليفر ومحاولة اقناعه بتلقى العلاج الطبى كما كنت أرغب فى رؤية زوجته وأولاده وكذلك يوسف دادوو الذى كان يعيش فى لندن ممثلا لحركة المجلس الهندى .

وكنت أتحرك هناك فى السر خوفا من مخابرات جنوب إفريقيا . وانجزت بعض أعمال المؤتمر هناك وكانت لى لقاءات مع رئيس تحرير الأوبزيرفر وأعضاء البرلمان من حزب العمال ورئيسه هيوجتسكل ورئيس الحزب الديمقراطى .

وبعد ذلك ذهبت إلى إثيوبيا لتلقى تدريبى العسكرى وكان مدربى هناك ضابطا ذا خبرة وكان برنامج التدريب مرهقا ويتكون من التدريب العملى والمحاضرات وتعلمت استعمال الأسلحة المختلفة وصناعة القنابل الصغيرة والديناميت وغيرها من الفنون العسكرية كما تلقيت معلومات عن تكوين فرق العصابات وقيادة الجيش . وكان من المفروض أن أقضى ستة أشهر فى التدريب ولكن بعد ثمانية أسابيع تلقيت برقية من المؤتمر يطلب عودتى حيث كانت المقاومة فى تصاعد وكان لابد من وجود القائد هناك .

وعند وصولى إلى الخرطوم قابلنى مسئول الخطوط البريطانية وأخبرنى أن طائرتى إلى دار السلام قد تأجلت إلى اليوم التالى . وفى دار السلام التقيت بأول مجموعة من رجال M.K. الذين كانوا فى طريقهم إلى إثيوبيا لتلقى التدريب العسكرى . وبعد ذلك منحنى الرئيس نيريرى طائرة خاصة إلى ليبيا ومن هناك طرت إلى لوباتش وأخبرنى قائد الطائرة أن الخطة قد تغيرت . وفى مدينة كاينى قابلنى القاضى المحلى ورجل أمن وكانا أبيضين وسألانى عن إسمى فأجبت أننى أدعى دافيد موتسمابى فرد القاضى قائلا أن علىَّ أن أخبره بإسمى الحقيقى لأنه أبلغ أن يقابل نيلسون مانديللا وأن يوفر له المساندة والمواصلات وإلا فسيلقى علىَّ القبض لعدم حملى إذنا بدخول البلاد . وهنا لم أجد بدا من ذكر إسمى الحقيقى وبعد ذلك اصطحبنى بالسيارة إلى حيث كان ينتظرنى رفاقى وقررت السفر فى الليلة نفسها مع سيسيل ويليامز وهو مدير مسرح أبيض وعضو فى M.K. وتخفيت كسائقه وقدت السيارة باتجاه جوهانسبرج .

الجـزء السـابـع
ريـفـونيــا

- ٤٩ -

وذهبت إلى ريفونيا الضيعة التى كنت قد أقمت بها سابقا وعقدنا إجتماعا سريا فى الليلة التالية أخبرت فيه لجنة العمل بما تم فى رحلتى ولخصت ما دار أثناءها وأعطيتهم بيانا بالأموال التى تلقيتها وعروض التدريب العسكرى وأخبرتهم بالتفصيل عن التحفظات التى واجهتها من القادة الأفارقة حول تعاون المؤتمر مع البيض والهنود والشيوعيين . وكانت مازالت ترن فى أذنى كلمات قادة زامبيا عن أنه رغم علمه أن المؤتمر أقوى وأكثر شعبية من الـ P.A.C ولكنهم يتفهمون نقاء القومية الإفريقية لـ P.A.C وأن إختلاط الأعراق فى المؤتمر يذهلهم وكذلك صلاته بالشيوعيين . وأخبرتهم أنى وأولفير متفقان على أن المؤتمر لابد وأن يبدو أكثر استقلالية ليطمئن حلفاؤنا الجدد فى القارة حيث أنهم سيقومون بتمويل وتدريب M.K. واقترحت اعادة تشكيل مجلس التحالف بحيث تبدو قيادة المؤتمر واضحة خاصة فى الشئون التى تتعلق بالأفارقة .

وكان ذلك اقتراحا خطيرا يجب بشأنه استشارة جميع القيادات وطلبوا منى الذهاب إلى دربان لمقابلة الرئيس . وذهبت الليلة التالية برفقة سيسيل متخفيا كسائقه والتقيت

بنيكر وإسماعيل مير ولخصت لهما ما دار فى رحلتى وقدمت عرضى الجديد وكان الإثنان شديدى القرب من الرئيس لكنهما أظهرا قلقا شديدا حينما أخبرتهم أن المؤتمر يجب أن يقود التحالف وأن يصدر بيانات مستقلة فيما يتعلق بشئون الأفارقة . وكان رد لوثولى بعد ذلك أنه لا يجب أن يملى السياسيون الأجانب سياسة المؤتمر وأنه لا بد من استمرار السياسية اللاعرقية . فقلت له إن أولئك الساسة لا يملون لكنهم فقط لا يمكنهم فهم سياستنا مضيفا أن التغيير سيكون ظاهريا من أجل إرضاء حلفائنا وإلا فسيقوى دعمهم لـ P.A.C وستتحول من منظمة ضعيفة إلى منظمة شديدة القوة . ولم يتخذ الرئيس قراره فورا . وعقدت إجتماعات أخرى فى دربان كان آخرها مع القائد المحلى لـ .M.K وكان خبيرا فى عمليات التخريب وشرحت للقيادة هناك تفاصيل رحلتى ثم أخبرتهم أنه فى الوقت الحاضر سيقتصر نشاط .M.K على عمليات التخريب وإذا لم تجد فستتحول إلى حرب عصابات .

ومرة أخرى تخفيت فى زى سائق سيسيل وقفلنا راجعين وكنا نتبادل القيادة وبينما كنا مستغرقين فى المناقشة رأينا سيارة فورد مليئة بأشخاص بيض تسبقنا من الناحية اليمنى والتفت خلفى ورأيت سيارتين أخريين مليئتين بالرجال البيض وأشارت لنا السيارة التى فى الأمام أن نقف وعرفت أن الشهور السبعة عشر من الحرية كانت فى سبيلها إلى الانتهاء .

وأتى شخص نحيف طويل ذو تعبيرات قاسية إلى النافذة

وقدم نفسه على أنه الجاويش فورستر من قوة الشرطة وأبرز أمرا بالقبض عليَّ وطلب منى أن أعرف هويتى فأخبرته أن إسمى هو داڤيد موتسمابى ووجه إلىَّ عدة أسئلة حاولت تفادى الإجابة عليها فبدا ضيقه وقال "إنك نيلسون مانديللا وهذا سيسيل ويليامز وكلاكما مقبوض عليه" .

وفى مكتب فورستر فى مقر الشرطة كان هناك عدة ضباط من بينهم ضابط كان قد أدى شهادة غير متحيزة فى قضية الخيانة وحيا كلانا الآخر .

وتمسكت هناك بما قلته أن إسمى داڤيد وطلبت محاميى ولكن طلبى رفض فامتنعت عن الإدلاء بأقوالى .

واحتجزت أنا وسيسيل كل منا فى زنزانة . وكانت السلطات قد اعتقدت منذ أسابيع سابقة لعودتى بأننى موجود بالبلاد ففى شهر يونيو تصدرت الصحف العناوين عن عودة البيمبرنيل الأسود . وربما كان ذلك تمويها .

وكانت السلطات قد أخذت فى مضايقة وينى ظنا منها أنها تعلم بمكان تواجدى وتتبعوها وفتشوا المنزل فى عدة مناسبات . وربما أيضا كانوا قد عرفوا أننى لابد وأن أزور الرئيس بمجرد عودتى . لكننى لم أستبعد الوشاية فقد كان المخبرون قد اخترقوا صفوف الحركة هذا بالإضافة إلى أننا لم نكن جميعا حريصين بالدرجة الواجبة .

وفى الساعة الثامنة والنصف صباحا أحالنى القاضى المحلى رسميا إلى جوهانسبرج . وفى الطريق استمعت إلى نبأ القبض علىَّ من المذياع وعند وصولى إلى جوهانسبرج

أودعت سجن مارشال فى زنزانة منفردة . وبينما كنت أخطط لاستراتيجية اليوم التالى سمعت سعالا وتعرفت على صاحبه فقد كان وولتر وكان فى زنزانة قريبة فناديت عليه ورد النداء وأخذنا نضحك تحت تأثير مزيج من الدهشة والفرح والإحباط وقد علمت أنه قد تم القبض على وولتر بعد القبض عليَّ بقليل .

وفى اليوم التالى استدعيت أمام القاضى لإعادة حبسى رسميا وكان هارولد وولب وجوسلوفو قد حضرا إلى المحكمة بعد سماع نبأ القبض عليَّ وهناك تعرفت على القاضى وعدد من المحامين وحيونى كزميل . وأثناء الإجراءات بدوا جميعا خجلين محرجين . وعند ذلك تحققت أن سبب عدم ارتياح هؤلاء الرجال ليس فقط كونى زميلا لهم ولكن أيضا لكونى رجلا عاديا يعاقب على معتقداته .. وهنا تحققت أيضا من إمكانات دورى أثناء المحاكمة . فقد كنت رمزا للعدالة فى محكمة للمستبد وكنت أمثل العدالة والحرية والديمقراطية فى مجتمع أخل بتلك الفضائل وعرفت أنه بإمكانى مواصلة المعركة وأنا داخل قلعة العدو .

وأعلنت أننى سأمثل نفسى وأن چو سولفو سيكون مستشارى القانونى وهكذا يمكن استخدام محاكمتى كوسيلة لعرض مقاومة المؤتمر لسياسة التمييز العنصرى وبذلك أضع الدولة فى موضع المتهم . وعلى ذلك لم أجب على أية أسئلة فى ذلك اليوم إلا فيما يختص باسمى واسم مستشارى واستمعت إلى الاتهامات وهى تحريض العمال على الإضراب ومغادرة البلاد بدون مستندات رسمية وكانت العقوبة على ذلك

تبلغ السجن لعشر سنوات . وشعرت بالارتياح لأن ذلك يعنى أن الدولة لم تكن تملك الدليل على صلتى بـ .M.A وإلا كانت التهمة هي الخيانة العظمى .

ونقلت إلى قلعة جوهانسبرج وفى الطريق كان هناك مئات من الناس يهتفون ويصيحون ويغنون . وكانت أخبار القبض عليَّ ومحاكمتى قد احتلت العناوين الرئيسية بالصحف .

- ٥٠ -

كان المشرف على القلعة أفريكانيا يعتبر ليبراليا بمقاييس زملائه وقال أنه سيضعنى فى مستشفى السجن لكونه أفضل مكان بالقلعة وهناك سيكون لى مقعد ومنضدة لكى أتمكن من تجهيز قضيتى . غير أن السبب الحقيقى كان هو أن المستشفى كان أكثر الأماكن تحصينا فى القلعة فقد كان محاطا بأسوار حصينة وحراس مسلحين لأن الصحافة كانت قد تنبأت بأن المنظمة ستحاول انقاذى .

وكانت الصحافة قد بدأت تنشر أنباء عن قيام أشخاص من داخل المنظمة بالإبلاغ عنى وحددت البيض والهنود من أعضاء الحزب الشيوعى . ولكننى كنت أعلم وزملائى أن الحكومة تريد تفريق صفوفنا وقد استنكرت وينى تلك الشائعات فى اجتماع عام . كذلك انتشرت شائعات عن مسئولية وكالة المخابرات الأمريكية ولكن لم تثبت صحة تلك الشائعات رغم علمي بمسئولية الوكالة عن نشاطات حقيرة ومساندتها للإمبريالية .

ثم تم نقلى لبريتوريا حيث لم تكن هناك فرصة لاستقبال

زائرين على عكس الحال فى القلعة .

وكان يسمح لى بتلقى الزيارات مرتين فى الإسبوع وكانت وينى تأتى بانتظام ومعها الأكلات الشهية والملابس النظيفة رغم بعد المسافة ومشقة حضورها فى منتصف النهار ومنتصف الإسبوع تاركة طفلتين صغيرتين بالمنزل . وكان عدد كبير من الأفراد يأتون لزيارتى ومعهم الطعام الذى كنت أقتسمه مع السجناء الآخرين . وعن طريق قنوات الاتصال الداخلى علمت بوجود وولتر فى بريتوريا وقد تمكنا من الاتصال رغم فصلنا . وكان وولتر قد تقدم بطلب للإفراج عنه بكفالة ووافقته رغم موقف المؤتمر من الكفالة إذ كان البعض يرى أنها يمكن أن تؤدى إلى تصويرنا على أننا جبناء نتقبل محظورات النظام القانونى العنصرى . ولكننى كنت أرى أن لكل قضية ظروفها الخاصة فقد كان وولتر قد أصبح السكرتير العام للمؤتمر وكان وجوده فى الخارج حيويا للمنظمة . أما أنا فقد كنت أعمل فى الخفاء وكنت قد أصبحت رمزا عاما للثورة والنضال فى حين كان عمل وولتر يتم وراء الكواليس . وبعد ذلك بقليل نقلت إلى المستشفى مرة أخرى وكان أول شيء فعلته هو ارسال خطاب للسلطات أعلنهم بعزمى على مواصلة دراسة القانون للتخصص وطالبا السماح لى بشراء كتاب قانون الغرر الذى كان ضمن المقرر .

إن الهرب من السجن يحقق هدفا مزدوجا فهو أولا تحرير للمعتقل المناضل كما أنه يعطى دفعة نفسية هائلة لحركة النضال ويوجه لطمة دعائية للعدو . وقد كنت قد قمت برسم خريطة تفصيلية للسجن وتم تهريبها مع التأكيد على اعدام

الورقة فيما بعد وكانت هناك خطة لتهريبي من تدبير المؤتمر وأوصلها إلى جوسلوڤو وأعطيت چو مذكرة شرحت فيها آرائي عن الخطة وهي أن الـ .M.K غير مستعدة الآن للقيام بتلك العملية وأن من الأفضل تأجيل المغامرة إلى أن يصدر الحكم عليَّ وتتراخى الإجراءات . وقد وافق چو والآخرون على عدم محاولة الهرب في ذلك الحين . وكنت قد أضفت في النهاية أنه يجب إعدام الورقة بمجرد قراءتها ولكنهم قرروا أن تبقى المذكرة كوثيقة تاريخية مما أدى إلى نتيجة سيئة فيما بعد .

- ٥١ -

وحدد يوم ١٥ أكتوبر لجلسة الاستماع الأولى . وأنشأت المنظمة لجنة سمتها لجنة إطلاق سراح مانديللا وبدأت حملة نشطة تحت شعار "أطلقوا سراح مانديللا" وبدأ الشعار يظهر مكتوبا على جوانب المباني وردت الحكومة بأن منعت الاجتماعات الخاصة بسجني لكن الحركة تجاهلت القرار .

وكإعداد للجلسة نظمت اللجنة مظاهرة جماهيرية عند المحكمة وكانت الخطة أن يصطف الناس على جانبي الطريق الذي ستمر به عربة الشرطة وعرفت من التقارير الصحفية أن التوقعات أكدت أن أعدادا ضخمة ستشترك في المظاهرة ولكن يوم السبت السابق للمحاكمة تم نقلي الى بريتوريا حيث تقرر إجراء المحاكمة ولم تعلن السلطات عن ذلك . وكان رد فعل الحركة سريعا فقد ازدحمت قاعة المحاكمة في بريتوريا بالمؤيدين . وصدر قرار بحظر جو سلوڤو واستبدل ببوب هوبل الذي قدم لي المساعدة القديرة .

ودخلت القاعة وأنا أرتدى الزى التقليدى للإكسهوسا وتعالت الصحيات والهتافات التى اشتدت بسبب وقع الزى حيث كان كثير من الحاضرين أصدقاء وأقارب وكان بعضهم قد حضر من ترانسكى . كذلك ارتدت وينى زى نساء الاكسهوسا التقليدى وكنت ارتديت ذلك الزى لتأكيد أهمية رمزى كأفريقى أسود يدخل محكمة الرجل الأبيض فقد كنت أحمل على ظهرى تاريخ وحضارة وإرث شعبى . وكنت أعلم أن السلطات ستشعر بالتهديد من ارتدائى ذلك الزى الوطنى كما يستشعر البيض الخطر من الحضارة الافريقية الحقة . ونودى على القضية فطلبت التأجيل اسبوعين نظرا لنقلى الى بريتوريا دون أن تتاح لى الفرصة لاحضار محام . ووفق على التأجيل أسبوعا . وعندما عدت إلى السجن حاول مديره ان يصادر ردائى فهددته بالالتجاء الى المحكمة العليا حيث أنه ليس لديه السلطة القانونية ليفعل ذلك . فلم يكرر الطلب فقط منعت من ارتدائه وأنا فى الطريق إلى المحكمة واقتصر استعمالى إياه على داخل المحكمة فقط .

وحين أعيد نظر القضية طلبت السماح لى بالدفاع عن نفسى فقد كنت أريد أن أوضح لهيئة المحكمة نيتى فى وضع الدولة موضع الاتهام :

واستعان المدعى بأكثر من مائة شاهد وقدم معظمهم براهين فنية تثبت صحة التهمتين وهما تحريضى للعمال أثناء اضراب المنازل وأننى غادرت البلاد . ولم أحاول مجادلة أى من التهمتين فقد كنت مذنبا من وجهة النظر الفنية .

واستدعت المحكمة السكرتير الخاص لرئيس الوزراء ليشهد بشأن واقعة الخطاب الذى أرسلته أطالب فيه رئيس الوزراء بعقد مؤتمر لوضع دستور غير عنصرى وإلا قمنا بالاضراب . وسألت الشاهد عما إذا كان رئيس الوزراء قد رد على الخطاب فأجاب بالنفى وكنت قد بدأت بقراءة نص الخطاب . وبعد أن سألته كان يوافق على أن الخطاب يثير قضايا تهم الأغلبية وأجاب بالنفى سألته إن كان يوافق إن قضايا حقوق الانسان والحريات المدنية حيوية للشعب الافريقي فرد بالايجاب وسألته إن كان الخطاب يذكر تلك القضايا فوافق . ثم سألته عما اذا كان يعلم أن الافارقة لايتمتعون بتلك الحقوق فأجاب أنهم لايتمتعون ببعضها ففصلت له تلك الحقوق فأجاب أن الأفارقة لايتمتعون بها فسألته إن كان يوافق على أنه فى أى بلد متحضر فى العالم يعتبر عدم رد رئيس الوزراء على أمور بمثل تلك الأهمية تصرفا مخزيا فقال إنه لا يوافق وأجاب أن رئيس الوزراء لم يتجاهل الخطاب وأضاف أنه قام بالرد . ولم أتمكن من انتزاع الموافقة منه .

وكنت حينما سألتنى المحكمة عن عدد الشهود الذين سأستدعيهم أجبت بأننى سأستدعى عددا اكبر من الشهود الذين استدعتهم الدولة . ولكن حينما انتهت الدولة من عرض القضية وانتظرت أن أبدا دفاعى نهضت وأبلغت المحكمة أننى لن أستدعى شهودا على الاطلاق . وحينما سألنى القاضى إن كان لدىَّ أى شىء أضيفه قلت له أننى أقرر أننى لم أرتكب جريمة وأنه ليس لدىَّ ما أضيفه .

وأجلت المحكمة الجلسة الى اليوم التالى لأعد خطابى

الذى أطلب فيه تخفيف الحكم .

وفى اليوم التالى وقبل انعقاد الجلسة كنت أجلس مع بوب هيبل نناقش القضية ونمتدح القرار الذى اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة بتوقيع بعض العقوبات على جنوب أفريقيا حينما دخل علينا المدعى فى القضية السيد بوش وطلب من بوب مغادرة الغرفة ثم أخبرنى أنه لم يكن يريد أن يأتى إلى المحكمة لأنه لأول مرة فى تاريخه الوظيفى يشعر باحتقار مايفعله وأنه يشعر بالمعاناة أن يطلب من المحكمة أن تحكم علىَّ بالسجن ثم صافحنى وأعرب عن أمله فى أن يتحول كل شىء لصالحى .

وكانت السلطات متأهبة إذ أن الزحام كان أشد منه فى اليوم الأول وكانت وينى حاضرة بزيها الوطنى وكذلك كان جمع من أقاربى وكان مئات المتظاهرين يقفون قريبا من المحكمة وكان عدد رجال الشرطة يماثل عدد الحضور .

وعندما دخلت القاعة رفعت يدى هاتفا وردد الحاضرون الهتاف . ثم تكلمت لمدة ساعة وكان خطابى نصا سياسيا أكثر منه طلبا لتخفيف الحكم .

وفى خطابى ذكرت للمحكمة ماكانت عليه الأمور قبل قدوم الرجل الأبيض وكيف كنا نعيش فى سلام وديمقراطية وأنه لم تكن هناك ملكية خاصة ولا طبقات ولا استغلال للإنسان بل كان الجميع طلقاء متساويين وكان هذا أساس الحكم حيث وجد تعبيرا فى دستور الحكم القبلى ومجلس القبيلة . وأضفت

أن ذلك التاريخ هو الذى يلهمنى وزملائى فى كفاحنا السياسى .

ثم اخبرت المحكمة بسبب التحاقى بالمؤتمر الذى توافق سياسته الديموقراطية اللا عنصرية معتقداتى . وذكرت أننى وبينما كنت أعمل كمحام كنت دائما أجبر على الاختيار بين إطاعة القانون وبين ضميرى وذكرت أن مثل هذا الصراع ليس مقصورا على هذا البلد ففى بريطانيا مثلا واجه أحد أعظم فلاسفة العصر وأحد نبلاء بريطانيا وهو برتراند راسل الصراع نفسه وحكم عليه بالسجن لاتباع ضميره وتحدى القانون لاعتراضه على سياسة التسلح النووى .

ثم استعرضت تفصيليا المرات التى حاولت السلطات فيها استخدام القانون لشل عملى وحياتى ونشاطى السياسى وقلت أن القانون جعل منى مجرما ليس بسبب مافعلت لكن بسبب ما أمثله والفكر الذى اعتنقه وذكرت أن حياتى فى الخفاء كانت أصعب من حياتى المحتملة فى السجن فى الهموأن .بتحدينا كان بسبب أعمال ومواقف الحكومة وأن آخرين قبلى قد دفعوا ثمن معتقداتهم وآخرين أكثر سيدفونه بعدى . ثم اختتمت قائلا إن الشىء الوحيد الذى هو أقوى من كراهيتى للظروف البشعة التى سأخضع لها فى المعتقل هو كراهيتى للظروف البشعة التى يخضع لها مواطنى خارج السجون فى عموم البلاد وأنه بعد انتهاء مدة الحكم على فسأواصل المعركة لانهاء تلك المظالم حتى تختفى الى الأبد .

وكان الحكم هو ثلاث سنوات لتحريض الناس على الأضراب وسنتان لمغادرة البلاد دون جواز سفر وبدأ

الحضور فى العويل ولكنى اتجهت إليهم رافعا قبضتى وهتفت لإفريقيا وبدأ الناس فى الغناء والرقص وأطلقت النساء الزغاريد وأنا أقاد إلى المعتقل

- ٥٢ -

إن المعتقل لا يأخذ من الإنسان فقط حريته ولكنه آيضا يحاول أن يحرمه من هويته فإن الجميع يرتدون نفس الملابس ويأكلون نفس الطعام ويتبعون نفس برنامج الحياة اليومى وإن الدولة السلطوية فقط هى التى لاتسمح باستقلال الانسان وتفرده .

وفى سجن بريتوريا المحلى أمرت بخلع ملابسى وصرف لى زى المساجين الأفارقة وهو عبارة عن بنطلون وقميص كاكى وجورب وصندل وكان يصرف البنطلون القصير للمساجين الأفارقة فقط لأن الرجال الأفارقة كانوا فى نظر السلطات "صبية" ثم أحضروا الىَّ طعاما من ثريد الذرة البارد فرفضت الاكل والسروال القصير وهنا قال لى مأمور السجن أنه سيعطينى طعاما أفضل وسروالا طويلا إذا وافقت على الحبس الانفرادى . ووافقت .

وقضيت الأيام التالية فى عزلة تامة ولم يكن هناك ما أقرأه أو أكتب به . وبعد بضعة أسابيع تغلبت على كبريائى وأخبرت المأمور أنى على استعداد لاستبدال السروال الطويل بصحبة الآخرين . وبعد اعتراضات متكررة وافق المأمور على أن ألحق بالسجناء السياسيين الآخرين وكان بينهم سوبوكوى قائد الـ P.A.C وكنت أتوق للحديث معه عسى أن نصل الى

مايوحد بين آرائنا فى السجن .

ووجدت خلافا لسوبوكوى آخرين من المنظمات الأخرى ورحب الجميع بى بحرارة وطلب منى روبرت أن أعطيه تقريرا عن رحلتى فى إفريقيا وكنت صريحا عن صورة P.A.C والمؤتمر فى أفريقيا وأضفت أننا لابد وأن نناقش مختلف القضايا ولكن بعد ذلك عملت سلطات السجن على فصلنا وعدم لقائنا ولم يكن هناك سوى فرص قليلة لحديثنا وكنت أحترم سوبوكوى واقدر آراءه . لكننا أيضا اختلفنا بشأن ظروف السجن إذ كان هو يعتقد أن مقاومة الظروف السيئة تعد اعترافا منا بحق الدولة فى سجننا .

ولحق بنا وولتر لمدة إسبوعين فقد كان يحاكم فى جوهانسبرج بتهمة التحريض على الاضراب وحكم عليه بالسجن لمدة سنة واحدة . وكان قد استأنف الحكم فشجعته على طلب الكفالة وفعل ذلك ثم صدرت إليه التعليمات من المنظمة بالاختفاء والعمل القيادى السرى وقد فعل ذلك بجدارة .

وفى إكتوبر ١٩٦٢ وأثناء محاكمتى عقد المؤتمر اجتماعه السنوى الأول منذ عام ١٩٥٩ ولأن المنظمة كانت غير قانونية فقد عقد الاجتماع فى لوباتشى على حدود بتشوالاند وكان الاجتماع علامة مميزة لأنه أعلن صلة المؤتمرى بـ M·K وأشار اليها على أنها الجناح الحربى للمعركة وكان ذلك قد تم للقضاء على أعمال ارهاب غير مسئولية تقوم بها منظمة موكو

التى كان لها روابط ضعيفة مع P.A.C وكانت تستهدف المتعاونين من الأفارقة والبيض .

وكانت أعمال الارهاب ضد سلطات البانتو قد تزايدت وذلك لأن الحكومة كانت قد قننت النظام وكان الناس قد ساهموا فى تقنينة بالتصويت عليه ولو بالمعارضة وكان فورستر وقتها وزيرا للعدل وكان يؤمن بأن القبضة الحديدية هى الرد الوحيد على أعمال العصيان .

وفى مايو ١٩٦٣ طبقت الحكومة تشريعا كان الهدف منه كسر ظهر M·K حسب تعبير فورستر وعرف القانون باسم قانون الحجز لمدة ٩٠ يوما الذى كان يعطى أى شرطى الحق فى احتجاز أى شخص دون أمر بالقبض عليه على أساس الشك فى ارتكابه جريمة سياسية وكان بالامكان مد أمد الأيام التسعين إلى مالا نهاية وقد حول القانون البلاد الى دولة بوليسية وأصبحت الشرطة أكثر شراسة وكان المساجين يضربون ويعذبون بالصدمات الكهربائية والخنق ولم يعارض القانون فى البرلمان سوى هيلين سوزمان من الحزب التقدمى .

وتزايدت العقوبات لعضوية المنظمات غير القانونية وكانت العقوبة على ما يسمى مساعدة أهداف الشيوعية تتراوح بين الخمس سنوات والاعدام وكان ذلك القانون قد طبق فى حالة سوبوكوى الذى كانت مدة عقوبته قد انتهت ولكن الحكومة جددت سجنه بدون تهمة جديدة وأرسلته الى جزيرة روبن كما طبق قانون تحديد الاقامة بالمنازل وقوانين أخرى عنيفة وفق

مشيئتها او كما صدر قانون بعدم نشر او ترديد أى مقولة لشخص محظور . وفى عام ١٩٦٢ اوقفت صحيفة العهد الجديد وأصبح امتلاك أى اصدارات غير قانونية يعاقب عليه بالسجن .

- ٥٤ -

وفى ليلة قرب نهاية مايو أخبرت أنا والسجناء السياسيين الأخرين أنه سيتم نقلنا الى جزيرة روبن . ونقلنا إلى كيب تاون وكنا أربعة موثقين معا ونقلنا فى حافلة شرطة مغلقة ليس بها نوافذ وبها دلو . واستمرت الرحلة طوال الليل ومعظم النهار . ولم يكن من السهل لأربعة أشخاص موثقين معا أن يستعملوا دلوا فى عربة تتحرك .

وكان رصيف الميناء فى الكيب يعج بأفراد الشرطة المسلحين ونقلنا إلى معدية خشبية وحيث وقفنا كانت هناك فتحة صغيرة بالسقف كان يروق للحراس التبول منها على رؤوسنا . ووصلنا للجزيرة قبل الغروب .

وكنت قد سمعت عن تلك الجزيرة وأنا طفل وكانت الجزيرة معروفة بين الاكسهوسا لأن أحد قادتهم كان قد نفى إليها عام ١٨١٩ لقيادة معركة ضد الانجليز . وحاول الهرب بقارب ولكنه غرق قبل أن يصل إلى الشاطىء ولم يعرف عن أحد أنه نجح فى الهرب منها سوى شخص كان قد نفاه هناك جان فان رايبيك عام ١٦٥٨ .

وكانت الجزيرة قد تحولت إلى مستعمرة لمرض البرص

ومعقل للمجانين وقاعدة بحرية ثم أصبحت مؤخرا سجنا مرة أخرى .

واستقبلنا مجموعة من السجانين البيض الأفظاظ وهم يصيحون « هذه هى الجزيرة وهنا ستموتون » وكان أمامنا مجمع تحيطه مراكز حراسة وأصطف الحراس المسلحون على طول الممر المؤدى للمجمع . وصاح سجان طويل ذو وجه أحمر قائلا « إنى هنا رئيسكم وكان أحد الأخوين كلينتهانسن المشهورين بوحشيتهم فى معاملة السجناء وبينما كنا نسير تجاه السجن أخذ الحراس يصيحون « إثنين إثنين » ثم طلبوا منا أن نجرى وهنا قلت لزميلى أن علينا أن نعطى مثلا لأننا إذا خضعنا الآن نستظل تحت رحمتهم وأخذنا نسير ببطء وكنا فى المقدمة وهددنا كلينهانسن لكننا ثابرنا فى السير بخطوات وئيدة . ولما وصلنا إلى الزنزانات أخذنا الى غرفة مستطيلة تغطى أرضيتها المياه وأمرنا أن نخلع ملابسنا وكنا كلما خلعنا قطعة التقطها الحراس وفحصوها ثم أغرقوها فى الماء ثم بعد ذلك أمرنا بارتداء الملابس المشبعة بالمياه .

ثم أخذنا الى زنزانتنا وكانت أفضل زنزانة رأيتها فقد كانت النوافذ كبيرة وكان بإمكاننا رؤية السجانين والنزلاء وهم يسيرون . وكانت الزنزانات متسعة ولها مراحيضها وحماماتها . ولكن أمرنا ألا نحادث أحدا من النوافذ .

بعد ذلك علمنا أنه يوجد بالجزيرة اكثر من ألف مسجون من الأفارقة وكانوا كلهم قد وصلوا حديثا وكنت أعلم أنه لابد أن

يكون بينهم بعض السجناء السياسيين وحاولت الاتصال بهم ولكننا كنا معزولين تماما . ولما طلبنا أن نخرج للعمل كبقية السجناء نفذ طلبنا لكننا كنا نخرج منفردين وكان يشرف علينا احد الأخوين كلينهانسن . وأوكل إلينا ردم بعض الأنابيب التي كان قد تم تركيبها حديثا وكنا نعمل بجد طوال اليوم .

وكان مراقبنا هو الأخ الأكبر ولابد أن أخاه قد حذره وطلب منه أن يضبط نفسه لأنه لم يحدث وأن لمسنا . وحدث ذات يوم بينما كنا عائدين من العمل فى رفقة الأخ الأصغر أن توقف ليتحدث الى أخيه واستدرت لأنظر الى بعض المساجين الأخرين الذين كنت أعرف شخصياتهم وهنا أمرنى بوقاحة ألا أفعل ذلك وشعرت أن كبريائى قد جرحت فى حضور المساجين الآخرين ورفضت أمره فتقدم وهو ينوى مهاجمتى ولكن حينما اقترب منى جرى إليه أخاه هامسا فى أذنه وسحبه بعيدا .

وحينما بدأت أعمل فى السجن شعرت بحياة المساجين فى الجزيرة . وقامت السلطات بنقل بعض المساجين التابعين لـ P.A.C إلى زنزانة مقابلة وكنا نستطيع فى الليل التحدث معهم واكتشفت ان بينهم ابن أخ لى لم أكن قد رأيته منذ أن كان رضيعا . ولما علم الآخرون أننا لسنا أعضاء فى P.A.C أثناء رحلتى فى أفريقيا كما سمع فأجبته بالنفى واستاء الجميع وأوقفوا التحدث معنا .

وذات ليلة حضر إلينا أحد الضباط وأمرنا أن نجمع

حاجاتنا . ورحل الثلاثة الآخرين واستبقيت أنا . وفى الصباح الباكر نقلت الى بريتوريا وكانت الحجة التى أذاعتها مصلحة السجون أن النقل قد تم لحمايتى من تهديدات أعضاء P.A.C وكان ذلك كذبا لأننى نقلت لأسبابهم الخاصة التى سرعان ماوضحت وسجنت انفراديا فى سجن بريتوريا ولكننى تمكنت من تبادل الاتصالات مع أعضاء المؤتمر هناك وعلمت أنه قد تم القبض على بعض كوادر الـ M.K بعد انتهاء تدريباتهم فى اثيوبيا وعن طريق القنوات السرية حاولت مساعدتهم فى المحاكمة وعرضت عليهم الاتصال بهارولد وولب للدفاع عنهم لكننى علمت أنه فى الحجز . فأيقنت أن شيئا ما قد حدث . وكان قد صدر أمر بالحظر على وينى فى أوائل ١٩٦١ لمدة سنتين . وذات يوم فى يوليو ١٩٦٣ وبينما كنت سائرا فى الممر المؤدى إلى زنزانتى رأيت توماس ماشيفان الذى كان رئيسا للعمال فى المزرعة . ورغم أننى فهمت أن السلطات قد دبرت ذلك اللقاء لتتأكد من معرفتى إياه فقد حييته بحرارة وكان وجوده يعنى أن السلطات قد اكتشفت ريفونيا . وبعد يومين استدعيت إلى مكتب السجن حيث وجدت وولتر وجوفان مبيكى وأحمد كاثرادا وأندرو مالفجينى وريموند مهلابا عضو القيادة العليا لـ M.K الذى كان قد عاد من الصين بعد اتمام تدريبه . ووجهت إلينا تهمة التخريب وكان علينا الظهور فى المحكمة فى اليوم التالى . كنت قد قضيت تسعة أشهر من سنوات سجنى الخمس .

وبالتدريج علمت ماحدث . ففى عصر يوم دخلت شاحنة

تنظيف ملابس إلى المزرعة ولم يكن أحد قد طلب تسليم شيء . وحينما حاول حارس افريقى استيقافها هاجمه عشرات رجال الشرطة المسلحين وقفزت الكلاب البوليسية من الشاحنة وأحاطوا بالمزرعة وفتشوا المبانى وتم القبض على الجميع بما فيهم آرثر جولد ريتش . وتمت مصادرة مئات الوثائق والأوراق وبضربة واحدة ألقت الشرطة القبض على جميع أعضاء قيادة M.K وألقى بهم فى الحجز طبقا للقوانين المستحدثة . ولحسن الحظ كان جوسلوفو وبرام فيشر غير متواجدين .

ووجهت إلينا تهمة التخريب وبعد أيام قليلة سمح لنا بمقابلة هيئة الدفاع وأخبرنا برام فيشر أننا نواجه محاكمة شديدة الخطورة وأن الدولة ستطالب باعدامنا .

- ٥٥ -

وفى اكتوبر ١٩٦٣ نقلنا فى شاحنة شرطة مسلحة إلى قصر العدالة فى بريتوريا حيث تنعقد المحكمة العليا فيما أصبح يعرف باسم قضية الدولة ضد نيلسون مانديللا وآخرين أو محاكم ريفونيا . وأحاطت بنا شاحنات الشرطة وهناك كانت تقف عربات شرطة بها كبار مسئوليها . وكانت المحكمة تعج بالرجال المسلحين . واقتدنا الى المدخل الخلفى تحاشيا للمؤيدين الذين كنا نستطيع سماعهم وهم ينشدون . وبدأت ما اتفق على أنه أهم محاكمة سياسية فى تاريخ جنوب أفريقيا .

ودخلنا قاعة المحكمة وكل منا فى حراسة اثنين من رجال الشرطة المسلحين . وقمنا برفع قبضات أيدينا بتحية المؤتمر ورددنا هتافاتنا التى رد عليها الجمهور . وقامت الشرطة بتصوير الحضور وأخذ بياناتهم قبل مغادرة القاعة . وكانت القاعة مليئة برجال الصحافة المحليين والأجانب ومندوبى الحكومات الأجنبية .وكون رجال الشرطة حاجزا بيننا وبين الجمهور . وكانت الحراسة قوية وخاصة لأن قبل ذلك بأسابيع كان آرثر جولد وهارولد وولب وموسى موولا وعبدالحى جاسات قد نجحوا فى الهرب وتمكن آرثر وهارولد من عبور الحدود متخفين كقساوسة إلى سوازيلاند ومنها الى تنجانيقا . وقد أحدث هربهم حالة من الهستريا ورحب به بعناوين رئيسية فى الصحافة مما سبب الاحراج للحكومة .

وكان القاضى فى محاكمة ريفونيا هو كوارتس دى ويت أحد آخر قضاة كان قد عينهم حزب المتحدين . أما الادعاء واسمه بيرس يوتار فكان شخصا ميلودرميا غير دقيق التعبير ذا صوت كالصرير حينما يغضب . وقدم يوتار عريضة الاتهام وطلب محاكمة فورية مختصرة . وكنت المتهم الأول . وكنا نحن الأحد عشر متهمين بالاشتراك فى أكثر من مائة عمل تخريبى تهدف الى تسهيل الثورة المسلحة والغزو المسلح للبلاد وادعت الدولة أننا أعضاء مؤامرة لقلب نظام الحكم وكانت العقوبة القصوى هى الاعدام وطبقا لقانون التخريب فكان العبء على الدفاع ليثبت براءة المتهم .

وطلب فيشر التأجيل على أساس أن الدفاع لم يعط فرصة لتحضير القضية ومنحنا القاضى ثلاثة أسابيع .

وطلبت وينى من وزير العدل السماح لها بالحضور وكانت تحت قرار حظر فوافق على شرط ألا ترتدى الزى الوطنى .

وفى يوم ٢٦ اكتوبر دخلنا مرة أخرى إلى قصر العدالة . وكانت الجموع كبيرة ومتهاجة وكانت الحراسة قوية للغاية ومرة أخرى كان هناك العديد من الضيوف الأجانب ذوى الشأن .

وبدأنا الهجوم على الفور ووصف فيشر عريضة الاتهام بأنها زائفة وتحوى تفاهات كاتهامى بالاشتراك فى أعمال تخريبية فى وقت كنت فيه فى السجن ونظر القاضى الى يوتار طالبا التوضيح وبدلا من أن يقدم تفصيلات بدأ ماوصفه القاضى بأنه خطبة سياسية وحينئذ قال له القاضى « إن أساس اتهامك كما أفهمه هو اقتناعك الشخصى بأنهم مذنبون » وألغى أمر الاتهام وأنهى الجلسة .

وأصبحنا فنيا فى تلك اللحظة طلقاء وساد الهرج القاعة وأعيد القبض علينا حتى قبل أن يغادر دى ويت مقعده .

وأعادت الدولة صياغة عريضة الاتهام وعدنا إلى المحكمة أوائل ديسمبر . ولاحظنا أن دى ويت كان أكثر عداء هذه المرة وقرأت الاتهامات الجديدة وكانت هى أننا جندنا أشخاصا للقيام بأعمال تخريب والبدء فى ثورة مسلحة وأننا تآمرنا

لمساعدة غزو عسكرى أجنبى لنبدأ ثورة شيوعية وأننا استشرنا دولا أجنبية وتلقينا منها مساعدات لهذا الهدف .

وعندما نودى علينا قرر كل من المتهمين أن يوحى بأن الحكومة هى المجرمة قبل أن يقرر أنه غير مذنب .

وفى كلمته أكد يوتار أننا كنا نخطط لعشرة آلاف من الفدائيين المدربين ليبدأوا ثورة يعقبها غزو عسكرى أجنبى وبعد ذلك تقام حكومة إقليمية ثورية وأن أداه تلك الخطة هى M.K تحت الادارة السياسية للمؤتمر والحزب الشيوعى وأن المقر الرئيسى لـ M.K كان ريفونيا ثم قام بوصف لنشاطاتنا التى ضمنها إقامة محطة إرسال إذاعى فى ريفونيا ومسئوليتنا عن مائتين واثنين وعشرين عملا تخريبيا وتجنيد الأعضاء وإقامة مدرسة تدريبية فى الكيب وانتاج قنابل متنوعة وجمع الأموال من الخارج . وأثناء الشهور الثلاثة التالية أتت الدولة بمائة وثلاثة وسبعين شاهدا وضمت الى سجل القضية آلاف الوثائق والصور .

وكنا فى حيرة من أمر ماتمتلكه الدولة من أدلة ضدى فقد كنت خارج البلاد وفى السجن فى الفترة التى حدث فيها التخطيط فى ريفونيا . وكنت حينما رأيت وولتر فى سجن بريتوريا المحلى قد طلبت منه أن ينقل كل كتبى ومذكراتى من الضيعة . ولكن خلال الاسبوع الأول للمحاكمة وحينما طلب راستى برينستاين الافراج بكفالة أبرز يوتار بطريقة درامية خريطة القلعة التى كنت قد رسمتها والمذكرة الملحقة بشأن

خطة الهرب وصاح قائلا إن ذلك دليل على أن جميع المتهمين من الممكن أن يخططوا للهرب . وكان ذلك علامة على أن شيئا من متعلقاتى لم ينقل من ريفونيا .

وكان شاهد الدولة الرئيسى هو زولو من دربان ويدعى برونتو متولو أو السيد × كما سمى فى المحكمة وكان يوتار قد ذكر بلهجة مسرحية أن حياة الشاهد فى خطر جسيم . وكان متولو ذا ذاكرة حادة وكان قد صار قائد الفرع M.K فى ناتال كما كان خبيرا فى أعمال التدمير وقد زار ريفونيا وكنت قد ألقيت خطابا فى كوادره فى ناتال عقب عودتى وقابلته هناك . وكانت شهادته دقيقة عن العمليات التى قام بها وعن استعمال القنابل وعن نشاطاتنا السرية وقال إنه لم يفقد الايمان بمثل المؤتمر لكنه فقد الثقة فى المنظمة لأنه تبين أن M.K هى أداة للحزب الشيوعى وأن شهادته ببساطة وبتظاهر بالصراحة ولكنه أدخل اضافات - غالبا بناء على تعليمات الشرطة - كقوله إننى قلت لهم أن على كوادر M.k أن يكونوا شيوعيين بدون الاعلان عن آرائهم وبدا ذلك صحيحا فى سياق التفاصيل الدقيقة التى رواها . وقد أذهلتنى خاينة متولو الذى لم يتعرض للتعذيب والذى ذكر أسماء أبرياء كثيرين مورطا إياهم فى القضية دون داع .

ومن خلال مساءلة الدفاع له اكتشفنا أن متولو كان مجرما حقيرا قبل التحاقه بـ M.K وكان قد سجن ثلاث مرات بتهمة السرقة ولكن بالرغم ذلك فقد كانت لشهادته أثرها

المدمر لأن القاضي وجده أهل ثقة وكانت شهادته إدانة لنا جميعا .

وكان مفتاح القضية ضدنا هو خطة العمل المكونة من ست صفحات والتى صادرتها الشرطة عند الهجوم على ريفونيا وكانت حينئذ أمام القادة على المائدة وكانت تدعى عملية مايبوبى وهى عبارة عن تخطيط مبدئى للعمليات الفدائية الممكنة وكيفية اشعال ثورة جماهيرية مسلحة ضد الحكومة وكانت قضية الادعاء ترتكز على أنه قد تمت الموافقة على العملية من قبل اللجنة التنفيذية للمؤتمر وكنا قد تمسكنا نحن بقولنا أنها كانت مازالت موضع مناقشة وقت الهجوم . وكنت أنا قد رأيت أن العملية غير واقعية فى أهدافها وخططها .

واستمرت قضية الدولة حتى ٢٦ فبراير ١٩٦٤ . وبعد ذلك منحنا مدة شهر أو أكثر قليلا لفحص الأدلة واعداد الدفاع . وكانت أدلة الدولة لاتجرمنا جميعا بنفس الدرجة فلم يكن هناك دليل ضد جيمس كانتور . أما راستى بيرنستاين وريموند مهلابا وأحمد كاثرادا فكان دليل تورطهم فى المؤامرة ضئيلا وقرر بقيتنا الستة الاعتراف بأننا مذنبون فى تهم معينة .

وكان برام فيشر متشائما . أما نحن فكنا قد قررنا منذ البداية أن هدفنا هو استغلال المحاكم كمنصة نعلن منها عقائدنا . فلم يكن همنا هو أن تبرأ ساحتنا أو تخفف الأحكام ضدنا لكن أن تدعم المحاكمة القضية التى نناضل من أجلها .

وكان دفاعنا عن أنفسنا ينصب على وجهة النظر الأخلاقية . فمثلا قررنا اثبات عدم صحة ادعاء الدولة بأننا بدأنا حرب عصابات لكننا قررنا الاعتراف أنه كانت لدينا خطط بديلة لاستعمال حرب العصابات فى حالة فشل أعمال التخريب .. وكنا أيضا سننفى أى تهمة قتل أو إضرار لحق بأى شخص برىء وكذلك أننا قد فكرنا فى تدخل قوات أجنبية . أما بخصوصى فكان هناك من الأدلة مايكفى لإدانتى .

وكنت الشاهد الأول وقررت بدلا من الخضوع للاستجواب أن أقوم بالقاء بيان وكان ذلك الإجراء كما حذرنى المحامون سيعرضنى بأن يستبعد القاضى أى شىء فى بيانى يخص براءتى . لكن اهتمامنا الأول كان أن نبدأ الدفاع ببيان عن سياستنا يكون هو السياق لما يتلوه .

وقضيت إسبوعين أحضر بيانى ثم قرأته على زملائى وأقروه مع اقتراحات ببعض التغييرات . ولكن عندما قرأه فيشر وعرضه على أحد المحامين رجانى أن أعدله وإلا فلا أمل لى . لكننا كنا نعتقد أن احتمال حكم الاعدام وارد فلا أقل من أن نقول مانعتقده .

وفى يوم الاثنين ٢٠ ابريل وتحت الحراسة المشددة أخذنا إلى صالة العدالة لبدء الدفاع . وكانت وينى هناك مع والدتى وكانت القاعة مكتظة .

وأعلن برام فيشر موافقة المتهمين على بعض أجزاء أدلة الدولة وقال إن الدفاع سينكر بعض ما أكدته الدولة بما فيها

أن M.K هى الجناح العسكرى للمؤتمر لأن قادة المنظمتين حاولوا دائما إبقاءها منفصلتين وأنكر بشدة أن M.K كانت تتلقى أوامرها من الحزب الشيوعى وأن جولدبيرج وكاثرادا وبيرنستاين أعضاء فى M.K ثم قرر أنه سيبرهن أن M.K لم تتبن عملية مايبيورلى وأنها لم تبدأ الاعداد لحرب العصابات . وبصوته الخفيض أعلن أن قضية الدفاع ستبدأ ببيان من قفص الاتهام يلقيه المتهم الأول الذى اشترك شخصيا فى تأسيس M.K

وهنا ثار يوتار الذى كان قد أعد العدة لاستجوابى لكن القاضى تجاهله . ووقفت فى مواجهة المحكمة وقرأت بيانى ببطء .

قلت أننى المتهم الأول وأننى الآن سجين أقضى عقوبة مدتها خمس سنوات وأننى قد ساعدت فى انشاء M.K وقلت اننى فعلت مافعلت كفرد وقائد نتيجة لتجربتى فى جنوب افريقيا ولخلفيتى الافريقية التى أفخر بها .

ثم ذكرت لهم ظروف نشأتى وكيف غرست فى نفسى الفخر بكل ماهو إفريقى مما جعلنى آمل أن تتاح لى الفرصة أن أخدم شعبى وأقدم مساهمتى المتواضعة فى معركة حريتهم وأن تلك هى دوافعى فى كل مافعلت ويتعلق بالتهم الموجهة لى فى تلك القضية .

ولم أنكر أننى خططت لبعض أعمال العنف ليس حبا فى

العنف ولكن نتيجة لتقييم هادىء للموقف السياسى الذى وجد نتيجة سنوات عديدة من الطغيان والاستغلال والاضطهاد من جانب البيض لشعبى . ثم وضحت كيف أن خمسين عاما من عدم العنف من جانب المؤتمر لم ينتج عنها سوى القوانين الظالمة والاستغلال والاضطهاد للأفارقة وهكذا بدت السياسة التى تهدف الى إقامة الدولة غير العنصرية عن طريق عدم العنف غير مجدية . وذكرت أننا شعرنا أن البلد فى سبيلها إلى حرب أهلية بين السود والبيض مما كان سيستحيل معه إقامة سلام فى المستقبل بين الاعراق المختلفة . وعلى ذلك بدت أعمال التخريب الأمل الوحيد لعلاقات سليمة مستقبلية بين الأعراق وكان رد الدولة على مجهوداتنا الأولية سريعا ووحشيا . ثم قلت أن التمرد سيعطى للحكومة فرصا لانهائية لارتكاب المذابح ولأن تربة جنوب إفريقيا مازالت مشبعة بدماء الأفارقة الأبرياء فقد رأينا . أن نعد أنفسنا على المدى البعيد لاستعمال القوة فى مواجهة القوة فإن كانت الحرب أمرا محتوما فإننا أردنا للمعركة أن تجرى فى ظروف مواتية لنا وأن الحرب الوحيدة ذات الاحتمالات المواتية لنا والتى تقلل من المخاطرة بحياة الأفراد من الطرفين هى حرب العصابات . ولهذا قررنا أن نعد لامكانية قيام حرب عصابات .

ثم ذكرت ظروف مغادرتى البلاد والتدريب العسكرى الذى تلقيته ثم ذكرت الخط الفاصل بين المؤتمر و M.K ثم فندت دعاوى الدولة من أن أهداف المؤتمر والحزب الشيوعى واحدة

مؤكدا أن المؤتمر كان مبدأه دائما القومية الإفريقية وليس القاء الرجل الأبيض فى البحر وأن أهم وثائقه هى ميثاق الحرية ولم يفكر فى أى وقت فى تغيير البنية الاقتصادية للبلاد . فبينما يعمل الحزب الشيوعي على التأكيد على تفاوت الطبقات يعمل المؤتمر على التناسق بين الطبقات . ثم أضفت أن التعاون بين الحزب الشيوعى وبين المؤتمر هو تعاون من أجل إنهاء سيادة الرجل الأبيض وأعطيت مثالا بتحالف بريطانيا وأمريكا والاتحاد السوفييتى ضد هتلر .

وذكرت أنه لعقود عدة كان الشيوعيون هم المجموعة الوحيدة السياسية فى جنوب إفريقيا التى تعامل الأفارقة كآدميين وأنداد ولهذا السبب فهناك أفارقة اليوم يميلون إلى مساواة الحرية بالشيوعية . ولم أنكر أن فكرة المجتمع اللاطبقى قد لاقت من نفسى قبولا وأن الفكر الماركسى قد أثر فىَّ وقلت أن هذا ينطبق على كثير من القادة الأفارقة فى الدول حديثة الاستقلال الذين تقبلوا الحاجة إلى شكل من أشكال الاشتراكية ليمكنوا شعوبهم من اللحاق بالدول المتقدمة فى الغرب . ورغم ذلك فإننى أنظر إلى النظام البرلمانى البريطانى كأكثر النظم ديمقراطية فى العالم وكذلك هى نظرتى للنظام البرلمانى الأمريكى .

وبعد ذلك فصلت الفوارق بين حياة البيض والسود فى جنوب افريقيا وذكرت أن البيض يدعون أن الأفارقة فى جنوب إفريقيا أحسن حالا من الأفارقة فى انحاء القارة وقلت أن

شكوانا ليست أننا فقراء بالنسبة لغيرنا من الأفارقة ولكن أننا فقراء .. بالمقارنة بالبيض فى بلدنا وأننا ممنوعون من إصلاح هذا الوضع .

واستطردت قائلا إن انعدام الكرامة الانسانية الذى يعانى منه الأفارقة لهو نتيجة مباشرة لسيادة البيض ، وإن التشريع الذى هدفه أن يحافظ على تلك السيادة يعمق الفكرة فالمهمات الحقيرة يقوم بها الأفارقة وأن الفقر وانهيار الأسرة لها آثارها الأخرى فإن الأطفال يجوبون الشوارع لأن ليس لديهم مدارس يذهبون إليها أو والدان يرسلانهم إلى المدرسة لأن على كل من الوالدين أن يعمل ليقيم أولادهم وهذا يؤدى إلى انهيار المعايير الأخلاقية وارتفاع عدد اللقطاء وتفجر أعمال العنف السياسية وغيرها .

وقلت أننى أعرف أن مطالبة الأفارقة بحقوق متساوية يبدو ثوريا للبيض لأن معظم الأصوات ستكون للسود ولهذا يخاف الرجل الأبيض من الديمقراطية . وختمت كلمتى وسط صمت تام فى القاعة وأنا أنظر إلى القاضى دى ويت وقلت :

لقد كرست نفسى لمعركة الشعب الافريقى هذه وناضلت ضد سيادة البيض وناضلت ضد سيادة السود فقد اعتنقت مبدأ مجتمع حر وديمقراطى حيث يعيش جميع الأفراد فى تآلف ولديهم فرص متساوية وهذا هو المثل الاعلى الذى آمل أن أعيش من أجله وأحققه . ولكن إذا احتاج الأمر فهو المثل الأعلى أيضا الذى أنا على استعداد كى أموت من أجله .

وجلست ، وساد القاعة صمت بدا كما لو أنه امتد دقائق عديدة ولكنه في الواقع لم يستمر أكثر من ثلاثين ثانية ، وعندئذ ، ومن مقاعد الجمهور سمعت ماقد بدا وقتها وأنه تنهيدة عظمى جماعية تلاها بكاء النساء .

وكانت كلمتي قد استمرت أربع ساعات وكانت الساعة قد تخطت الرابعة وهو ميعاد رفع الجلسة عادة لكن القاضي دى ويت طلب الشاهد التالى لأنه كان مصمما على تخفيف وقع بياني ولكن لم يفلح أى شيء فعله في تخفيف الوقع وحينما فرغت من كلمتي وجلست كانت تلك آخر مرة يواجه فيها دى ويت نظراتي .

ولاقت كلمتي ردود فعل ضخمة في الصحافة المحلية والأجنبية ونشرتها الديلي راند كاملة رغم قرار حظر كلماتي . وكانت الكلمة قد بينت خط دفاعنا وجعلت الادعاء أعزل نظرا لأنه كان قد أعد للقضية على أساس أنني سأقوم بالادلاء بالشهادة محاولا إنكار مسئوليتي عن أعمال التخريب .

وجاء دور المتهم الثاني وولتر سيسولو وكان عليه أن يتحمل الاستجواب الذى كان يوتار قد أعده لى ولكن وولتر تحمل سيل الأسئلة العدائية وسما على حقارة يوتار . وجاء بعد ذلك دور جوفان الذى روى بفخر تاريخ عضويته للحزب الشيوعى وكذلك فعل أحمد كاثرادا ورستي بيرنستاين وقد أنكر كاثرادا ارتكاب أعمال تخريب أو تحريض للآخرين ولكنه قال أنه يؤيد تلك الأفعال إن كانت تخدم المعركة .

وكان خطاب يوتار النهائى عبارة عن تلخيص مشوه لقضية الادعاء مليئا بالاهانات حتى أن القاضى دى ويت بدا متحيرا ازاء بعض المعانى التى قصدها يوتار وعند نقطة معينة قاطعه متسائلا إن كان يوافق على أنه قد فشل على أن يبرهن أن قرارا كان قد اتخذ بشأن حرب العصابات .. وأحيا ذلك لدينا الأمل .

ورد مستشار الدفاع على النقط التى أثارها يوتار فى كلمته . وكذلك بين برام فيشبر التناقضات والادعاءات الكاذبة التى وردت فى كلمة الادعاء . ولكن دى ويت قاطعه قائلا أنه مقتنع أنه لم يتخذ قرارا بشأن حرب العصابات وأن المؤتمر منظمة منفصلة عن M.K . وتأجلت الجلسة ثلاثة أسابيع لدراسة الحكم .

- ٥٧ -

وكان العالم مهتما بمحاكمة ريفونيا منذ أقيمت صلوات طوال الليل فى كاتدارئية سان بول فى لندن وانتخبنى طلبة جامعة لندن رئيسا للاتحاد غيابيا ودعا فريق من المختصين فى الأمم المتحدة الى عقد مؤتمر قومى فى جنوب إفريقيا لانتخاب برلمان يمثل حقيقة الشعب ودعوا الى العفو عن جميع المعارضين للأبارتايد وقبل أن يتخذ القاضى دى ويت قراره بيومين حث مجلس الأمن فى غياب أربعة أعضاء من بينهم بريطانيا والولايات المتحدة حكومة جنوب إفريقيا إلى إنهاء المحاكمة والعفو عن المتهمين .

وفى الأيام التى سبقت إعادة انعقاد المحكمة كنت قد أديت امتحان ليسانس الحقوق لجامعة لندن وكان السجانون يعلقون على ذلك بقولهم أننى لن احتاج لدرجة فى القانون حيث أنا ذاهب . وكانت تلك طريقة منعت نفسى من التفكير بها بطريقة سلبية . ونجحت فى الامتحان .

ويوم الخميس ١١ يونيو اجتمعنا ثانية بقصر العدل وكنا فقط ننتظر نوع العقوبة .

وبدون إضاعة وقت نطق دى ويت بالحكم وكان إدانة المتهمين الرئيسيين فى التهم الأربعة الموجهة إليهم أما كاثرادا فقد ثبتت عليه تهمة واحدة وثبت براءة راستى بيرنستاين . وتأجل النطق بالعقوبة حتى اليوم التالى لكى تعطى الدولة والدفاع فرصة لتقديم أى وثائق يرونها .

وبعد مناقشات قررنا أننا لن نستأنف الحكم حتى ولو كان حكما بالاعدام لأن الاستئناف يقوض الموقف الأخلاقى الذى التزمنا به وكبرياءنا فيما فعلنا الذى عبرنا عنه . كما أننا لم نكن نريد أن نعوق الحملة الجماهيرية التى لابد وأن تتفجر فى حالة الحكم بإعدامنا وكان رأينا أن الاستئناف سيكون هبوطا مفاجئا للخط الذى التزمنا به واحباطا للآمال .

وكنت مستعدا للحكم بالاعدام ولكى يكون الانسان مستعدا بحق فلابد له وأن يتقبله بالفعل فلا يستطيع الانسان أن يكون مستعدا لشىء إذا كان يؤمن فى أعماقه أنه لن يحدث . وكنا جميعا مستعدين ليس لكوننا شجعانا ولكن لكوننا واقعيين .

وفى يوم ١٢ يونيو ١٩٦٤ دخلنا المحكمة للمرة الأخيرة وكان قد مر عام تقريبا منذ الهجوم على ريفونيا . وكانت احتياطات الأمن غير عادية . وهرعت بنا حافلة الشرطة عبر الشوارع مطلقة صفاراتها ولم يسمح بالمرور فى الشوارع المؤدية للمحكمة . وبرغم اجراءات التخويف فقد تجمع حوالى ألفى شخص امام المحكمة رافعين شعاراتهم . وفى الداخل امتلأت مقاعد النظارة عن آخرها . ولوحت محييأ وينى ووالدتى . وقبل النطق بالحكم تكلم هارولد هانسون وآلان بيتون الكاتب ورئيس الحزب الليبرالى طالبين تخفيف الحكم حيث أنه لايمكن تجاهل المظالم القومية وأن أهدافنا نفسها لم تكن إجرامية ولكن الوسائل المتبعة هى غير المشروعة . وتجاهل القاضى كلماتهما . ثم أشار إلينا بالوقوف وتكلم وهو يتحاشى نظراتنا وقال إنه استمع لكل ماقيل عن مظالم غير الأورربيين وعن دوافع المتهمين التى كانت رفع تلك المظالم لكنه شخصيا لايعتقد فى إيثارية دوافعهم إذ أنه فى حالة قيام ثورة فإن هؤلاء القادة سيحتلون مناصب الحكومة وحيث أن الدولة قد قررت عدم اتهامهم بالخيانة العظمى فإنه بعد تفكير ودراسة قرر من منطلق التسامح ألا يحكم بالعقوبة القصوى وعلى ذلك فإن العقوبة لجميع المتهمين هى السجن مدى الحياة .

وساد الهرج قاعة المحكمة . وأخرجنا من الباب الخلفى ودخلنا الشاحنة السوداء التي سلكت طريقا مختلفا ورغم ذلك كنا نسمع صياحات وهتافات الجماهير . وفصلنا عن دينيس جولدبيرج لكونه أبيضا . وسجن الباقون فى زنزانات فى سجن بريتوريا المحلى بعيدا عن جميع السجناء الآخرين . وبدلا من الهتافات والأغانى كنا نسمع فقط صرير الأبواب والبوابات .

وتلك الليلة وأنا مستلق على حصيرتى فى الزنزانة بدأت أراجع أسباب قرار دى ويت . فقد كانت المظاهرات قد عمت جميع أرجاء جنوب إفريقيا . كما أن الضغط الدولى كان لابد وأن أثر فى قراره . فقد احتجت الاتحادات الدولية على المحاكمة وهدد اتحاد السفن بمقاطعة التعامل مع بضائع جنوب إفريقيا وكتب بريجنيف إلى فيرويرد طالبا استعمال الرأفة واحتج بعض أعضاء الكونجرس الأمريكى وقاد خمسون من أعضاء البرلمان فى انجلترا بتسيير مسيرة وكانت هناك شائعات أن وزير خارجية بريطانيا قد تدخل من أجل المحاكمة كما كتب ممثل الولايات المتحدة يقول أن حكومته مستعدة لأى شيء من أجل أن تمنع صدور حكم الاعدام . وفكرت أنه بما أن دى ويت قد اقتنع أننا لم نبدأ حرب عصابات وأن المؤتمر وM.K منفصلان فقد كان من الصعب عليه اصدار حكم بالاعدام .

وفى كل مساء فى سجن بريتوريا المحلى وقبل أن تطفأ

الأنوار كانت تسمع أصداء أغانى الحرية التى ينشدها السجناء وكنا نحن أيضا ننطلق بالغناء .

الجزء الثامن

جزيرة روبن
السنوات المظلمة

- ٥٩ -

وفى منتصف إحدى الليالى اوقظنا واقتدنا عبر ممرات السجن وفى الخارج قيدنا نحن السبعة : وولتر ، وريموند ، وجوفان ، وكاثرادا ، وأندرو ، وإلياس ، وأنا ، وحشرنا فى الجزء الخلفى لشاحنة شرطة وفى أقل من نصف ساعة وجدنا أنفسنا فى مطار عسكرى قديم خارج المدينة ودفعنا نحو طائرة نقل عسكرية عتيقة التى حملتنا إلى جزيرة روبن . وحينما رسونا قابلنا الحراس المسلحون بالأسلحة الأوتوماتيكية . ثم اقتدنا الى السجن القديم وهو مبنى حجرى منعزل حيث أمرنا بخلع ملابسنا وألقى إلينا بالزى الكاكى الخاص بجزيرة روبن وكانت تعليمات الأبارتايد تشمل زى السجن فقد أعطى كاثرادا سروالا طويلا وجوربا . وأقسمت وأنا أرتدى السروال القصير ألا أرتديه طويلا .

وفى الصباح الرابع قيدت أيدينا ونقلنا فى شاحنة مغطاة الى سجن داخل سجن . وكان ذلك عبارة عن قلعة مستطيلة

من طابق واحد لها فناء أسمنتى فى المنتصف وكانت الزنزانات تحتل ثلاثا من الجوانب الأربع أما الجانب الرابع فكان جدارا ارتفاعه عشرين قدما .

وخصصت لكل منا زنزانة وكان لكل زنزانة نافذة مساحتها قدم مربع مغطاة بالحديد وبابان أحدهما من المعدن وله قضبان حديدية وخارجه باب من الخشب الثقيل وفى أثناء النهار كان الباب المعدنى يوصد أما أثناء الليل فكان البابان يوصدان .

ولما شكوت إلى الضابط من رطوبة الجدران قال إن أجسادنا ستمتص الرطوبة وتم صرف ثلاث بطانيات رقيقة بالية لدجة الشفافية وحصيرة من القش لكل منا ثم أضيف إليها حصيرة من اللباد وكانت الزنزانات فى ذلك الوقت من السنة شديدة الرطوبة لدرجة أننا كنا ننام بملابسنا كاملة .

ولحق بقسمنا بعد ذلك عدد آخر من المسجونين السياسيين كانوا فى القسم العام مثل جورج بيك أحد مؤسسى منظمة ملونى جنوب افريقيا ودنيس برونس وهو مناضل آخر من الملونين وكان شاعرا وكاتبا وبيلى نير من المجلس الهندى لناتال ونيفل الكسندر من المثقفين الملونين البارزين وعضو حركة غير الأوروبيين وآخرين وكوننا مجموعة من عشرين سجينا سياسيا .

وبدأ فى الأسبوع الأول العمل الذى اشتغلنا به لعدة أشهر تالية فكان يلقى إلينا كل صباح بحمولة من الأحجار فى حجم

الكرة فى مدخل الفناء وباستعمال عربات يد كنا ننقل تلك الأحجار الى منتصف الفناء وكان علينا أن نصحن تلك الحجارة بالمطارق ونحولها الى حصى . وتم تقسيمنا إلى أربع مجموعات يفصل كل منها عن الأخرى حوالى ياردة ونصف وكنا نجلس على الأرض متربعين ثم كان كل منا يعطى حلقة سميكة من المطاط مصنوعة من إطارات السيارات القديمة نضع فيها الحجارة لمنع تناثر الشظايا التى كانت فى الواقع غير مؤثرة . وكنا نلبس أقنعة من السلك لحماية أعيننا وكان السجانون يمشون بيننا ليفرضوا الصمت والمساجين من الأقسام الأخرى يأتون ليحملقوا فينا كحيوانات متوحشة . وكان العمل صعبا ومملا وغير عنيف بالدرجة التى تجلب لنا الدفء ولكنه متعب بدرجة توجع مفاصلنا .

وكان الجو فى الجزيرة فى ذلك الوقت قارس البرودة وكنت أرتجف حتى وأنا فى الشمس وعند الظهيرة كنا نتوقف للغداء وكان فى الاسبوع الأول حساء كريه الرائحة .

وحدث أن تحديت السجانين بمحاولة مساعدة كاثرادا لتحريك عربة اليد المحملة بالحجارة ، وفى الصباح التالى وضعت السلطات دلوا كبيرا فى الفناء وأعلنوا أنه لابد وأن يملأ إلى منتصفه قبل نهاية الاسبوع ، وفى الاسبوع التالى أعلنوا أن علينا أن نملأ ثلاثة أرباع الدلو فاجتهدنا ونجحنا وفى الاسبوع الثالث أمرنا أن نملأه حتى الحافة وكنا نعلن أننا لن نحتمل ذلك لمدة طويلة ولكن لم نفعل شيئا وتمكننا من

ملء الدلو لكن السجانين استفزونا وفى الاسبوع الذى تلى ذلك بدأنا أول اضراب للعمل ببطء فى الجزيرة فقررنا أن نعمل بنصف السرعة التى عملنا بها للاحتجاج على المطالب المسرفة وعلى الفور فهم السجانون وأنذرونا لكننا لم نزد سرعتنا وأخذنا فى اتباع استراتيجية البطء مدة العمل فى الفناء .

وكانت جزيرة روبن قد تغيرت عما كانت عليه عندما كنت نزيلا بها عام ١٩٦٢ حيث كان المكان يبدو كتجربة أكثر منه سجنا متكاملا . وبعد سنتين من ذلك التاريخ كانت الجزيرة بدون شك أعتى وأقسى نقطة حدودية فى نظام العقوبات فى جنوب إفريقيا . وكان التقسيم العرقى هناك مطلقا فلم يكن هناك سجانون سود أو مساجين بيض . وهناك كنا معزولين تماما وكان عزاؤنا الوحيد وجودنا معا . لكن سرعان ما اختفى شعورى بالاستياء ليحل محله شعور أن معركة جديدة قد بدأت .

منذ اليوم الأول كنت قد احتججت على إجبارى على ارتداء السروال القصير وطالبت مقابلة مأمور السجن لابلاغه بقائمة شكاواى وتجاهل السجانون احتجاجاتى . ولكن فى نهاية الاسبوع الأول وجدت سروالا طويلا ملقى على أرض زنزانتى ورغم فرحتى به فقبل أن أرتديه عرفت أنه لم يتم صرف سراويل مماثلة لزملائى وكان اصرارى أن يرتدى جميع الأفارقة السراويل الطويلة لكن مأمور السجن رفض وأخذ منى سروالى .

وفى نهاية الاسبوعين الأولين أخطرنا أن محامينا برام فيشر وجويل جوف سيزورنا اليوم التالى وكان الهدف من زيارتهما معرفة أحوالنا والتأكد من أننا لم نكن نرغب فى الاستئناف . وجلسنا فى الغرفة الخاوية وكنت أشعر برغبة شديدة في معانقتهما لكن وجود الضابط معنا منعنى وأخبرتهما أننا لانرغب فى الاستئناف للأسباب التي ذكرناها سابقا . وحينما كنا على وشك إنهاء المحادثة سألت برام عن زوجته مولي ولكننى ماكدت أنطق بالاسم حتى نهض فجأة وخرج من الغرفة وبعد دقائق عاد مرة أخرى وقد تمالك نفسه . وأستأنف الحديث . وانتهت مقابلتنا وبينما كنا فى طريقنا إلى زنزانتنا سألنى الضابط إن كنت قد عجبت لتصرف برام فيشر ولما رددت بالايجاب أخبرنى أن مولى توفيت فى حادث سيارة فى الاسبوع الماضى وكان برام يقود السيارة حينما إنحرف بها ليتفادى حيوانا فى الطريق وسقطت السيارة فى نهر وغرقت مولى . وصعقتنى الأنباء فقد كانت مولى امرأة مدهشة كريمة منكرة لذاتها وبدون تحيزات على الاطلاق وكانت له زوجة وزميلة ورفيقة وكان برام قد خبر المآسى فى حياته عند وفاة إبنه فى سن المراهقة من مرض السكر . وكان تصرف برام عندما سألته متمشيا مع شخصيته فقد كان صبورا لايحمل أصدقاءه آلامه ومشاكله . وكان كأفريكانى قد فرض عليه ضميره أن يرفض إرثه . ونبذه قومه . وأظهر

مستوى من الشجاعة والتضحية لانظير له . فقد كنت أنا أقاتل ضد الظلم وليس ضد قومى .

وفى خلال شهر استقرت حياتنا وفقا لنمط معين فى السجن . فإن حياة المعتقل روتينية تتماثل فيه الأيام حتى تختلط الأشهر والسنوات . وإن أى شىء يخرج عن القالب يقلق السلطات لأن الروتين علامة من علامات حسن الادارة فى السجن . وقد كانت الساعات من أى نوع ممنوعة وكنا نعتمد على الأجراس وصفارات السجانين وصيحاتهم لمعرفة الوقت . وكان من بين أوائل مافعلته هو أن أسجل تقويما على الحائط فإن الانسان اذا فقد قبضته على الوقت فقد قبضته على سلامة عقله .

إن التحدى الذى يقابل كل سجين وخاصة السجين السياسى هو المحافظة على ذاته فى السجن وأن يخرج من السجن دون أن يتضاءل وأن يحتفظ بل ويزيد من عقائده وأول مهمة لتحقيق ذلك هو أن يتعلم المرء كيف يبقى ولكى يتحقق ذلك فلابد للمرء أن يعرف هدف عدوه . فان السجن يهدف الى هزيمة معنويات الانسان وتقويض عزمه ولكى يتحقق ذلك تحاول السلطات استغلال كل ضعف وتحطيم كل دافع وأن تبطل مايدل على التفرد وذلك لكى تقضى على تلك الومضة التى تضفى على كل آدمى هويته .

وكان بقاؤنا يعتمد على فهم ماتحاول السلطة أن تفعله وتشارك ذلك الفهم كان من المستحيل أن يقاوم الفرد منفردا

كان خطأ السلطة الأكبر هو ابقاؤنا معا لأن ذلك قوى تصميمنا وهكذا عاون الأقوياء من هم أقل قوة وصرنا جميعا اقوياء وفي النهاية فقد كان علينا أن نخلق حياتنا داخل المعتقل . وكما اعترفت بذلك السلطات فقد كنا نحافظ نحن على النظام أكثر من السجانين .

كنت حينذاك مهمشا ولكننى كنت أعلم أننى لن أتخلى عن المعركة . كنت فى بيئة مختلفة وصغيرة حيث الجمهور هو أنفسنا وسجانونا . ولكنا نظرنا للمعركة داخل المعتقل كمصغر للمعركة ككل . فقد كانت هناك نفس العنصرية ونفس الاضطهاد . ولم يدر فى خلدى قط أننى لن أخرج من السجن يوما من الأيام وكنت أعلم أنه سيجىء اليوم الذى أسير فيه رجلا حرا تحت أشعة الشمس والعشب تحت قدمى فإننى أساسا انسان متفائل وجزء من هذا التفاؤل أن يبقى الانسان جزءا من رأسه في اتجاه الشمس وأن يحرك قدميه إلى الأمام . وكانت هناك لحظات عديدة مظلمة اختبرت فيها ثقتى بالانسان بقوة ولكننى لم أترك نفسى لليأس أبدا ، فقد كان ذلك يعنى الهزيمة والموت .

- ٦١ -

وكان يتم إيقاظنا فى كل صباح فى الخامسة والنصف على صيحات السجان وفنون جرسه النحاسى . وكانت الفترة مابين ايقاظنا وخروجنا من الزنزانات فى السابعة تقضى فى

تنظيف الزنزانة وطي الحصائر والبطاطين . ولم تكن هناك مياه جارية في الزنزانات بل كان هناك دلو من الحديد وكان له غطاء مقعر من الخزف يوضع به الماء المخصص للحلاقة وغسل أيدينا وأوجهنا .

وكان أول شيء نفعله بعد خروجنا من الزنزانة افراغ الدلو وغسله جيدا لمنع الرائحة الكريهة . وكان الشيء الوحيد المبهج في تلك اللحظات هي أنها كانت فرصة للتهامس بيننا .

وكان السجناء من القسم العام يحضرون إلينا طعام الافطار في الزنزانة وكان عبارة عن ثريد الذرة وبعد ذلك بأشهر كنا نتناول طعام الافطار في الفناء حيث كان يوضع في براميل زيت معدنية أما القهوة فكانت عبارة عن ذرة محمص مطحون مغلي في الماء . وكان الطعام عنصريا لأن الملونين والهنود كانوا يتناولون طعاما أفضل قليلا من طعامنا . وكان الطعام موضع احتجاجنا . وبعد ذلك كنا نعمل في تفتيت الحجارة حتى موعد الغداء الذي كان يتكون بالنسبة للأفارقة من ذرة مسلوقة أما الهنود والملونون فكانوا يتناولون نوعا من حساء الذرة بها بعض الخضروات أحيانا .

وبعد الغداء كنا نعمل حتى الرابعة ثم يسمح لنا بنصف ساعة للاغتسال وكانت المياه في الحمامات هي مياه البحر الباردة ، وبعد ذلك نتناول العشاء في الزنزانات وكان يتكون من ثريد الذرة وأحيانا يضاف إليه حبة من الجزر أو البنجر أو قطعة من الكرنب . وأحيانا كانت تضاف قطعة غضروفية من

اللحم إلى الثريد وكان الهنود والملونون يعطون ربع رغيف من الخبز من العشاء . ثم يتم غلق أبواب الزنزانات والممرات في الثامنة حيث كان من المفروض أن ننام . ولكن مرور الصوت في الممر كان ممتازا فكنا نحاول أن نتجاذب أطراف الحديث احيانا قبل النوم .

- ٦٢ -

وذات صباح وبعد أيام عديدة من لقائنا مع برام وجويل أخذنا الى المكتب الرئيسى واصطففنا هناك لأخذ بصماتنا وكان ذلك إجراء روتينيا فى السجن . وبينما كنا ننتظر لاحظت أحد السجانين ومعه كاميرا وبعد أخذ بصماتنا أمرنا كبير السجانين بالاصطفاف لالتقاط صورنا ولكننى أشرت على زملائى ألا يتحركوا وقلت للسجان إننى أود أن أرى الوثيقة الصادرة من مدير السجون والتى تخوله السلطة فى التقاط صورنا وكنت أعلم أن مثل تلك الوثيقة ضرورية . فهددنا بتوجيه الاتهام ضدنا إذا رفضنا أن يلتقط صورنا ولم يفلح تهديده . وكنا كقاعدة نرفض إلتقاط صورنا فى السجن لأن نشرها كان يعتبر نوعا من المهانة .

ولكن حدث أن فى صباح يوم بدل أن يعطى لنا السجان المطارق أعطانا إبرا وكومة من الملابس البالية وأمرنا أن نصلحها وكان الأمر قد استثار دهشتنا وفى وقت متأخر من الصباح فتحت البوابة الأمامية ودخل منها لمأمور السجن ومعه

زائران عرفناه أنهما مصور ومراسل صحيفة الديلى تلغراف اللندنية ولكننا فى شك من أمرهما لأنهما أتيا تحت رعاية الحكومة ولأن الصحيفة التى يمثلانها محافظة . وكان من مصلحة الحكومة ازاء الاهتمام العالمي بأمرنا ، أن تبرهن أنه لايساء معاملتنا وسار الصحفيان حول الفناء وبقينا ورؤسنا إلى أسفل مركزين على عملنا ثم جذبنى أحد الحراس من كتفى وطلب منى أن أتكلم وتحدثت مع المراسل حوالى عشرين دقيقة عن السجن وعن محاكمة ريفونيا بصراحة وعندما طلب التقاط صور ترددت ولكننى وافقت لعلمى أن الصور ستنشر بالخارج وربما تساعد القضية وطلبت أن يرافقنى سيسولو . ولم أر المقال أو أسمع عنه بعد ذلك .

وكانت القصص قد انتشرت فى الخارج عن طريق الصحافة عن الظروف غير الانسانية فى الجزيرة وعن التهجم علينا وتعذيبنا وسببت الحرج للحكومة وعلى سبيل الرد عليها أحضرت مجموعات لزيارتنا لتدحض تلك القصص .

وفى يوم أخبرنا أن السيد هاينتج ممثل جمعية المحامين الأمريكيين سيحضر لزيارتنا . وكان الأمريكيون مستجدون فى جنوب إفريقيا . وملأنى حب الاستطلاع لمقابلة ممثل جمعية قانونية مهيبة كتلك .

وفى يوم زيارته دعينا إلى الفناء ووصل الأمريكى برفقة جنرال ستاين مدير السجون الذى كان نادرا مايأتى إلى الجزيرة وكان شخصيا يسبب لنا الاضطهاد بما يغفله وليس

بما يفعله لأنه كان يترك للمسئولين حرية ممارسة وحشيتهم . واختارنى الآخرون للتحدث عنهم . وشكرت السيد هايتنج ولخصت شكاوينا وأولها أننا مسجونون سياسيون ولسنا مجرمين ويجب أن نعامل على هذا الأساس وعددت الشكاوى من الطعام وظروف المعيشة والعمل . ولكن هاينتج أخذ يقاطع حديثى . ولما تحدثت عن ساعات العمل الطويلة التى نقضيها فى مجهود جسدى قال إننا كمسجونين يجب أن نعمل وربما كنا أشخاصا كسالى - وذكر أن الظروف فى السجون الأمريكية أسوأ بكثير منها فى جزيرة روبن وأضاف إن الحكم علينا عادل وأننا محظوظون أن لم يصدر حكم بإعدامنا ، الأمر الذى استحققناه .

- ٦٣ -

تصنف السلطات المساجين فى جنوب إفريقيا .. أربع فئات أ ، ب ، ج ، د . وأرفع تلك التصنيفات أ ويمنحون بعض الميزات وكان جميع المساجين السياسيين يصنفون من فئة د وكانت الميزات تتضمن الزيارات والخطابات والفرصة لأن يشترى المسجون مأكولات وخلافه . وقد طالبنا اعتبارنا ضمن فئة أ ولكن كان التصنيف جزءا من نظام السجون . فإذا احتج سجين من فئة د على أنه يتسلم خطابا واحدا كل ستة شهور كانت الأجابة أن عليه أن يحسن سلوكه ليلحق بفئة ج ويتسلم خطابين كل ستة شهور . وكانت التصنيفات توازى عدد

سنوات الحكم فيبدأ السجين بفئة د ثم يرقى كل سنتين الى الفئة الأعلى وكانت السلطات تشهر ذلك النظام سلاحا ضد السجناء السياسيين وكانت اسهل وسيلة للارتقاء هى الاطاعة وعدم الشكوى .

وكان مسموحا لى كسجين من فئة د أن أتلقى زيارة واحدة وخطابا واحدا كل ستة أشهر وكانت الزيارات مقصورة على الأقرباء من الدرجة الأولى ـ ولكن السلطة أساءت استعمال هذه الحظر فكانت الخطابات تصل الى الجزيرة مرة كل شهر وأحيانا كان يمر ستة أشهر دون أن تصل خطابات وهكذا كان يحدث ألا نتسلم الخطاب المقرر كل ستة أشهر وكان يحدث حينما يصل الخطاب أن تحتجزه السلطات وتخبرنى أننى لن أتسلم الخطاب بدون أى توضيح وفى تلك اللحظات كنت أحتاج لكل ماتعلمته من صبر كى لا أنفجر وأن أحتج من خلال القنوات الرسمية .

وخلال الستة أشهر الأولى تلقيت خطابا من وينى ولكن الرقابة كانت قد سودت بالحبر معظمه حتى لم يبق سوى التحيات . وبعد ذلك عدلت السلطات عن استخدام الحبر حينما اكتشفت أنه يمكن غسله وقراءة ماتحته واستخدمت الأمواس لقطع فقرات كاملة وحيث أن الخطابات كانت تكتب على صفحتى الورقة فكان ذلك يعنى قطع أجزاء كاملة كانت الرقابة تسمح بها . وكانت قراءة الخطاب من الرقابة تستغرق شهرا أحيانا

وبعد ثلاثة أشهر من وجودنا على الجزيرة تلقيت أنا ووولتر أول زيارة لنا . وكانت السلطات مثلا تتصل بزوجة السجين قائلين بها إن لديها تصريحا بزيارة زوجها اليوم التالى وبذلك كانت تصبح الزيارات مستحيلة . فإذا كانت الزوجة رتبت أمر الزيارة مقدما تعمدت السلطات تأخير تسليم التصريح حتى تقلع الطائرة . وبما أن معظم أسر السجناء كانت تعيش فى أماكن نائية عن الكيب ولم يكونوا يمتلكون من الأموال مايكفى أصبحت زيارة الجزيرة أمرا يفوق بكثير استطاعتهم . ولذا قضى رجال سنوات طويلة دون رؤية زوجاتهم وبعضهم لم يروهن إطلاقا . وكانت الزيارة تتم فى غرفة بدون نوافذ أقيمت بها أكشاك ضيقة بها مساحات صغيرة من الزجاج يحوى عددا صغيرا من الثقوب للتحدث من خلالها ولذا كان الحديث يستلزم استعمال الصوت العالى جدا لكى يسمع الطرف الآخر . وبعد ذلك قامت السلطات بوضع مكبرات صوت . واستدعيت أنا ووولتر الى غرفة الزيارة . ورأيت وجه وينى يملأ الزجاج وكانت دائما ترتدى ملابس أنيقة جديدة لزيارتى ولكن ذلك لم يخف أثر المعاناة من وجهها ثم اكتشفت بعد ذلك أن أمرا جديدا « بالحظر » قد صدر ضدها وأنها قد فقدت وظيفتها فى مركز رعاية الطفولة نتيجة لذلك وأنه تم تفتيش مكتبها لاعتقاد السلطات أنها تتصل بى . وكانت وينى مولعة بوظيفتها لصلتها بالمعركة فقد كانت تساعد على إيجاد آباء لتبنى الأطفال وإيجاد فرص عمل للعاطلين ومساعدات طبية لمن ليس لديهم تأمينات .

وأثناء الزيارة كان يقف خلفها سجانان ويقف خلفى ثلاثة وكانت مهمتهم التخويف إلى جانب الرقابة . وكانت التعليمات تنص على أن المحادثة يجب تكون بالانجليزية أو الأفريكانية وإلا أنهى السجان المحادثة وكان يجب أيضا أن تكون عن أمور الاسرة فقط . وطمأنت وينى عن نفسى وسألتها عن كل أفراد الأسرة وفجأة سمعت السجان ينهى المقابلة . وبينما كنت اسير فى طريقى إلى الزنزانة استعدت ماتحدثنا عنه وكنت أفعل ذلك واستحضر صورتها خلال الأسابيع والشهور التى تلت فقد كنت أعلم أننى لن أراها قبل ستة أشهر على الأقل . وكان لى ألا أراها لمدة عامين بعد ذلك .

- ٦٤ -

وذات صباح .. وبدلا من أن نسير إلى الفناء أمرنا بالسير الى الخارج ودخول شاحنة مغطاة وبعد دقائق خرجنا ووجدت أننا فى المكان الذى رأيته أول شىء حين أتيت الجزيرة عام ١٩٦٢ وكان ذلك هو محاجر الجير . وقابلنا هناك الضابط المسئول الكولونيل وسيلز وقال لنا أن العمل الذى سيعهد لنا به سيستمر ستة أشهر بعدها يعهد إلينا بواجبات طفيفة . ولم يكن توقيته صحيحا إذ استمر عملنا فى المحاجر ثلاثة عشر عاما .

وسلمنا فئوسا ومجارف ثم أعطينا تعليمات أولية عن تنجيم الجير . فالجير نفسه يوجد مدفونا تحت طبقات من الصخر

يجب تكسيرها بالفأس ثم يستخرج الجير بالمجرفة . كان ذلك العمل أصعب كثيرا من العمل فى الفناء وكنا فى الأيام الأولى ننام من شدة الاجهاد بعد العشاء مباشرة وكان ذلك فى الرابعة والنصف ولا نستيقظ إلا فى اليوم التالى .

وفسرنا ذلك التغيير على أن طريقة السلطات لاخبارنا أننا لانختلف عن السجناء العاديين الذين كانوا يعملون فى محاجر الجزيرة فقد كانت ضمن المحاولات لسحق معنوياتنا . لكن الأسابيع الأولى فى المحجر كان لها أثر عكس ذلك أنه بالرغم من أيادينا الدامية الممتلئة بثورا فقد زادت قوتنا . وكنت أنا أفضل تواجدى فى أحضان الطبيعة مع الحشائش والأشجار أرقب الطيور وأشعر بالريح وهى تهب من البحر .

وخلال أيام أصبحنا نمشى إلى المحاجر بدلا من ركوب الشاحنة . وكانت العشرين دقيقة التى تستغرقها الرحلة فرصة لنا لرؤية الجزيرة وكان بإمكاننا رؤية الأدغال الكثيفة والأشجار الطويلة التي تحيط بنزلنا وأن نشتم النباتات والزهور . ورغم أن عملنا فى المحاجر كان يهدف لإشعارنا أننا لانختلف عن السجناء الآخرين فقد كانت السلطات تعاملنا كالمصابين بالبرص وكانت تأمر المساجين الآخرين بالاختفاء فى الأحراش إذا حدث ومررنا بمجموعة منهم أثناء سيرنا . غير أننا كنا نلمح من طرف أعيننا أحيانا بعضهم وهم يرفعون قبضتهم بتحية المؤتمر .

وقرب المحجر كان الطريق يتفرع وكان السجناء العاديون

يسلكون الجهة اليمنى فى اتجاه محاجر الحجارة . وقد أصبح التقاء الطريق ذلك نقطة هامة للاتصال فيما بعد وحيث كان الطريق يتفرع كان بإمكاننا أن نرى الأحراش والكوخ الأبيض الصغير الذى كان يعيش فيه روبرت سوبوكوى . وكانت مدة الحكم على سوبوكوى قد انتهت عام ١٩٦٣ فقد كان يحق لوزير العدل أن يبقى السجناء دون اتهامهم لأجل غير مسمى وهذا مافعلوه مع سوبوكوى الذى كان يعيش نصف حياة فى الجزيرة فقد كان رجلا حرا محروما من حريته .

وكنا نبدأ العمل فى الصباح .. وقبل الظهر مباشرة كنا نعبىء الجير فى عربات يد نجرها إلى الشاحنة التى تنقل الجير بعيدا .

وكانت الصفارة تنطلق فى منتصف النهار فنزل أسفل التل حيث كنا نجد البراميل المحتوية على الذرة المسلوقة وكانت طيور النورس تحلق أثناء أكلنا وهى تصرخ ثم تنقض وتدور حولنا وأحيانا كان يسبب روثها إفساد طعامنا . ثم كنا نعمل مرة أخرى حتى الرابعة وننقل الجير الى الشاحنة . وبنهاية اليوم كانت أجسادنا ووجوهنا تكون مغطاة بطبقة سميكة من الرماد الأبيض نحاول جاهدين ازالتها بمجرد عودتنا إلى الزنزانات .

وكان الضوء فى المحاجر أسوأ من الحرارة لأن أشعة الشمس كانت تنعكس فى أعينا من الجير نفسه وكانت تتسبب فى انهمار الدموع من أعينن . وقد طالبنا بنظارات شمسية

فرفضت السلطات حيث أن التعليمات لم تكن تسمح حتى بالنظارات الطبية . وبعد ثلاث سنوات ونصف من المطالبة قرر طبيب متعاطف ضرورة النظارات وإلا فقدنا بصرنا . وأن علينا أن نبتاعها نحن .

وبالنسبة لنا فقد كانت الحملة لتحسين الأوضاع فى المعتقل جزءا من الحملة ضد الأبارتايد فى الخارج . فقد كنا نحارب عدم العدالة أين وجدناها وكان علينا أن نحاربها لنحتفظ بآدميتنا .

وبعد ذلك بوقت قصير التحق بنا عدد آخر من أعضاء M.K البارزين الذين كان قد ألقى القبض عليهم فى يوليو ١٩٦٤ وحوكموا وأدينوا وكان من بينهم ماك مهاراج ولالو تشيبا وويلتن مكاوايي الذى كان فى محاكمة الخيانة وترك طليقا عن طريق الخطأ وفر إلى الخارج وتلقى التدريب العسكرى وأصبح القائد العام لـ M.K بعد محاكمة ريفونيا ، وكذلك إيدى دانيالز الذى أصبح أحد أحسن أصدقائى فى المعتقل .

ولكى توازن السلطات وجود الحلفاء السياسيين وضعت بيننا عددا من المساجين العتاه المحكوم عليهم فى قضايا قتل واغتصاب وسرقة بالاكراه والذين كانوا يثيرون الرعب بين السجناء وكان دورهم كعملاء هو إثارة الشغب واغتصاب طعامنا وتعويق أى مناقشات سياسية كنا نحاولها . وكنت أرى فى هؤلاء مادة خاما يمكن تغييرها . وهذا ماحدث مثلا بالنسبة

لأحدهم الذى التحق بالمؤتمر فيما بعد وقدم خدمات جليلة في تهريب اشياء من وإلى المعتقل .

وذات يوم سمعنا أن سجانا في المحجر ضرب بوجارت قائد عصابة السجناء العتاه ضربا وحشيا أدى إلى احداث جرح عميق وكدمات فى وجهه وطلب بوجارت منى المساعدة . وكنا دائما نبحث عن موقف نتخذه ضد السلطات ونعلم أن تقريرا عن الضرب يمكن إثارته مع قيادة السجون وكنت قد علمت قبل ذلك بفترة وجيزة أن رجلا من P.A.C قد ضرب أيضا . وبصفتى محاميا كتبت خطابا إلى مدير السجون نيابة عن المعتدى عليه ووجهت بالمسئولين فى السجن الذين أنكروا . لكنى صممت على نقل السجان ورفض الطلب بداية ولكن بعد ذلك بقليل تم نقله . وشجعتنى تلك الواقعة فطلبت مقابلة رئيس السجن الذى قال لى أنه حقق فى القضية وثبت بطلان الادعاء ولكنى تمسكت بأن يجرى تحقيقا ولكن الضابط أخبرنى أن المدعى ينكر أنه ضرب وواجهنى ببوجارت الذى كانت تغطى وجهه الضمادات وأنكر أنه ضرب ومنذ ذلك الوقت صرت أطالب المسجون المعتدى عليه بتقرير خطى موقع عليه قبل تولى قضيته .

وذات يوم فى صيف ١٩٦٥ لاحظنا تحسنا غير عادى فى الطعام . وفى اليوم التالى تلقى بعض الأفراد قمصانا جديدة

وأخذ السجانون يعاملوننا باحترام . وبعد ذلك علمنا أن رجال الصليب الأحمر سيصلون فى اليوم التالى .

وفى السنوات الأولى لم يكن أحد يستمع إلى شكاوينا أو يستجيب لها سوى الصليب الأحمر . وقبل ذلك بقليل تقدمنا بقائمة شكاوى الى مدير السجون وقدمناها إلى كبير السجانين الذى لم يكن يريد تسلمها بحجة خرقنا للتعليمات لأننا استخدمنا الورق فى غير كتابة الخطابات .

وفى يوم الزيارة استدعيت إلى المكتب للقاء ممثل الصليب الأحمر وكان حينذاك ولسنوات قليلة بعدها هو السيد سن مدير السجون فى بلده الأصلى السويد ثم هاجر الى روديسيا . وعكس جميع المقابلات لم تكن تلك مراقبة وكتب مذكرة تفصيلية بجميع الشكاوى والمظالم وشكرنى لما قلته ـ وشكوت من ملبسنا وقلت إننا نطالب بسراويل طويلة وجوارب وملابس داخلية وشكوت من الطعام والزيارات والخطابات والدراسة والتدريب والأشغال الشاقة وتصرفات السجانين . وتقدمت بطلبات كنت أعلم أن السلطات لن تنفذها كأن ننقل الى سجون قرب منازلنا .

وبعد الزيارة بقليل تحسنت الملابس بأن صرفت لنا سراويل طويلة . ولكن سن لم يكن بالشخص التقدمى وكانت سنوات إقامته فى روديسيا قد عودته على التفرقة العنصرية . فمثلا قبل عودتى إلى الزنزانة ذكرت أنه لايصرف خبزا للأفارقة وكان رده إن الخبز مضرر جدا بالانسان وأن الذرة

أفضل وبعد سنوات صارت الهيئة ترسل أشخاصا أكثر ليبرالية ولعبت دورا هاما : فقد كانت تمد زوجاتنا وأقاربنا بالأموال التى كانت تساعدهم على زيارة الجزيرة .

وبعد شهور قليلة من وصولنا أعلنت السلطات أن على الراغبين فى الدراسة التقدم بطلباتهم . وتقدم معظم السجناء وسمح لهم وكانت الدولة تشعر بالثقة فمنحنا الاذن ، وندمت على ذلك فيما بعد . ومنحت أنا الاذن بمواصلة الدراسة العليا وسجل السجناء للدراسة الجامعية وللحصول على شهادات المدارس . لكن تم منع دراسة السياسة والتاريخ العسكرى ، كما منعنا من تلقى أموال من أسرنا ومعنى ذلك أن الدراسة كانت مقصورة على من لديهم نقود ومنعنا حتى من إعارة كتبنا لزملائنا . وكنت أدرس أنا تبع جامعة لندن مما نجم عنه تمكنى من دراسة كتب مثيرة غير التى كانت تدرس بجنوب أفريقيا لكن السلطات كانت تصادر الكثير منها .

وتقدمنا بشكوى من عدم وجود ومقاعد وسلمناها لمندوب الصليب الأحمر وفى النهاية قامت السلطات بتثبيت لوحات خشبية فى الجدران كنا ندرس عليها ونحن وقوف وشكونا مرات حتى منحتنا الدولة مقاعد بدون أظهر وقللت من ارتفاع اللوحات بعد حوالى ستة أشهر .

وذات يوم سبت بعد عودتى من التدريبات التى كان يسمح لنا بها لمدة نصف ساعة يوميا لاحظت أن أحد السجانين وكان قد أصبح ودودا نحونا قد ترك إحدى الصحف على

المقعد . وكانت الصحف ضمن قائمة الممنوعات وأغلى ماكنا نتمناه وكنا نتوق إلى الأنباء ولكن السلطات لم تكن تريد لنا أن نعرف شيئا قد يرفع معنوياتنا . وفيما بعد تمكنا من الحصول على الصحف بطرقنا . وكان الحراس في المحجر يغلقون سندوتشاتهم بأوراق صحف ثم يلقونها في القمامة فكنا نغافلهم ونحصل عليها . وكانت الرشوة هى الطريقة الأخرى حيث كان كثير من السجانين فى حاجة الى نقود ولما كان تداول الصحف التى كنا نحصل عليها بتلك الطريقة شديد الخطورة فقد كان كاثرادا ، وفيما بعد ماك ماهراج يقومان بقراءتها وتلخيص مايخصنا فى اوراق صغيرة نتداولها ويتم تهريبها بعد ذلك إلى القسم العام .

وحينما رأيت الصحيفة على المقعد تركت زنزانتى وسرت إلى نهاية الممر ونظرت فى الاتجاهين ثم إختطفت الصحيفة وجلست مستغرقا فى قراءتها لدرجة أننى لم أسمع صوت الأقدام القادمة وفتحت الزنزانة ودخل الضابط والسجانون وأتهمت بحيازة ممنوعات وتم استدعاء القاضى وحكم على بالحبس الانفرادى ثلاثة أيام وفى الحبس الانفرادى كان يتم حرمان الفرد من الرفقة والتدريب والطعام حيث كان عبارة عن ماء أرز ثلاث مرات يوميا .

وكما ذكرت فإننى كنت أجد أن الحبس الانفرادى أبغض مظاهر المعتقل فلا توجد بداية أو نهاية فليس هناك سوى عقل الانسان الذى يبدأ فى خداعه ويبدأ الفرد فى التساؤل عما اذا كان شىء بعينه حقيقة أم خيالا ويبدأ فى مساءلة قراراته

وأهمية تضحياته . أما جسم الانسان فيتكيف مع أى ظروف قاسية كما أن المعتقدات الراسخة هى سر البقاء فى ظروف الحرمان .

وكان الحبس الانفرادى روتينا فى السنوات الأولى نعاقب به على نظرة مخالفة أو عدم الوقوف إذا دخل الحارس الزنزانة . وكان بعض أعضاء الـ P.A.C الذين يتحدون الأوامر من أجل التحدى ويقضون أوقاتا طويلة فى الحبس الانفرادى .

- ٦٦ -

إن أهم فرد فى حياة المعتقل ليس الوزير أو مدير السجون أو مأمور المعتقل لكنه السجان الذى يعمل فى القسم الذى به السجن - فإن شعرت بالبرد وكتبت إلى الوزير طالبا بطانية لن تتلق ردا أما مدير السجون فيقول أن ذلك ضد التعليمات وسيرد مأمور المعتقل قائلا أنه اذا أعطاك فسيعطى الآخرين . ولكنك اذا التجأت إلى سجان أنت على علاقة طيبة به فسيذهب الى المخزن ويحضرها ذلك .

وكنت أحاول دائما أن أبقى على علاقات طيبة مع السجانين فإن العدواة كانت تعتبر هزيمة للنفس وكانت سياسة المؤتمر قائمة على محاولة تعليم الأفراد حتى الأعداء منهم . ولكن أن تكون ودودا مع سجان لم يكن أمرا هينا لأنهم عموما كانوا يجدون فكرة التأدب مع رجل أسود كريهة .

وسهل اجتذاب السجانين المتعاطفين أحد أصعب مهامنا في جزيرة روبن ، ألا وهى الاتصال . فقد كنا نعتبر الاتصال بالأقسام التى يتواجد بها رجالنا من المساجين العاديين أمرا واجبا لأنه كان يهمنا كسياسيين أن تقوى منظمتنا داخل السجن وخارجه كما أن الاتصال كان أساسيا لتنسيق احتجاجاتنا وشكاوانا ولأن دخول المعتقل والخروج منه كان يحدث كثيرا بين هؤلاء السجناء فكانوا يحصلون لنا على معلومات عما يحدث بالمنظمة فى الخارج وعن أخبار أصدقائنا وعائلاتنا .

وكان الاتصال بين الأقسام المختلفة خرقا للأنظمة وأمكنا تخطى ذلك الحظر عن طريق الرجال الذين كانوا يحملون إلينا الطعام وكانوا من الأقسام العامة وشكلنا لجنة من كاثرادا وماهراجا وتشيبا وآخرين للقيام بمهام تلك الاتصالات السرية .

لجأنا أولا إلى استعمال صناديق الثقاب التى كان يلقى بها الحراس لكتابة رسائل بأحرف دقيقة ووضعها فى الصناديق بعد إضافة قاع آخر لكل منها . وبعد ذلك اتفقنا مع رفاق من القسم العام ممن يعملون بالمطبخ على وضع الرسائل والمذكرات مغلفة بالبلاستيك أسفل براميل الطعام وكنا نرسل الردود بنفس الطريقة بالاضافة الى أننا كنا أيضا نستعمل المراحيض العامة التى كان يشاركنا استعمالها سجناء القسم العام وكنا نحث رفاقنا السياسيين فى القسم العام على

العصيان لكى يرسلوا إلى الحبس الانفرادى ويحضرون إلينا الرسائل ويتسلمون رسائلنا من المراحيض .

وكنا نكتب رسائلنا بطريقة يصعب قراءتها أو فك ألغازها إن أمسك بها . فكنا أحيانا نستعمل الحليب في الكتابة التى كانت تتضح اذا رشت بالسائل المطهر الذى كنا نستعمله فى تنظيف الزنزانات . كما كنا نستعمل ورق « التواليت » وكان وسيلة محببة لسهولة تخبئته وحمله وبعد أن اكتشفت أمره السلطات قللت الكمية المسموح بها بدرجة كبيرة . وكانت أفضل وأسهل طريقة هى دخول المستشفى الوحيد فى الجزيرة حيث كان يصعب فصل المساجين بالقسم العام عن المساجين السياسيين وكان يمكن هناك تبادل المعلومات عن المنظمات السياسية والاضرابات والتباطؤ وغير ذلك .

أما الاتصال بالعالم الخارجى فكان يتم عن طريق السجناء الذين يكملون مدة العقوبة ويفرج عنهم وعن طريق الزائرين . فكان المفرج عنهم يحملون خطابات فى أمتعتهم أما الأمر بالنسبة للزوار فكان صعبا عدا المحامين الذين لم يكن يسمح بتواجد السجانين فى حضورهم وكنا أحيانا نسلمهم خطابات كما أننا كنا ننقل المعلومات لهم عن طريق كتابتها كما كنا نفعل أثناء محاكمة ريفونيا لأن الغرفة كان بها أجهزة تصنت .

وعن طريق مذكرة مخبأة فى براميل الطعام علمنا أن مساجين القسم العام سيقومون بالاضراب عن الطعام لسوء الأحوال ولم تذكر المذكرة الزمن أو المدة ولكننا قررنا مشاركتهم .

وخلال اليوم الأول قدمت لنا المقادير العادية أما في اليوم الثانى فكانت المقادير أكبر مع اضافة الخضروات وفى اليوم الثالث كان هناك لحم طازج زادت كميته فى اليوم الرابع . وسمعنا أن المساجين فى القسم العام بدأوا يفقدون قوتهم وكان يتم نقلهم للمستشفى على عربات يد .

واستدعيت إلى مكتب الرئيس لمقابلة الكولونيل ويسيلس وكان زملائى يعلمون أن السلطات ستحاول التأثير في لأدعو لانهاء الاضراب وطلب ويسيلس معرفة إسباب اضرابنا فأجبته أننا نرى أن اضرابا لتحسين الأحوال هو امتداد للنضال ضد الأبارتايد وأضفت أن معركتنا فى القسمين واحدة . فانهى المقابلة . وفى اليوم التالى علمنا بتطور غير عادى فى الأحداث فقد قاطع السجانون طعامهم ورفضوا الذهاب إلى الكاميرا . ولم يكونوا مضربين تأييدا ولكنهم رأوا أنه إذا كنا نحن نستطيع الاضراب فلماذا لايضربون هم للمطالبة بطعام أفضل وبتحسين وسائل معيشتهم . وكان اضرابان فى وقت واحد امرا كبيرا بالنسبة لسلطات السجن قوت أمورها مع السجانين وطلبت من مسجونى القسم العام ارسال ثلاثة مندوبين للمفاوضات . فأعلن المسجونون هناك انتصارهم وأوقفوا الاضراب وتبعناهم .

وكنت أرى أن مجرد الاضراب عن الطعام داخل السجن أمر غير واقعى فلكى يكون فعالا يجب أن يعلم به العالم الخارجى وكانت الاتصالات شبه مستحيلة فى تلك السنوات .

وبالنسبة لى كان الاضراب عن الطعام أمرا سلبيا يضر بصحة أجسادنا الضعيفة واستدعاء للموت . وكنت دائما أفضل أنواع المقاومة الأكثر إيجابية ونضالا كالاضراب عن العمل والتباطؤ ورفض أعمال النظافة وتلك أعمال تضر بالسلطات ولانعاقب بها أنفسنا ولكن اقتراحاتى لم تلق تأييدا وكان متى اتخذ القرار أؤيده تماما .

- ٦٧ -

وفى منتصف الاضراب عن الطعام فى يوليو ١٩٦٦ زارتنى زوجتى للمرة الثانية وكانت قد تعرضت لمضايقات جمة منذ زيارتها عام ١٩٦٤ واضطهدت الشرطة أخاها وأخواتها وحاولت السلطات منع أى فرد من عائلتها العيش معها وكنت أعرف بعض التفاصيل لأننى كنت عند عودتى من المحجر أحيانا أجد قصاصات بها أنباء عن وينى وقد وضعها أحد السجانين على سريرى .

وعملت السلطات على وضع العراقيل فى سبيل زيارات وينى بفرض الحظر عليها الأمر الذى كان يمنعها من السفر وبعد ذلك أخبرتها السلطة أنها تستطيع زيارتى فقط إذا كانت تحمل تصريح مرور وكانت وينى ضمن من احتجبن على التصاريح فى الخمسينات فكان رفضها طبيعيا ولكنى اعتقدت أن رؤيتنا أحدنا الآخر أهم من مقاومة الاجراءات التافهة ووافقت على حمل التصريح . وكانت اجراءات زيارتها طويلة

ومعقدة فقد كان محظورا عليها السفر سوى بالطائرة مما كان يكلفها كثيرا وكان عليها التوقيع على وثائق مكتب شرطة كيب تاون عند وصولها وقبل رحيلها هذا عدا مضايقات أخرى كثيرة .

وكانت مدة الزيارة الثانية نصف ساعة وكان هناك الكثير الذى نود مناقشته وتكلمنا عن تعليم الأولاد وعن صحة والدتى المتدهورة وعن أمورنا الحالية وكانت ويني قد ألحقت طفلتينا بمدرسة هندسة وقامت الدولة بمضايقة المدير باعتبار ذلك خرقا لقانون التعليم لأن الطفلتين افريقيتين وقررنا إرسال الطفلتين للدراسة فى سوازيلاند رغم ماكان يعنيه هذا لوينى . وسألتها أيضا عن أمور تتعلق بها وبالمؤتمر عن طريق استعمال اسماء مستعارة متفق عليها .

وبعد الزيارة علمت أن وينى قد ألقى القبض عليها وأفرج عنها بكفالة لعدم ذهابها إلى مركز الشرطة بعد زيارتى ورفضها تسجيل عنواننا وحكم عليها بالسجن سنة مع وقف التنفيذ مما ترتب عليه فقدانها لوظيفتها كاخصائية اجتماعية للمرة الثانية .

وعملت الدولة على اختلاق المضايقات لى بطريقة ظنوا معها أننى لا أستطيع المقاومة فبناء على تحريض من وزير العدل اقترحت جمعية القانونيين للترانسفال شطب اسمى من قائمة المحامين المشتغلين على أساس إدانتى فى محاكمة ريفونيا . وأبلغت السلطات أننى سأتقدم بالطعن وأننى

سأجهز دفاعي بنفسي وطلبت من موظفي السجن أن أعفي من العمل في المحجر وأن تجهز زنزانتي بمنضدة وكرسي مناسبين وضوء للقراءة لأكتب المذكرة كما طلبت أن أنقل لبريتوريا لكي أستطيع استعارة الكتب المناسبة من المكتبة القانونية وكان الرد المبدئي أن أقوم بتوكيل محام عني ولكنني تقدمت إلى مسجل المحكمة العليا طالبا السجلات والكتب والوثائق التي احتاجها وطلبت قائمة بأسماء شهود الدولة وملخصات شهاداتهم وتلقيت ردا يطلبون فيه معرفة طبيعة دفاعي لكي يتمكنوا من ارسال ما طلب ورددت قائلا أن الدفاع سيعرفونه حين تنظر القضية .

واستمر تبادل سيل الخطابات بيني وبين المحكمة العليا والمحامي العام الذي كان سيمثل الجمعية القانونية ورفضت جميع طلباتي ولكنني واصلت الكتابة إليهم لعدة شهور وبعدها ، وبدون مقدمات أسقطوا الموضوع وأمكنني قراءة ردود الفعل الرسمية لمعارضتي لأعمال الجمعية القانونية لأننا في ذلك الوقت كنا نتلقى صحيفة يومية بانتظام فقد تمكن ماك ماهراج من مصادقة الحارس الليلي وهو شخص هادىء كبير السن بعد أن طلب منه الحارس مساعدته في دخول مسابقة كتابة مقال لصحيفة نظير وعد بجائزة وبعد اسبوعين حضر الحارس وهو مبتهج وقال لماك أن إسمه في القائمة النهائية للمسابقة وطلب منه كتابة مقال آخر ووعده بدجاجة مطهية في المقابل وقال له ماك أنه سيفكر في الأمر وفي المساء قال للحارس أنه سيكتب المقال لقاء علبة سجائر وفي اليوم التالي

أخبر ماك وولتر أن لديه بصمات الرجل على علبة السجائر وبإمكانه أن يبتزه ليحضر لنا صحفا ورغم تحفظاتنا على الوسيلة التى اتبعها ماك فلم نعارض . ونجحت الحيلة وبعد ذلك ولمدة ستة أشهر وحتى تم نقله كان الرجل يهرب إلينا الصحيفة يوميا وكنت أنا وماك نلخص الأنباء فى ورقة صغيرة ونتداولها .

وفى عام ١٩٦٦ بدأ الحراس في المحجر يخففون من رقابتهم فكان باستطاعتنا أن نتحدث كما شئنا وأخذنا نكون مجموعات صغيرة ونقضى اليوم فى التحدث فى جميع المواضيع .

وفى المعتقل يصبح لدى الانسان وقت للتفكير الأمر الذى لايتأتى للمرء وهو فى خضم المعركة وكنا كثيرا ماندخل فى مساجلات سياسية وكان أحد المواضيع الذى استغرق بحثه وقتا طويلا هو العلاقة بين المؤتمر والحزب الشيوعى . وكان البعض وخاصة جنود الـM.K. شيء واحد وكانت هناك بعض الرئاسات في المؤتمر مثل جوفان ميبيكى وهارى جوالا الذين تبنوا نفس النظرة . فإن الحزب لم يكن يتواجد كشيء منفصل كما كان الحال في الخارج ولم تكن نظرتى لتلك القضية قد تغيرت على مدى السنوات أى أننى كنت أرى أن المؤتمر هو حركة جماهيرية يرحب بكل من كان له نفس الأهداف وبمرور الوقت أصبح الحوار لاذعا واقترح البعض أن نحسم ذلك الأمر بأن نكتب الى المثقفين من أعضاء

المؤتمر فى لوساكا وأعددنا وثيقة من اثنتين وعشرين صفحة مع خطاب منى وأرسلناها الى لوساكا مع ماكان ذلك يحوى من المخاطرة . وفى النهاية أكدت لوساكا على فصل المؤتمر عن الحزب وانتهت المناقشة .

وكانت هناك حوارات أخرى كثيرة اجتماعية وتراثية وسياسية . وكانت إحدى نقاط الحوار الأخرى هى إن كانت قيادة المؤتمر يجب قصرها على الطبقة العاملة فقد كان البعض يرى أنه بما أن المؤتمر حركة جماهيرية تعتمد عضويته الى حد كبير على العمال فإن القيادة يجب أن تكون من بين صفوفهم . وكانت وجهة نظرى أن قصر القيادة على طبقة واحدة مناف للديمقراطية وأن ذلك يعنى أن معظم قادة المؤتمر مثل لوثولى وموسيس كوتانى ودادوو غير مؤهلين للقيادة .

- ٦٨ -

كان الربيع قد ترك أثره على السلطات فخففت من قبضتها الحديدية كما خف التوتر بين السجانين والسجناء . لكن فترة الهدوء لم تدم طويلا ففى أحد أيام سبتمبر ١٩٦٦ همس إلينا أحد مساجين القسم العام أثناء تناول الغداء قائلا إن فيرويرد قد توفى ونظرنا الى بعضنا البعض غير مصدقين . ولم نكن ندرى كيف توفى وقد سمعنا بعد ذلك أن شخصا أبيض يعمل مراسلا فى البرلمان قد طعنه ولم نعرف دوافعه .

وكان فيرويرد قد برهن أنه المنظر الأساسى ومهندس بنية الأبارتايد فقد تبنى خلق البانتوستانات ونظام تعليم البانتو .

وفى اليوم التالى كان من الواضح أن السجانين قد علموا بالأمر وبدأوا يعكسون شعورهم بالغضب علينا وتبلور التوتر مرة أخرى وأخذت السلطات تفرض أنظمتها بقسوة . وكانت السلطات تعتقد أننا على علاقة سرية بالمنظمات الوطنية بالخارج . وكان انفجار أعمال حرب العصابات الناجحة ضد شرطة جنوب افريقيا فى ناميبيا بواسطة منظمة سوابو وهى حليف المؤتمر قد أفقد السلطات تماسكها . وتجددت الأجواء الصارمة التى كانت سائدة عند وصولنا الى الجزيرة . وتم استبدال الحارس المسالم بضابط متشدد شرير يدعى فان رينسبرج وكان قد طار إلى الجزيرة بعد أربع وعشرين ساعة من الاغتيال وكان اسمه معروفا ومقترنا بين المساجين بالوحشية . وكانت وظيفته تنحصر فى اتعاس حياتنا الأمر الذى كان يفعله بحرارة .

وخلال الأشهر التالية كان رينسبرج يتهم واحدا منا يوميا بالعصيان أو التهرب . وكان كل صباح يناقش زملاءه عمن سيوجه إليه الاتهام بعد الظهيرة . وكانت سياسته سياسة تخويف انتقائى وكان الاتهام يوجه للشخص عشوائيا . وبدأت المحكمة الادارية للمعتقل تعمل ساعات إضافية . وردا على ذلك كونّا لجنة قانونية منى وفيكيل بام وماك ماهاراج لتوجيه الاستشارة القانونية للرفاق فى تعاملاتهم مع المحكمة الادارية .

وكان فان رينسبرج حقودا فى عظائم الامور وصغائرها . فكان مثلا يختار وقت تناولنا الغداء ليتبول إلى جوار طعامنا وكانت إحدى الوسائل التى أمكننا الانتقام بها منه هو جعله موضع تفكهنا واستهزائنا .

وذات صباح فى بداية عام ١٩٦٧ وبينما كنا نستعد للذهاب إلى المحجر أخبرنا فان رينسبرج أن أمرا صدر من الماجور كيلرمان بمنعنا من الحديث أثناء السير والعمل . وكان الحديث هو الشىء الوحيد الذى يجعل العمل فى المحجر محتملا وأثار هذا استياءنا وغضبنا . وتمكن قادة المؤتمر والمنظمات السياسية الأخرى من تكوين خطة وبينما كنا نناقشها ظهر ماجور كيليرمان بنفسه وكان ذلك أمرا غير عادى وأعلن بشىء من الاحراج أن أمره كان خطأ وأننا باستطاعتنا الحديث على أن نفعل ذلك فى هدوء وقفل راجعا . وانتابنا الشك . وطوال ذلك اليوم لم يجبرنا أحد على العمل الشاق وعمل فان رينسبرج جهده ليتودد إلينا وقال أنه كدليل على حسن نيته فسيسحب الاتهامات التى كان يزمع توجيهها إلينا . وبعد ظهر ذلك اليوم إكتشفت أن حاجياتى قد نقلت إلى الزنزانة الخلفية رقم ١٨ بدلا من الزنزانة الأمامية التى كنت أحتلها . وحدست أن هناك أمرا مرتقبا وأنه قد تم نقلى لكى لا أكون أول المتحدثين وأنه سيبدأ بالاستماع الى شكاوى المسجونين الآخرين وحينما يأتى دورى سيكون ميعاد اعلان أن الوقت قد انتهى . وقررنا أن يقول الجميع أن سجين الزنزانة رقم ١٨ هو الذى سيتحدث باسمهم . وفى الصباح

التالى تم اخبارنا بأن نذهب الى المحجر ثم ظهر الماجور كيليرمان ليقول أن السيدة هيلين سوزمان ممثلة الحزب التقدمى وعضو المعارضة الوحيد فى البرلمان ، وربما العضو الوحيد هناك الذى كان يهتم بمعاناة المسجونين السياسيين . وحضرت يرافقها جنرال ستاين مدير السجون وسارت الخطة كما رسمناها ووصلت الى باب زنزانتى وكانت القصص قد انتشرت عن جزيرة روبن وحضرت بنفسها لتقصى الحقائق .

ولم أتحفظ فيما قلت رغم وجود ستاين وكيليرمان وأخبرتها برغبتها فى تحسين طعامنا وملبسنا وتوفير احتياجات الدراسة ووسائل المعلومات مثل الصحف وأشياء أخرى كثيرة وأخبرتها عن قسوة السجانين وبالذات فان رينسبرج وسجلت سوزمان ماقلت ووعدتنى أن ترفع الأمر إلى وزير العدل ثم قامت بتفتيش الزنزانات وتحدثت مع آخرين .

وكان فان رينسبرج منزعجا أثناء حديثى مع سوزمان كما أخبرنى كاثرادا واعتذر عن تصرفاته السابقة ولكن فى اليوم التالى عاد سيرته الأولى وأعلن أنه سيعيد اتهاماته لنا . وفيما بعد علمنا أن سوزمان قد رفعت شكوانا الى البرلمان وبعد أسابيع قليلة تم نقل فان رينسبرج .

لم أتخيل فى يوم أن المعركة ستكون قصيرة أو سهلة وكانت السنوات الأولى فى المعتقل سنوات صعبة بالنسبة

للمنظمة فى الخارج وبالنسبة لنا فى الداخل . وكانت معظم الأليات السرية قد تم تدميرها بعد ريفونيا وتم اكتشاف هياكلنا واقتلاعها . وكان الذين لم يتم القبض عليهم يحاولون بصعوبة تجنب العدو وكان كل الأعضاء القياديين تقريبا إما فى المعتقل أو فى المنفى .

وفى السنوات التى تلت ريفونيا أخذت البعثة الخارجية للمؤتمر التى كانت فى الأصل مسئولة عن جمع الأموال والمهام الديبلوماسية وتوفير التدريب بزمام الأمور كلها . فلم تعمد فقط إلى خلق منظمة فى المنفى بل تولت المهمة الأصعب وهى تنشيط النظام السرى للمؤتمر داخل جنوب افريقيا .

أما الدولة فقد ازدادت قوتها كما ازدادت قوة الشرطة وأصبحت أساليبها أكثر عنفا ووسائلها أكثر صقلا وكبرت قوة دفاع جنوب إفريقيا واستقرت الأحوال الاقتصادية وكانت الحليفتان القويتان لجنوب إفريقيا ، بريطانيا والولايات المتحدة ، ترغبان فى إبقاء الأمور على ماهى عليه .

ومن ناحية أخرى نمت المقاومة للامبريالية . فمنذ منتصف الستينيات وحتى نهايتها انتشرت المعارك فى جميع الجزء الجنوبى من افريقيا وكانت سوابو تقوم بهجماتها فى ناميبيا وكذلك اشتدت حرب العصابات فى موزمبيق وإنجولا . أما فى زيمبابوى ، أو روديسيا سابقا ، فكانت المعركة تتصاعد ضد حكم الأقلية البيضاء وكانت قوة دفاع جنوب إفريقيا تدعم

حكومة إيان سميث البيضاء بينما اعتبر المؤتمر المعركة فى زيمبابوى امتدادا للمعركة فى قلب الوطن . وفى ١٩٦٧ علمنا أن المؤتمر أنشأ تحالفا بينه وبين اتحاد شعب زيمبابوى (زابو) .

وفى تلك السنة عبرت مجموعة من جنود M.K التى تلقت تدريبها فى تانزانيا وزامبيا نهر زامبيرى إلى روديسيا استعدادا للتسلل الى البلاد وكان قد أطلق على تلك المجموعة فرقة لوثولى . وفى أغسطس وبينما كانت تتحرك تجاه الجنوب ترافقها فرق من الزابو اكتشفها الجيش الروديسى ونشبت معارك بين الطرفين أسفرت عن خسائر فى الأرواح لكل منهما . وفى النهاية تمت هزيمة قواتنا وأسر البعض وأنسحب الآخرون الى بوتشوالاند التى أصبحت فيما بعد بوتسوانا . وبداية ١٩٦٨ دخلت فرقة أكبر من جنود المؤتمر روديسيا وحاربت جيش روديسيا وشرطة جنوب افريقيا المتمركزة هناك .

ولم نعلم عن ذلك حتى التحق بنا بعض من حاربوا من الرجال ورغم أنهم لم يحرروا النصر فقد احتفينا بهدوء لمجرد أن كوادر الـM.K قد قامت بالاشتباك مع العدو فى معركة بطريقتهم .

وقبل أن نعلم عن المعارك فى الخارج كنا قد علمنا بوفاة الرئيس لوثولى فى منزله فى يوليو ١٩٦٧ فى ظروف غريبة فقد صدمه قطار قرب مزرعته التى كان كثيرا مايتمشى بها . وقد

تركت وفاة لوثولى فراغا فى المنظمة فقد كان حائزا على جائزة نوبل وكان شخصية دولية متميزة احترمه البيض والسود . ووجدت المنظمة فى أوليفر تامبو الذى كان نائب الرئيس العام خليفة للرئيس . ومثل لوثولى كان أوليفر متحدثا ماهرا واثقا ومتواضعا وكان يجسد فكر لوثولى .

أقمنا صلاة وتأبينا للرئيس فى قسم ب ودعونا كل من يريد التحدث وحينما جاء دور نيفيل الكسندر وهو عضو فى حركة الوحدة ليتحدث كان من الواضح أنه يفعل ذلك من أجل دفن لوثولى وليس لاطرائه فقد إتهمه بالعمالة للبيض قبل جائزة نوبل . وكانت كلمة نيفيل الخاطئة ضد مناخ التعاون بين مختلف المنظمات الذى حاولنا خلقه فى الجزيرة .

وكنت قد رأيت في تواجدنا بالجزيرة فرحة لبريق الخلاف بين P.A.C والمؤتمر ليكون ذلك سابقة لتوحيدهما فى معركة التحرير ككل . ولكن منذ البداية كانت العلاقة بين المنظمتين علاقة تنافش أكثر منها تعاون وحين وصولنا رأى بعض أعضاء الـP.A.C تواجدنا على الجزيرة انتهاكا لحضورهم هناك .

ولى عام ١٩٦٢ كان عدد أعضاء الـ P.A.C يفوق بكثير عدد أعضاء المؤتمر ولكن فى عام ١٩٦٧ كان الوضع قد انعكس وعمل ذلك على صلابة أعضاء P.A.C فى مواقفهم وتحادثت مع زيف موثوينج عضو لجنتهم التنفيذية وكان نقاشه ينصب على أن P.A.C أكثر نضالية من المؤتمر وأن

علينا أن نتبع قيادتهم فى المعتقل وفى عام ١٩٦٧ أجريت محادثات مع سلبى نجندانى حول موضوع الوحدة الذى كان يعارضه بشدة خارج المعتقل ولكن وجدت أن حدته قد خفت وكتب كل منا خطابا الى منظمته فى القسم العام نؤيد الوحدة . وكان هناك تعاون بين المؤتمر وكلارانس ماكيتو الذى أصبح بعد ذلك رئيسا لـP.A.C وكان قبل ذلك عضوا فى تنظيم شباب المؤتمر ولكن بعد الافراج عنه خلفه جون يوكيلا فى قيادة المنظمة فى الجزيرة وتعثرت المحادثات .

وكون المؤتمر منظمته الداخلية فيما عرف بالقيادة العليا التى كانت تتكون من الأعضاء القياديين الموجودين فى الجزيرة وكانوا سابقا أعضاء فى اللجنة التنفيذية مثل وولتر سيسولو وجوفان مبيكى وريموند مهلابا وعملت أنا رئيسا للجنة .

ومنذ البداية قررنا أن تحاول القيادة التأثير فى سياسة المؤتمر خارج الجزيرة كما كنا نصدر قراراتنا بشأن الأمور التى نعلمها مثل شكوى المعتقلين والبريد والطعام وكنا أحيانا نعقد اجتماعات عامة . لكن نظرا لخطورة مثل تلك الاجتماعات التى كانت تضم أعضاء من مختلف المنظمات . ونظرا لتصادف كون أعضاء القيادة من الاكسهوسا ضممنا عضوا دوريا إلى الاعضاء الأربعة من خارج الاكسهوسا . ولم أكن أسيطر على القيادة بل على العكس فإن عددا من اقتراحاتى تم رفضها .

في عام ١٩٦٨ زارتني والدتي ولم أكن قد رأيتها منذ نهاية المحاكمة وقد بدت وقد أصابتها الشيخوخة وكانت قد جاءت من ترانسكي برفقة ابني مكباثو وابنتي مكازيوى وشقيقتي ميبل ولأن عدد زوارى كان أربعة وكانوا قد جاءوا من مسافة بعيدة فقد سمحت السلطات باستمرار الزيارة لمدة خمس وأربعين دقيقة .

وكان ابني وابنتي قد نضجا وشعرت بالدهشة والفخر أما أمي فكانت قد نحفت مما سبب لي القلق على صحتها . فقط أختي ميبل بدت وكأنها لم تتغير .

وأبديت رغبتي لابني وابنتي أن يواصلا تعليمهما وتحدثت لميبل عن الأهل في ترانسكي ومر الوقت وشعرت أنها آخر مرة أشاهد فيها والدتي وبعد أسابيع تلقيت برقية من إبني يخبرني فيها بوفاتها وقد أضاف الى حزني عدم استطاعتي المشاركة في تشييعها .

ودعاني موتها الى مساءلة نفسي عن صحة قرارى في أن أضع أمور شعبي في المقام الأولى على حساب رفاهية أسرتي . ولم تستطع والدتي ان تفهم لمدة طويلة التزامي بالمعركة . ولم تطلب أسرتي أو ترد التورط في المعركة لكن تورطي أنزل بهم العقاب . ولكني توصلت إلى نفس الاجابة فإنه من الصعب أن يتجاهل الانسان في جنوب أفريقيا

احتياجات شعبه حتى ولو كان ذلك على حساب أسرته فقد أخذت قرارى وأيدت هى اختيارى فى النهاية . ولكن ذلك لم يقلل شعورى بالأسى على عدم قدرتى أن أجعل حياتها أكثر راحة وأن أشيعها بعد وفاتها .

وفى ١٢ مايو ١٩٦٩ احتجزت الشرطة وينى طبقا لقانون الارهاب وكان ذلك جزءا من اجراءات صارمة شملت ارجاء البلاد واحتجز إثرها العشرات من بينهم شقيقة وينى . وتم وضع وينى فى الحبس الانفرادى فى سجن بريتوريا ولم يسمح لها حتى بالكفالة أو بالزيارات وأخذوا وعلى مدى شهور فى استجوابها بوحشية ولما تم توجيه التهمة إليها هى واثنين وعشرين آخرين وهى تهمة محاولة إحياء المؤتمر أرسلت تعليماتى أن يتولى الدفاع عنها جويل كارلسون المعارض للابارتايد وفيما بعد التحق بالدفاع جورج بيزوس وآرثر تشاسكالسون من أعضاء فريق ريفونيا . وبعد سبعة عشر شهرا من اعتقالها أسقطت الدولة التهمة ضدها وتم الافراج عنها وطلبت السماح بزيارتى ولكن طلبها رفض . وفى تلك الأيام تلقيت برقية من ابنى الأصغر ماكجاتو يخبرنى فيها أن ابنى الأكبر الذى كنا ندعوه ثيمبى قد قتل فى حادث سيارة وكان وقتها فى الحادية والعشرين وأبا لطفلين . وليس لدىَّ من الكلمات ما أستطيع به التعبير عما شعرت به تجاه تلك المأساة التى جاءت على قمة أحزانى على والدتى وقلقى على وينى .

ولم توافق السلطات على طلبى لحضور جنازة ولدى وكل ماسمحوا به هو أن أرسل خطابا لوالدته ايفيلين أشاركها فيه الأحزان .

الجزء التاسع

جزيرة روبى
بداية الأمل

- ٧١ -

كان التحسن فى المعتقل لايأخذ شكلا اضطراديا بل كان يتوقف وينتكس . ولكن الأحوال قد تحسنت بالفعل فقد كسبنا عدة معارك صغيرة أدت الى تغيير الجو فى الجزيرة . وبعد رحيل فان رينسبرج أصبحت حياتنا محتملة .

وكنا قد أعطينا سراويل طويلة فى جلال السنوات الأولى فى ١٩٦٩ تسلم كل الملابس الخاصة به وسمح لنا أن نغسلها بأنفسنا وسمح لنا بالخروج للفناء أثناء نهاية الاسبوع ، كما سمح للمساجين الأفارقة بالخبز أحيانا مع وجبة الافطار . وصرفت لنا ألعاب مختلفة وأوراق لعب ولم يعد أحد يقاطع أحاديثنا فى المخجر ونجحنا فى تحييد السجانين السيئين وصادقنا المعتدلين كما أصبحنا قادرين على عقد الاجتماعات .

كما كانت مناسبة الكريسماس هى اليوم الوحيد الذى تبدى فيه السلطات الارادة الحسنة نحو الرجال فلم نكن نذهب

للمحاجر وكان يسمح لنا بشراء كميات قليلة من الحلوى ويصرف لنا قدح إضافى من القهوة مع العشاء . وكان يسمح لنا فى أيام الكريسماس باقامة حفلات غنائية كنا نقدم فيها مسرحيات ونغنى فيها التراتيل الدينية والأغانى التراثية والشعبية التي كنا نضمنها بعض أغانى الاحتجاج الأمر الذى كان تتجاهله السلطات أو ربما أنهم كانوا لايفهمون الكلمات . كما كنا نقيم مسابقات فى الشطرنج والطاولة وألعاب الورق .

كان بعض السجانين يبدأون معنا الاحاديث . ولم أكن أنا آخذ المبادرة ولكن ان حادثونى أجبتهم . وكانوا يسألوننى عما أريد وقد أوتيت مايكفينى فكنت أبدأ فى شرح سياسة المؤتمر لهم . وفى عام ١٩٦٩ وصل سجان شاب بدا وكأنه مهتم بأن يتعرف على وكنت قد سمعت شائعة مؤداها أن أشخاصا فى الخارج كانوا يرتبون أمر هروبى وأنهم سوف يسربون أحد الحراس إلى الجزيرة لمساعدتى . وأسر الى ذلك الحارس أنه الشخص المعنى .

وبدأ يخبرنى بالخطة وكانت تتلخص فى أنه سوف يقوم بتخدير الحراس المناوبين عند الفنارة لكى يرسو قارب عند الشاطىء وأنه سيمدنى بمفتاح أستعمله للخروج من المبنى ولقاء القارب وبعد ذلك أرتدى زى الغطس وأنا فى القارب وأسبح حتى ميناء كيب تاون حيث يصطحبنى أشخاص الى مطار محلى وأهرب خارج البلاد .

وتشاورت مع وولتر وقررنا أن ذلك الشخص غير أهل للثقة .

ولم اوضح له أننى لن أقوم بالعملية لكنى لم أفعل أى شىء لانجاز الخطة ولابد أنه فهم ما أعتقدته لأنه سريعا ما انتقل من الجزيرة وقد تبين لى فيما بعد أنه عضو فى مخابرات جنوب افريقيا وكانت الخطة أن أنجح فى الهرب من الجزيرة لكى يتم قتلى بواسطة رجال الأمن وأنا أحاول الهرب من المطار .

وفى نهاية عام ١٩٧٠ قررت السلطات استبدال الجو المتراخى فى الجزيرة وعين الكولونيل بيت بادنهورست مأمورا للجزيرة وكانت له سمعة ضابط وحش سلطوى فى جميع خدمات السجون . وكان كلما تم تعيين مأمور جديد أطلب مقابلته لشرح موقفنا وأيضا لتقييم شخصه ولما تقدمت بطلبى هذه المرة كان الجواب هو الرفض .

وألغى المأمور الجديد عددا من القواعد المزايا بشأن الدراسة ووقت الفراغ وكان من الواضح أنه يعتزم الغاء المزايا التى اكتسبناها على مدى السنوات . وتم نقل السجانين القدامى من الجزيرة واستبدالهم بأشخاص من انتقائه يصغرون الآخرين سنا ويفوقونهم فظاظة . وكانت وظيفتهم تنحصر فى مضايقتنا وهدم معنوياتنا . وخلال أيام من تعيينه تم تفتيش الزنزانات وصودرت الكتب والصحف وحجبت الوجبات بدون انذار وكان يجرى دفع الاشخاص بخشونة فى الطريق الى المحجر .

وكان بادنهورست يجيب بالنفى على كل شىء واذا طلب

أحد رؤية محاميه كانت النتيجة الحبس الانفرادى . وألغيت الزيارات وتدهور الطعام وزادت الرقابة .

وبعد اسبوع من تعيينه وبينما كنا نعمل فى المحجر وصل بسيارته وخرج منها ووقف يرقبنا عن بعد وتوقفنا للنظر إلى مأمورنا الجديد فنادانى ووجه الى عبارة بذيئة لم أتقبلها فتقدمت نحوه لكن قبل أن أقترب منه ركب سيارته ومضى . ثم أرسل رسالة بالراديو إلى موظفيه حيث حضروا بالشاحنة ونقلونا إلى قسمنا وحينما وصلنا إلى الفناء أمرنا بالوقوف وعندئذ ظهر بادنهورست يتمشى أمامنا وأخذ يوجه إلينا العبارات البذئية ثم قال لنا أنه شعر بالاشمئزاز لما راه من تكاسلنا فى المحجر وعلى ذلك قرر أن يدنى تصنيفاتنا درجة وكان معظمنا قد ارتفع الى تصنيف جـ أو أعلى وكان لايسمح بالدراسة للمساجين من تصنيف جـ . وكانت السلطات قد ندمت على المساح لنا بالدراسة وبدا بادنهورست مصمما على إصلاح ذلك الخطأ .

- ٧٤ -

فى مايو ٧١ أحضر عدد من رجال منظمة سوابو الى الحبس الانفرادى وكان على رأسهم أنديمبا تويتو مؤسس سوابو . وعلمنا أنهم بدأوا اضرابا عن الطعام فقررنا أن نلحق بهم مما سبب غضب بادنهورست والسلطات الذين رأوا فى ذلك عصيانا غير مقبول .

وفى وقت متأخر من ٢٨ مايو استيقظنا على صوت صيحات وطرقات عنيفة على أبواب الزنزانات وأخذ السجانون يأمروننا بالاستيقاظ ثم بخلع ملابسنا والاصطفاف على الحائط وكان الليل قارس البرودة ولمدة ساعة وبينما كنا نقف عاريين مرتجفين أخذوا فى تفتيش زنزاناتنا واحدة واحدة . وبنهاية الساعة أصابت جوفان آلام حادة فى صدره وانهار . وأخاف ذلك الحراس وأمرونا بالعودة الى الزنزانات .

وكان التفتيش عذرا ليمارس به رئيس السجانين نزعاته السادية . وفى اليوم التالى اكتشفنا أن السجانين قد قاموا بضرب بعض مسجونى القسم العام . وبعد ذلك تهجموا على تويفو الذى قام بدوره بالدفاع عن نفسه وأوقع السجان الذى هاجمه وتمت معاقبته بقسوة لذلك .

وقررنا ألا ندع الأمور تسوء كلية تحت إدارة بادنهورست وقمنا بتهريب رسائل إلى رجالنا فى الخارج للقيام باضطرابات لطرده وفى نفس الوقت قررنا تكوين لجنة لمقابلة بادنهورست واستغرقت المناقشة شهورا حتى اتخذ قرار التكوين وكنت أنا ووولتر نمثل المؤتمر وكان لكل من التنظيمات الأخرى ممثلون وأثناء المقابلة هددناه بالتوقف عن العمل والتباطؤ والاضراب إن لم يعدل أساليبه ورد إلينا الامتيازات التى سحبها منا وقال إن سيدرس الموضوع واعتبرنا ذلك انتصارا .

وبعد أسابيع قليلة عرفنا أن زيارة هامة قد اقترب موعدها إذ سمح لنا أن نحتمى من الأمطار حينما هطلت على المحجر .

وفى اليوم التالى علمنا أن ثلاثة قضاة سيقدمون إلى الجزيرة واخترت متحدثا عن الباقين .

وفى تلك الأثناء علمت أن سجينا من القسم العام قد تم ضربه بعنف من قبل الحارس وكان القضاة الثلاثة من قسم الكيب تاون من المحكمة العليا وكان يرافقهم مدير السجون وبادنهورست وقابلتهم فى المكان الذى نعمل فيه .

وتكلمت فى حضرتهم عن الهجمات التى حدثت فى القسم العام وعن وقائع الضرب الآثمة ومحاولة تغطية الجريمة وحاول بادنهورست تكذيبى وتهديدى ولكن القضاة اعتقدوا فى صحة ما أقوله . ثم عددت شكاوانا من نظام التغذية والعمل والدراسة . وعقب الزيارة لاحظنا أن يدى بادنهورست كبلت وعقب ثلاثة أشهر تم نقله .

وقبل أيام من مغادرة بادنهورست كان مدير السجون فى زيارة للجزيرة واستدعانى الى المكتب الرئيسى ليعرف شكاوانا وعددت مطالبنا وبعد انتهائى من كلمتى رد بادنهورست مباشرة قائلا إنه سيغادر الجزيرة وأضاف أن يرجو لنا حظا موفقا . وأصابتنى الدهشة . فقد قال تلك الكلمات كإنسان وأظهر جانبا من نفسه لم نره من قبل فشكرته .

وأعلن أن الكولونيل ويليميز سيخلف بادنهورست وطلبت مقابلته ووجدت أنه وإن لم يكن تقدميا فقد كان مجاملا ومعقولا .

ورحل السجانون الذين كان بدنهورست قد أحضرهم معه واستعدنا تصرفاتنا المعتادة فى المحجر ورغم أن ويليمز كان معقولا فقد صعق عندما رأى أننا نقضى وقتا فى الحديث أكثر منه فى العمل . فاستدعانى إلى مكتبه وطلب منى مساعدته فى فرض النظام فأخبرته أن لطلبه شرعيته ولكن قبل أن أستجيب له فعلى أن أجتمع بكل الرجال وكان مثل ذلك الاجتماع محظورا فطلب منى بعض الوقت لدراسة طلبى وبعد أيام سمح لى بالاجتماع والتقينا جميعا بعد الظهيرة فى الفناء دون حراس وأخبرتهم بما قاله ويليمز واتفقنا أن نظهر على الأقل وكأننا نعمل وأفعل بالسرعة التى تناسبنا ولم نسمع شكوى مرة أخرى .

وفى الفترة الاولى من عمل ويليمز مابين ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ حضرت أعداد كبيرة من أسرى M.K وكانوا قد شهدوا المعركة وكانت لديهم معلومات عن حالة الحركة فى المنفى . وكنت متشوقا أن أسمع عن أوليفر وعن معسكرات التدريب وعن نجاح وفشل الـM.K

وكان هؤلاء الرجال نضاليين إلى أقصى درجة ولم يتقبلوا

حياة السجن بسهولة وكان من قيادات هؤلاء الرجال جيمى إبريل وهو ضابط M.K تلقى تدريبه تحت قيادة جو سلوفو وحارب العدو فى روديسيا .

وكانت الـ M.K تواصل تسريب رجالها إلى البلاد بوثائق مزورة وكان جيمى أحد هؤلاء ، وقد ألقى القبض عليه .

وروى جيمى لنا الكثير عن أنباء الحرب وانتحيت به جانبا وسألته عن مشاكل الـ M.K وبما أننى مؤسسها وأول قائد عام لها فكان جيمى أكثر صراحة معى وروى لى قصصا عن عدم رضا فى المعسكرات وعن سوء المعاملة من جانب الضباط وطلبت منه ألا يحادث أحدا فى الموضوع وتمكنت من تهريب خطاب إلى أوليفر طالبا منه أن يجرى الاصلاحات فى المعسكرات .

وكانت نضالية هؤلاء الرجال شديدة وعدم تقبلهم لقيود وحياة السجن تسبب لنا المتاعب .

- ٧٥ -

وذات صباح وبدلا من أن نسير إلى المحجر أمرنا أن نصعد مرة أخرى إلى الشاحنة وسارت بنا خمس عشرة دقيقة ورأينا المحيط أمامنا والشواطىء الصخرية وعلى بعد كانت هناك أبراج كيب تاون الزجاجية وقال لنا الضابط أن علينا أن نجمع طحالب بحرية وكانت طويلة ولزجة وكان بعضها يصل

طوله الى ثمانية أقدام ويزن ثلاثين رطلا . وبعد جمع الأعشاب أنتظمنا في صفوف ثم حملناها في الشاحنة بعد جفافها وقيل لنا أنه سيتم تصديرها إلى اليابان لتستعمل كاسمدة وفي ذلك اليوم لم يعد العمل متعبا ولكننا في الاسابيع والأشهر التي تلت وجدناه مجهدا ولكن ذلك كان معينا لما كان يوفره جمال المنظر من متعة .

- ٧٦ -

وفي أوساط المقاومة كانت تعرف جزيرة روبن بالجامعة ولم يكن ذلك فقط لأننا كنا نتعلم من الكتب أو لأن المسجونين درسوا هناك الانجليزية والأفريكانية والفن والجغرافيا والرياضيات ، أو لأن أشخاصا مثل بيلي نير وأحمد كاثرادا ومايك وينجاكي وإيدي دانيالز حصلوا على عدة درجات جامعية ، ولكنها كانت تسمى الجامعة لأننا كنا نتعلم من أحدنا الآخر فقد كنا نحن هيئة تدريس أنفسنا ومنهجنا الدراسي وكنا نميز بين الدراسات الاكاديمية الرسمية وبين الدراسات السياسية غير الرسمية .

فحينما كان يصل الشباب الى الجزيرة كنا نعلم أنهم لايعرفون سوى القليل عن تاريخ المؤتمر وكان وولتر أعظم مؤرخ للمؤتمر يبدأ في اخبارهم عن نشأة المنظمة الأولى ، وتدريجيا تحول ذلك التاريخ غير الرسمي إلى منهج دراسي تم وضعه بواسطة القيادة العليا وكان يعرف بمنهج أ وكان

يستغرق عامين من المحاضرات ، وكان المنهج يتضمن مقررا يقوم كاثرادا بتدريسه يسمى تاريخ النضال الهندى وآخر يسمى تاريخ نضال الملونين بينما قام ماك بتدريس تاريخ الماركسية .

وشمل المقرر الذى درسه وولتر تاريخ المؤتمر منذ عام ١٩١٢ الى الوقت الحالى وكان بالنسبة لكثير من الشباب التعليم السياسى الوحيد الذى تلقوه .

وبدأنا نوعا من الدراسة بالمراسلة مع مسجونى القسم العام الذين علموا عن البرنامج التعليمى ورغبوا فى الالتحاق به وكان القادة يسربون اليهم المحاضرات . وكان ذلك مفيدا لنا ولهم فهؤلاء الرجال لم يكونوا قد تلقوا سوى القليل من التعليم ولكنهم كانوا على دراسة واسعة بمشاق الحياة وكانت اهتماماتهم عملية أكثر منها فلسفية وكانت أسئلتهم تجبرنا على التفكير الجدى فى آرائنا .

وقمت أنا بتدريس مقرر فى الاقتصاد السياسى حاولت فيه تتبع تطور الانسان الاقتصادى ، منذ المجتمعات الجماعية وحتى الاقطاع ثم الرأسمالية والاشتراكية ، وكنت أحاول أن أجيب على الأسئلة بدلا من أن ألقى المحاضرات ، وكنت منحازا للاشتراكية التى كنت أجد فيها أكثر مراحل الحياة الاقتصادية التى طورها الانسان تقدما .

كما استمر عملى القانونى .. فكنت أقضى الساعات العديدة كل إسبوع أعد استئنافات قانونية للسجناء من جميع

الطوائف السياسية . وكان كثير من الرجال فى القسم العام قد حكم عليهم بالسجن لأنه لم تكن لديهم الفرصة للاستشارة القانونية وسعى إلىَّ كثير منهم لعمل استئنافات . وكان فى ذلك إبقاء على حيوية مهاراتى القانونية من جهة ومن جهة أخرى فقد تم إلغاء بعض الأحكام أو تقليلها فى عدد قليل من القضايا وكانت تلك انتصارات مرضية .

- ٧٧ -

لم يتوقف اضطهاد السلطات لزوجتى ، ففى عام ١٩٧٢ ركل رجال الشرطة باب المنزل وحطموه وقذفوا قوالب الطوب من النافذة وأطلقوا النيران على البوابة ، وفى عام ١٩٧٤ اتهمت وينى بخرق أوامر الحظر التى كانت منعت بمقتضاها من استقبال أى زائرين سوى أطفالها وطبيبها . وكانت وقتها تعمل فى مكتب محام واحضر صديق البنتين إليها أثناء ساعة الغداء فاتهمت بخرق الحظر وحكم عليها بالسجن ستة أشهر فى سجن ولاية أورانج وكتبت إلى وينى قائلة أن تجربتها فى السجن عملت على تدعيم التزامها بالمعركة وكانت السلطات تسمح لزيندزى وزينى بزيارتها كل يوم أحد .

وكانت قوانين السجن فى جزيرة روبن لاتسمح للأطفال مابين عامين وستة عشر عاما بالزيارة . وفى عام ١٩٧٥ كانت زيندزى قد أتمت الخامسة عشر وقامت والدتها بتغيير وثائق ميلادها لتثبت أنها أتمت السادسة عشر وقدمت لها على

تصريح بالزيارة تمت الموافقة عليه .

ولم أكن قد رأيت زيندزى منذ أن كانت فى الثالثة وكانت هى تعرفنى من الصور أكثر من الذاكرة . وفى يوم زيارتها اعتنيت بمظهرى أكثر من المعتاد . وعندما رأيتها سعدت أنها قد أصبحت امرأة جميلة تشبه والدتها إلى حد كبير . وبدت زيندزى مترددة فى البداية فلم يكن من السهل عليها أن ترى والدها الذى لم تعرفه أبدا والذى بدا وأنه لاينتمى إليها ولكن إلى الناس عامة . ولابد أنها كانت فى أعماقها تكن الاستياء والغضب نحو والدها الذى ظل غائبا طوال مدة طفولتها ومراهقتها . وتبينت فورا أنها شابة نارية ثورية مثل والدتها .

وأثناء تلك الزيارة علمت من وينى بمأساة وفاة فيشر من مرض السرطان بعد الافراج عنه من السجن بقليل . وقد تأثرت بعمق لوفاته . فرغم أن الحكومة لم تترك بصماتها على جثته فإن قسوة معاملتها التى لاهوادة فيها هى التى تسببت فى مرضه الأخير الذى أدى إلى وفاته المبكرة . وحتى بعد وفاته استمرت الحكومة فى مطاردته وصادرت رماد جثته بعد حرقها .

وكان برام صفائيا . فبعد محاكمة ريفونيا قرر أنه يستطيع خدمة المعركة على الوجه الأفضل بالعمل السرى بالمعيشة كخارج على القانون . فقد كان يؤرقه أن الرجال الذين تولى الدفاع عنهم كانوا يرسلون إلى المعتقلات بينما كان يعيش هو حرا . وأثناء المحاكمة نصحته ألا يسلك ذلك الطريق مؤكدا

أنه يخدم المعركة أفضل فى قاعة المحكمة حيث يستطيع الناس رؤية أفريكانيا وابن رئيس قضاة يقاتل من أجل حقوق المغبونين ولكنه لم يكن ليستطيع أن يرى الأخرين يعانون بينما يظل هو حرا . وكالقائد الذى يقاتل جنبا إلى جنب مع جنوده لم يرد أن يطلب من الآخرين أن يقدموا تضحية يتورع هو عنها . والتحق برام بالعمل السرى حينما أفرج عنه بكفالة . وقبض عليه عام ١٩٦٥ وحكم عليه بالسجن مدى الحياة للتآمر على ارتكاب الأعمال التخريبية . وحاولت الكتابة إليه ولكن القوانين كانت تمنع ذلك . وعند إصابته بالسرطان قامت الصحافة بحملة للافراج عنه على أسس إنسانية واستجابت الحكومة وبعد الافراج عنه وبينما كان يقيم مع أخيه حيث حددت إقامته توفى .

وبطرق عديدة فإن برام فيشر حفيد رئيس وزراء مستعمرة نهر أورانج قدم أكبر التضحيات على الاطلاق . فمهما كانت معاناتي فى بحثى عن الحرية فقد كنت أستمد القوة من كونى مناضلا مع ومن أجل شعبى . أما برام فكان رجلا حرا ناضل ضد شعبه من أجل أن يضمن الحرية للآخرين .

وبعد شهر من الزيارة تلقيت رسالة من وينى تقول أن طلبها الأخير للزيارة قد رفض بحجة أنى لا أريد رؤيتها وحددت فورا موعدا مع الضابط برينس الذى كان مأمورا للسجن والذى لم يكن مهذبا . فحينما شرحت له الأمر مؤكدا أنه يجب السماح لزوجتى بزيارتى علق قائلا أن زوجتى تبحث عن الدعاية ولما أظهرت استيائى من تعليقه ووصف زوجتى بأوصاف بذئية ولم

أحتمل ونهضت من مقعدى وتحركت نحوه فأخذ يتقهقر ولكننى تحكمت فى نفسي وبدلا من التهجم عليه بقبضتى هاجمته بالكلمات . وختمت قائلا إنه إنسان وضيع بدون شرف وأنه إن تكرر منه ذلك فلن أمنع نفسى كما فعلت ذلك اليوم واندفعت خارج المكتب وشعرت أنه قد تسبب فى أن أنتهك السيطرة على نفسى وشعرت بالهزيمة .

وفى اليوم التالى اصطحبنى سجانان إلى مكتب المأمور وحينما وصلت أحاط بى حوالى ستة سجانون مسلحون . وكان هناك برينس وضابط الاتهام فى المعتقل وقال لى المدعى أنه يتهمنى بإهانة وتهديد مأمور السجن وناولنى أمر الاستدعاء وسألنى إن كان لدىَّ ما أقوله فأجبت بامكانه التحدث مع مُحاميى .

وقررت أن أقوم بإعداد قضية مضادة اتهم فيها كل الأفراد بدءا بالمأمور وحتى وزير العدل بسوء التصرف وأقاضى نظام السجون على أساس أنه مؤسسة عنصرية تسعى إلى استمرار سيادة البيض واجعل من القضية قضية عامة .

وطلبت من جورج بيزرس ان يمثلنى وقلت للسلطات أننى سأقوم باعطائه تعليمات مكتوبة لأننى أعتقد بوجود اجهزة تصنت فى غرفة الاستشارة فرفض طلبى لأن السلطات كانت تخشى أن يسرب جورج بيانى المكتوب الى الصحافة وكانت تلك هى بالفعل استراتيجيتنا . وكانوا أيضا يخشون أن استغل جورج كقناة توصيل الى اوليفر فى لوساكا وقد كنت قد

استخدمت جورج لغرض كهذا من قبل ولكن الوثيقة الحالية لم يكن بها شيء من هذا القبيل . وحدد موعد لعقد محكمة التأديب بالجزيرة وقبل الجلسة بيوم واحد أبلغت أن محاميي سيصل في اليوم التالي وأنه بإمكاني إعطاؤه البيان مكتوبا وتشاورت مع جورج قبل انعقاد الجلسة ، لكن ما إن بدأت الجلسة حتى أعلن المدعي سحب القضية ضدي . وبينما نظرت وجورج باستغراب وكنت أستعد لوضع أوراقي في الحقيبة وصل ضابط اتهام بأمر جديد وأشار الى بياني المكتوب وأمر أن أعطيه إياه . ولما طلبت من المدعي أن يخبره أن تلك وثائق تحميها حقوق المحامي وأن من حقي ألا أسلمها رد قائلا أن القضية الأولي قد انتهت وأن المحكمة غير منعقدة وأن ضابط الاتهام هو الشخص الوحيد في الغرفة الذي لديه أية سلطة وكان من الواضح أن السلطات سحبت القضية للحصول على الوثيقة التي لم يكن بها شيء ليسوا على علم به .

ورغم ماكان يبدو من استحالة الهرب فلم أستبعد الفكرة طيلة وجودي في الجزيرة وكان ماك ماهاراب وإيدي دانيالز وكلاهما شجاع وواسع الحيلة دائما التفكير ومناقشة الخطط والاحتمالات .

وكان أحد الرفاق قد تمكن من صنع مفتاح يفتح معظم غرف قسمنا حيث استعملناه لدخول بعض المخازن ولكننا لم نستعمله للخروج من القسم . فقد كان البحر هو الخندق المائي الذي لايمكن اجتيازه .

وفى عام ١٩٧٤ عبر ماك البحر إلى كيب تاون لزيارة طبيب الأسنان وكان متعاطفا حيث أن أحد أقرباءه كان مسجونا سياسيا ولذلك فقد رفض أن يعالج ماك حتى يفك قيده . وقد لاحظ ماك أن غرفة الانتظار بها نافذة قريبة من الأرض تطل على شارع جانبى وخططت أنا وماك وويلتن مكوايى وسجين رابع أن نذهب الى طبيب الأسنان وكنا على استعداد للقيام بالمحاولة ولكن حينما اتصل ماك بالشخص الرابع رفض ، وكنا نشك فى ولائه . ولما ذهبنا إلى طبيب الأسنان أخليت العيادة من المرضى الآخرين . وطلبنا فك قيودنا وقام الحراس بذلك . ولكن حينما نظرنا من النافذة لاحظنا أن الشارع وهو شارع شديد الازدحام فى العادة قد أخلى من المارة وشككنا فى أمر كمين ولم ننفذ الخطة .

- ٧٨ -

كان عيد ميلادى الخمسين قد مر يوم ١٨ يوليو ١٩٦٨ دون أن ألحظه وفى عام ١٩٧٥ حينما بلغت السابعة والخمسين تقدم وولتر وكاثرادا بخطة طويلة الأجل لاحتفال يجعل عيد ميلادى الستين مناسبة تذكر .

وكانت احدى القضايا التى تشغلنى هى إبقاء فكرة للمعركة حية بين الشعب وكانت الحكومة قد أخمدت معظم الصحف الراديكالية خلال العقد الماضى وكان هناك حظر على نشر أى كلمات أو صور للسجناء .

وذات يوم كنت أتحدث مع كاثرادا ووولتر فى الفناء حينما أقترح كاثرادا أن أكتب مذكراتى ورأى أن أنسب ميعاد لنشر مثل ذلك الكتاب هو بلوغي الستين وقال وولتر إن مثل تلك القضية إذا رويت بصدق وعدل فستعمل على تذكير الناس بما قاتلنا ومازلنا نقاتل من أجله وأنها ستكون بمثابة إلهام للمقاتلين الشباب وراقت لى الفكرة ووافقت أن أبدأ وقررت أن أكتب معظم الليل وأنام معظم النهار .

وكنت كل يوم أعطى ما أكتب لكاثرادا الذى كان يراجعه ثم يقرأه على وولتر ويكتب ملاحظاته فى الهوامش ولم يتردد الاثنان فى نقدى وكنت أهتم بنقدهما وأقوم بعمل التغييرات وبعد ذلك كان لالو تشيبا يأخذ المسودة ويحول ما كتبته إلى نسخه ميكروسكوبية مختزلة بنقل صفحات عشر من الفولسكاب الى وريقة صغيرة وقام ماك بتهريبها الى الخارج .

وبدأ الشك يساور السجانين فسألوا ماك عما أفعله طوال الليل فهز كتفيه قائلا إن ليس لديه أدنى فكرة وأخذت أكتب بسرعة عظيمة حيث انتهيت فى أربعة أشهر وغطيت الفترة من مولدى وحتى محاكمة ريفونيا وختمت ببعض التعليقات على جزيرة روبن .

وخبأ ماك النسخة المصغرة فى أغلفة دفاتره التى يستعملها فى الدراسة وقام بتهريبها خارج السجن حين الافراج عنه عام ١٩٧٦ وكانت الترتيبات قد تمت على أساس أن يخبرنا ماك حينما يتم تهريب النسخة خارج البلاد وحينئذ

نقوم بإعدام الأصل . وفي نفس الوقت كان علينا أن نتخلص من الخمسمائة صفحة الأصلية بدفنها في الحديقة في غفلة من الحراس في ثلاث بقع مختلفة بدل حفر حفرة واحدة كبيرة وقسمنا المخطوط إلي ثلاثة أجزاء غلفناها بالبلاستيك ووضعنا كلا منها في علبة كاكاو وطلبنا من جيف ماسيمولا أن يصنع أدوات الحفر . وذات صباح خرجت أنا وكاثرادا ووولتر وإيدى دانيالز وكأنما للتمشية والحديث السياسى فى الحديقة وتمكننا من حفر الحفر ودفنت أنا الجزء الأكبر من المخطوط فى حفرة عميقة فيها إنبوبة معدنية وثبتت المخطوط تحت الانبوبة وانتهينا من العملية فى الوقت المحدد لذهابنا إلى المحجر وشعرت بالراحة لوجود المخطوط فى مكان أمين .

وبعد أسابيع قليلة وبعد ميعاد استيقاظنا بقليل سمعت صوت دقات فئوس ومجارف . وبعد خروجنا من الزنزانات لنغتسل تمكنت من استرقاق النظر الى الخارج وهناك ، فى النهاية الجنوبية للفناء ، كان فريق عمل من سجناء القسم العام يقوم بحفر في المنطقة التى دفنا فيها المخطوط . فقد قررت السلطات بناء جدار أمام قسم الحبس الانفرادى لانهم إكتشفوا أن السجناء هناك كان بوسعهم الاتصال بنا فى الفناء . وكان فريق العمل يحفر حفرة لوضع الأساس .

وأخبرت كاثرادا ووولتر بالأمر ونحن نغتسل واعتقد كاثرادا أن الجزء الرئيسى من المخطوط الذى كان قد تم دفنه تحت أحد الأنابيب لاحظ عليه أما الجزئين الآخرين فكانا معرضين للاكتشاف . وحينما أحضر الافطار إلى الفناء أمر السجانون

المشرفون على فريق البناء رجالهم بمغادرة الفناء لكى لايحدث إتصال بينهم وبيننا . وتشاورت مع وولتر وكاثرادا ، ثم مشينا حتى وصلنا إلى نهاية الفناء الجنوبى ووجدنا أن بداية الحفر كانت قريبة جدا من مواقع العلبتين الأصغر ولحق بنا إيدى دانيالز وبدأنا فى الحفر وأنقذنا المخطوطين ولما كنا متأكدين أنهم لن ينزعوا الانبوبة من أجل بناء حائط تركنا المخطوط الثالث مكانه .

وعندما عدت من المحجر ذلك اليوم وبدلا من الذهاب للاغتسال تمشيت إلى نهاية الفناء محاولا التظاهر باللامبالاة ولكنى أزعجنى مارأيت فلقد لاحظت أن فريق العمل قد انتزع الماسورة ولابد أن رد فعلى جذب الانتباه وكان هناك عدد من السجانين يرقبوننى وتأكدوا أننى كنت على علم بمكان المخطوط . وعدت الى الممر لأغتسل وأخبرت وولتر وكاثرادا وكان إيدى قد تخلص من المخطوطين الآخرين .

وفى الصباح الباكر لليوم التالى استدعيت إلى المكتب لمقابلة المأمور الذى كان يقف الى جانبه أحد مسئولى السجون الكبار وكان قد وصل توه من بريتوريا . وأخبرنى المأمور أنهم قد وجدوا المخطوط الخاص بى . وبقيت صامتا وحينما سألنى إن كان ذلك خطى لم أجب . ولما أكد أنهم يعلمون أنه لى سألته أن يأتى بالدليل .

وكان ردهم أن ما بحوزتهم هو الدليل وأضافوا أن الملاحظات الهامشية هى بخط كاثرادا ووولتر . ورغم أنهم لم

يوقعوا علينا عقوبات ذلك اليوم فقد أعلمنا بعد أيام قليلة أنه قد تم حرماننا من ميزات الدراسة واستمر ذلك الحرمان أربع سنوات .

وبعد أن تم الافراج عن ماك فى ديسمبر أرسل الدفاتر إلى انجلترا ثم قضى سنة محددة إقامته فى منزله فى جنوب إفريقيا وعقب ذلك تسلل من البلاد وذهب إلى لوساكا لمقابلة أوليفر ثم إلى لندن حيث مكث ستة أشهر وهناك وبمساعدة كاتب آلة أعاد كتابة المخطوط وعاد إلى لوساكا وأعطى نسخة لأوليفر ولا أعرف ماذا فعل بها أوليفر بعد ذلك ورغم أنها لم تنشر وأنا فى السجن فإن محتوياتها هى العمود الفقرى لهذه المذكرات .

وفى ١٩٧٦ تلقيت زيارة غير عادية من جيمى كروجر وزير السجون وعضو بارز فى الوزارة ولم يكن كروجر فقط ذا تأثير بشأن سياسة السجون بل أيضا كان ينتقد سياسة الحكومة إزاء معركة التحرير .

وقد حدست سبب مجيئه فقد كانت الحكومة تقوم بمجهودات ضخمة لانجاح سياستها للتنمية المفضلة وللمناطق شبه المستقلة وكانت ترانسكى بقيادة ابن أخى وولى نعمتى فى وقت سابق ماتانزيما النموذج الذى تعرضه الحكومة فى هذا الصدد . وتذكرت ماكان المأمور قد قاله لى

مؤخرا وكأنما يتفاكه من أن على أن أتقاعد فى ترانسكى وآخذ فترة راحة طويلة . وكان ذلك بالفعل ما اقترحه كروجر . وقد رأيت فى المقابلة فرصة لعرض شكاوانا وكان رده أننا جميعا شيوعيون نستعمل العنف . وكان من الواضح أنه لايعرف شيئا عن المؤتمر . وحينما قلت له أننا أقدم من الحزب القومى ، صعقته الدهشة ، وكان أيضا لايعرف شيئا عن ميثاق الحرية .

وكان من الواضح أن كروجر جاء مسلحا بعرض محدد وهو أنه فى حالة اعترافى بحكومة الحكم الذاتى فى ترانسكى فإن العقوبة ستخفف عني بدرجة كبيرة . وأخبرته أننى أرفض سياسة البانتوستانات رفضا تاما وأننى لن أفعل شيئا لدعمها وذكرت أيضا أننى من جوهانسبرح وأننى لو عدت فستكون عودتى لجوهانسبرج ولم تفلح محاولاته لإقناعى وعاد مرة أخرى بعد شهر لنفس الغرض وقوبل بالرفض فقد كان عرضا لايقبله سوى مرتد .

وفى يونيو ١٩٧٦ بدأنا نسمع تقارير غير واضحة عن انتفاضة كبيرة فى البلاد . وسمعنا أن شباب سويتو تغلبوا على العسكر وأن الجنود ألقوا بأسلحتهم وهربوا . ولم نعلم بواقع ماحدث إلا مع وصول المسجونين الشباب ممن اشتركوا فى انتفاضة ١٦ يونيو ١٩٧٦ .

ففى ١٦ يونيو تجمع خمسة عشر ألفا من تلاميذ المدارس فى سويتو للاحتجاج على قرار الحكومة القاضى بأن تدرس نصف المقررات فى المدارس الثانوية الافريقية باللغة الأفريكانية ولم يكن الطلبة يريدون أن يتعلموا ولم يكن المدرسون يريدون أن يدرسوا لغة الغاصب . ولم تجد الالتماسات التى أرسلها المدرسون والآباء . وجابهت كتيبة شرطة ذلك الجيش من الطلبة وفتحوا نيرانهم عليهم بدون مقدمات مما نتج عنه مقتل هيكتور بيترسون البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما وآخرين كثيرين . ورد الأطفال بالحجارة والعصى وترتب على ذلك حالة من الفوضى الجماهيرية مما أدى إلى جرح مئات من الأطفال بينما قتل رجلان أبيضان بالحجارة .

وترددت أصداء الأحداث فى أرجاء المدن والمناطق الافريقية ونتجت أعمال شغب وعنف فى جميع أنحاء البلاد ونظمت جنازات جماهيرية لضحايا عنف الدولة تحولت الى مظاهرات وفجأة اشتعلت أرواح شباب جنوب إفريقيا بالاحتجاج والثورة . فقاطع الطلبة المدارس فى جميع أنحاء البلاد وشارك منظمو المؤتمر الطلبة بدعم الاحتجاج وهكذا انقلب النظام التعليمى على الذين ابتدعوه لأن ذلك الشباب الغاضب الجرىء كان ثمرته .

وفى سبتمبر امتلأ قسم الحبس الانفرادى بشباب تم القبض عليهم عقب الأحداث وعلمنا منهم بما حدث وارتفعت

معنوياتنا فقد انفجرت روح الاحتجاج الجماهيرى التى بدأت خامدة فى الستينيات . كان كثير من هؤلاء الشباب قد ترك البلاد ليلحقوا بحركتنا العسكرية ثم تسللوا راجعين وكان قد تم تدريب الآلاف منهم فى تنزانيا وأنجولا وموزمبيق .

وكسجناء ، كان هؤلاء الشباب مختلفين عن أى شىء رأيناه . فقد كانوا شجعانا عدائيين وعدوانيين ولم يكونوا ليطيعوا أى أوامر وكان يميلون إلى المواجهة ولم تدر السلطات ماذا تفعله معهم فقد قلبوا الحياة فى الجزيرة رأسا على عقب .

وقد رأينا فيهم روح العصر الثورية الغاضبة وكنت قد عرفت من وينى ميولهم النضالية الافريقية . وقد روع المساجين الجدد ما أسموه الظروف البربرية فى الجزيرة وبدوا متشككين فينا وتجاهلوا دعوتنا للنظام . وكان من الواضح أنهم يروننا معتدلين . وبعد سنوات طويلة من وصمتى بالثورية والرديكالية لم يكن رأيهم فىَّ كمعتدل مدعاة للسرور - وفضلت أن أسمع مايقولون .

وحينما حضر بعض هؤلاء الشباب مثل سترينى مودلى من منظمة الطلبة الأفارقة ، وساتس كوبر من مؤتمر الشعب الأسود إلى قسمنا دعوتهم إلى القاء محاضرات عن تنظيماتهم فقد أود أن أعرف ما أتى بهم إلى المعركة وما هى دوافعهم وأفكارهم عن المستقبل .

وقد رفض هؤلاء الشباب الانصياع لتعليمات السجن كخلع

القبعات فى حضور الضباط أو الوقوف إذا دخل الضابط الغرفة .

وكانت هذه أول مرة نتعرف على حركة « الوعى الأسود » فبعد حظر المؤتمر والـ P.A.C والحزب الشيوعى ساعدت حركة « الوعى » على ملء الفراغ بين الشباب وكان « الوعى الأسود » فلسفة أكثر منها حركة ونتجت عن فكرة وجوب تحرير السود أنفسهم من عقدة النقص التى كانت نتاج قرون من حكم البيض لكى يمكن للشعب أن يهب بثقة ويحرر نفسه من الطغيان . وبينما كانت حركة الوعى تؤيد مجتمعا لا عنصريا فإنهم لم يسمحوا للبيض أن يلعبوا دورا لتحقيق ذلك الهدف . وكانت تلك هى الآراء التى كنت اعتنقها حينما كونت منظمة الشباب من ربع قرن مضى . إذا فحركة الوعى تمثل نفس الاستجابة لنفس المشكلة التى لم تختف . وبينما شجعتنى روحهم النضالية فقد اعتقدت أن فلسفتهم بتركيزها على اللون الأسود كانت فلسفة اقتصادية وتمثل وجهة نظر انتقالية لم تنضج بعد . ورأيت أن دورى كسياسى أكبر سنا هو أن أساعدهم إلى أن ينتقلوا لما هو أكثر شمولا وكنت أعلم أيضا أن هؤلاء الشباب سيحبطون لأن حركتهم لاتقدم برنامج عمل .

وقد كنت أقوم بالاتصال ببعض هؤلاء الشباب عن طريق رسائل مهربة وتحادثت مع بعض ممن كانوا من إقليم ترانسكى وسألتهم عن موطنى وكان بعضهم ذا شهرة نضالية

وقد كنت سمعت تقارير عن باتريك ليكوتا المشهور بالرعب وكان قائد جمعية طلبة جنوب إفريقيا وأرسلت له رسالة أرحب به في الجزيرة وكان قد اكتسب شهرته كلاعب كرة ، وأيضا لمهارته في المجادلة وكان قد اختلف مع بعض زملائه بخصوص الاقتصادية العرقية وبذلك كان قد اقترب من أفكار المؤتمر . وحينما أتى إلى الجزيرة قرر أن يلتحق بالمؤتمر ولكنا لم نشجعه خوفا من خلق توترات في القسم العام ولكنه غير ولاءه والتحق بالمؤتمر . وذات يوم تعرض لهجوم بمذراة في الحديقة بواسطة أعضاء من الوعي الأسود وتم علاجه ووجه الاتهام إلى المتهجمين . ولكي لانشتت الشمل أشرنا عليه ألا يقدم شكوى ووافق ورفض تأدية الشهادة ضدهم وأسقطت الدعوة . وقد كنت أريد أن يرى هؤلاء الشباب المؤتمر مظلة كبرى تظل أناسا من نزعات مختلفة وآراء متباينة . وبعد تلك الحادثة قرر العشرات من هؤلاء الالتحاق بعضوية المؤتمر بما فيهم بعض الذين هاجموه . وقد ارتقى « رعب » إلى الصفوف الأمامية للمؤتمر في القسم العام وأصبح يقوم بتدريس سياسة المؤتمر للسجناء الآخرين . وأكدت شجاعة ورؤية رجال مثل ليكوتا أنه مازالت لآرائنا فاعليتها وأنها مازالت تمثل الأمل الأفضل لتوحيد معركة التحرير ككل .

ولقلق السلطات على كيفية التعامل مع تلك الاسود الصغيرة فقد تركت لنا الحبل على الغارب وكنا حينذاك فى السنة الثانية من احزاب التباطؤ فى العمل فقد كان مطلبنا أن يسمح لنا بعمل شىء مفيد كالدراسة أو تعلم مهنة وأن يلغى العمل اليدوى فأوقفنا الذهاب الى المحجر وقضينا الوقت نتحدث . وفى آخر عام ١٩٧٧ ألغت السلطات العمل اليدوى وأصبح بإمكاننا قضاء اليوم بقسمنا .

وكانت نهاية العمل اليدوى نوع من التحرر فتفرغت لكتابة الخطابات والنقاش والقراءة واعداد مذكرات قانونية كما أننى ركزت على هوايتين لى وهما لعب التنس والعمل بالحديقة . وقد نجحت بزراعة حديقة بالفناء أصبحت تمد الحراس بالبصل والطماطم كما أرسلت فى طلب كتب عن فن زراعة الحدائق . وكنت أرى فى الحديقة الى حد ما مجازا لبعض أوجه حياتى . فعلى القائد رعاية حديقته وغرس الحبوب وزراعتها وجنى المحصول . وكالبستانى فيجب على القائد تحمل مسئولية مايزرعه والعناية بعمله والتخلص من الأعداء والحفاظ على مايجب الحفاظ عليه وترك مالايمكن انجاحه .

وكتبت خطاب لوينى عن نبتة طماطم احتضنتها منذ أن كانت صغيرة إلى أن أصبحت زرعة قوية وأنتجت ثمارا عميقة الاحمرار . ولكن نظرا لخطأ ما أو للتهاون فى الرعاية بدأت

تذبل لم تفلح محاولاتى فى أن أعيدها قوية وحينما . ماتت اقتلعت الجذور من التربة وغسلتها ودفنتها فى ركن الحديقة . رويت تلك القصة بالتفصيل ولا أعرف ماذا استنتجت وينى من ذلك الخطاب ولكنى حينما كتبته كانت لدى مشاعر متباينة فلم أكن أريد لعلاقتنا أن تنتهى مثل تلك الزرعة ولكنى كنت أشعر أنه لم يكن بمقدورى تدعيم معظم علاقاتى المهمة . وأحيانا يقف الانسان عاجزا حيال شىء يجب أن يموت .

وكانت نتيجة إيقاف العمل اليدوى زيادة وزنى . وإنى أجد التمرينات الرياضية ليست اساسية فقط لصحة الجسد بل للسلام النفسى . وكنت أقوم بالتدريبات بانتظام فى الجزيرة . وكانت هيئة الصليب الأحمر . وبناء على شكاوينا قد أمدتنا بمعدات الرياضة المختلفة ككرة الفولى وتنس الطاولة . وبعد إلغاء مميزات الدراسة بدأت فى قراءة الروايات وكانت مكتبة الجزيرة تحوى عددا هائلا منها . أما الكتب السياسية فكانت من المحظورات كذلك كانت كل الكتب عن الاشتراكية والشيوعية لدرجة أن عنوان أى كتاب ، حتى ولو كانت رواية ، اذا احتوى لفظ أحمر أو حمراء أصبح من الممنوعات . وكنت منذ البداية أحاول قراءة كتب عن جنوب إفريقيا لكتاب من جنوب إفريقيا فقرأت رويات نادين جورديمر غير المحظورة وتعلمت منها الكثير عن المشاعر الليبرالية البيضاء .

وفى اعقاب انتفاضة طلبة سويتو علمت أن وينى وصديقى القديم الطبيب نثاثو موتلاند التحقا بجمعية الآباء السود . وفى أغسطس وبعد شهرين من ثورة الطلبة احتجرت وينى وسجنت بقلعة جوهانسبرج بدون توجيه تهمة ولمدة خمسة أشهر وبعد الافراج عنها كانت أكثر تصميما والتزاما بالمعركة . وكانت السلطات مستاءة من شعبية وينى وسط الراديكاليين الشباب وكانوا مصممين على الاقلال من تاثيرها وقد نفذوا ذلك بتبجح ووقاحة ففرضوا عليها النفى الداخلى حيث حضرت شاحنة وعربات شرطة فى ليلة ١٦ مايو ١٩٧٧ وحملوا الأثاث والملابس فى الشاحنة . وصدر القرار بنفى وينى الى منطقة ليس فيها أى صداقات أو معارف ولاتعرف لغتها .

ومن خطاباتها علمت أن الحياة هناك شديدة الصعوبة فلم تكن هناك تدفئة أو مراحيض أو مياه جارية ولم تكن هناك متاجر صغيرة وكانت المتاجر الكبيرة تكن العداء للأفارقة وكان البيض هناك شديدى المحافظة وأصبحت وينى وزيندزى هناك تحت الرقابة الشديد والتهديد من الشرطة .

وفى سبتمبر وبمساعدة محامى وينى تقدمت بطلب ضد الشرطة هناك طالبا منعهم من مضايقة وينى وزيندزى وحكم القاضى وزيندزى باستقبال زائرين هناك وبما أوتيته وينى من

مرونة تمكنت خلال فترة قصيرة نسبيا من اكتساب الناس هناك بما في ذلك بعض البيض المتعاطفين وقامت بنشاطات اجتماعية لصالح الأفارقة هناك .

وفى ١٩٧٨ تزوجت ابنتى الثانية من وينى بأمير ثامبموزى نجل ملك سويوزا من سوازيلاند وكانا قد التقيا أثناء الدراسة . ولم استطع القيام بواجبات الأب في تلك المناسبة ووكلت مستشارى القانوني جورج بيزوس فى أن ينوب عني . وعلمت من جورج أن والد العريس قائد محلى مستنير وعضو في المؤتمر وكان لزواج زينى من الأسرة المالكة لسوازى ميزة هائلة فقد منحت جوار سفر ديبلوماسيا وكان بإمكانها زيارتى عندما تريد . وحضرت فى الشتاء هى وزوجها ووليدتها ولمنزلة الأمير فقد سمح بلقائنا فى غرفة الاستشارات وكان لقاء رائعا . وكان للزيارة هدف رسمى فقد كان على أن أختار إسما لحفيدتى وأسميتها زازيوى الذى يعنى أمل .

وفى أثناء العامين التاليين أصابتنى حالة نوستالجيا حاملة وكانت إبانها ذاكرتى تنقلنى إلى لحظات فرح وحزن غامرين . وأصبحت الأحلام غنية وكنت أقضى ليالى بطولها أعيش الأوقات السعيدة والحزينة للماضى . وأضحى هناك كابوس يعاودنى فقد كنت أرانى وقد أطلق سراحى ولكن من جوهانسبرج ومررت خلال أسوار المدينة ولكن لم أجد أحدا

يستقبلنى هناك فقد كان المكان خاويا وكنت أسير تجاه سويتو قاصدا منزلنا وبعد عدة ساعات كنت أجد المنزل ولكنه أيضا خاو كمنزل الأشباح .

- ٨٤ -

وفى عام ١٩٧٨ وبعد حوالى خمسة عشر عاما من المطالبة بحق تلقى الأنباء وصلت السلطات إلى تسوية فبدلا من أن تسمح بالصحف أو بالاستماع إلى الاذاعة قررت أن تبدأ إذاعة داخلية تذيع منها ملخصا للأنباء وكانت الفقرات التى تذاع تتكون من أنباء طيبة عن الحكومة وسيئة عن اعدائها وافتتحت أول نشرة إخبارية بنبأ وفاة سوبرت سوبوكوى وكانت هناك أبناء أخرى عن انتصارات قوات إيان سميث .

وفى تلك السنة علمنا أن بوتا خلف فورستر فى رئاسة الوزراء . وكان كل ما أعرفه هو أن بوتا كان وزير دفاع شرسا . وقد أمر بالهجوم على انجولا عام ١٩٧٥ . ثم علمنا مالم تذعه المحطة وهو نجاح حركة التحرير في انجولا وموزمبيق وتولى حكومات ثورية هناك .

وأدخلت السلطات أيضا إلى الجزيرة الافلام السينمائية حيث كان يعرض فيلم كل اسبوع . وكان ضمن الأفلام التى عرضت فيلم كليوباترة وأثار الفيلم مناقشات كثيرة حيث اعترض الكثير على أن تقوم ممثلة أمريكية بدور كليوباترة .

ورأوا فى ذلك الفيلم مثلا للدعاية الغربية التى تسعى أن تمحو حقيقة أن كليوباترة كانت إفريقية وذكرت لهم أنا عن التمثال الرائع الذى رأيته فى مصر لكليوباترة والذى صورها ذات بشرة أبنوسية . وتأثرت تأثرا عميقا بفيلم وثائقى صور اغراق السفينة الملكية البريطانية على أيدى اليابانيين وكان أكثر ما أثر فى هو رؤية تشرسل يبكى عقب فقدان السفينة وقد بقيت الصورة فى ذاكرتى مدة طويلة وحدث بعد مشاهدتنا فيلما عن مجموعة جهنم الأمريكية التى كانت ضد السلطة أن تناقشنا ووجهنا اللوم للمجموعة ولكن أحد أعضاء جمعية الوعى الأسود ويدعى سترينى هاجمنا وقال إننا مجموعة من مثقفى الطبقة الوسطى وعلى ذلك توجدنا من السلطات اليمينية وما أثار قلقى هو مدى صحة اتهام سترينى فلقد كان قد مر وقت طويل على دخولنا السجن وكان الخطر هو أن تكون أفكارنا قد تجمدت مع الوقت فالسجن نقطة ثابتة فى عالم متحرك ومن السهل أن يبقى الانسان فى مكانه بينما العالم يتغير.

وفى عام ١٩٧٩ أعلنت السلطات تعديل نظام التغذية وتوحيده بين جميع السجناء من جميع الأعراق وعمدت السلطات فى السجن إلى الاقلال من نصيب الرجل الملون من السكر بدلا من زيادة نصيب الافريقى .

وفى الثمانينيات منحنا حق شراء الصحف وكان ذلك الحق مقصورا على مصنفى أ وكانت كل مجموعة منهم لها الحق فى شراء صحيفة واحدة إنجليزية وأخرى ، أفريكانية ولكن إذا تبادلوها مع المجموعات الأخرى يسقط هذا الحق عنهم . ورغم أن الصحف التى كنا نشتريها كانت محافظة فقد كانت تخضع لرقابة السجن التى تتولى قص الفقرات التى تراها ضارة .

وأمكننى فى مارس ١٩٨٠ قراءة فقرة صحفية فى جريدة جوهانسبرج سانداى وكان العنوان « أطلقوا سراح مانديللا » أما فى داخل الصحيفة فقد كان هناك التماس يمكن للناس التوقيع عليه للمطالبة باطلاق سراحى وزملائى .

وكانت الفكرة قد بدأها أوليفر والمؤتمر فى لوساكا وكانت الحملة حجر زاوية فى استراتيجية تضع قضيتنا فى بؤرة تفكير الناس وقام المؤتمر بتركيز الحملة على شخص واحد يريد أن يعطيها أبعادا شخصية . ومما لاشك فيه أن الملايين الذين أيدوا الحملة لم تكن لهم أدنى فكرة عمن يكون نيلسون مانديللا . وقد علمت أنه حينما ظهرت ملصقات Free Mendela فى لندن اعتقد معظم الشباب هناك أن إسمى الأول هو Free .

وكنت قبل ذلك بعام قد منحت جائزة جواهر لال نهرو لحقوق

الانسان في الهند وكان ذلك دليلا على انبعاث المقاومة من جديد وبالطبع منعت أنا ووينى من حضور الاحتفال وحضر أوليفر نيابة عني . وتجدد أيضا نشاط الـM.K حيث كانت تقوم باحداث تفجيرات إسبوعيا فى مواقع استراتيجية . واستحدث وزير الدفاع مالان ـ يؤيده بوتا ـ نظام « عسكرة » البلاد لمواجهة معركة التحرير .

- ٨٦ -

وفى أحد أيام ١٩٨٠ علمت أن ملك ترانسكى ساباتا داليند يبو الذى كان من المقرر أن أكون مستشارا له قد خلعه ابن أخى ماتانزيما رئيس وزراء ترانسكي . قد سبب ذلك استيائى الشديد . وطلب عدد من رؤساء قبائل التمبو المحليين زيارتى وتمت الموافقة عليها من قبل السلطات لاعتقادهم أن انشغالى بالشئون القبلية قد يقلل من تورطى فى المعركة . وقد كانت الحكومة تدعم سلطة رجال القبائل للتقليل من أثر المؤتمر . وبينما رأى الكثير من زملائى أن أرفض رؤية هؤلاء الرؤساء رأيت ممن الواجب أن أحاول الوصول إليهم فلم أكن أرى تعارضا بين كون الانسان قائما قبليا وعضوا فى المؤتمر بل كنت أعتقد أن اسهامنا في التنظيمات المحلية سيكون مصدر قوة لنا .

والتقيت بالرؤساء الذين كانوا يؤيدون ساباتا ويخافون ماتانزيما وأشرت عليهم بالوقوف إلى جانب ساباتا وأن يبلغوه تأييدى ومعارضتى لماتانزيما .

كما طلب ماتانزيما مقابلتى بحجة مناقشة أمور عائلية ورغم رغبتى فى رؤيته لاعتقادى بامكانية التأثير عليه فقد اعترض كثير من رفاقى فى القسم لأنهم رأوا أن ماتانزيما سيستغلها للدعاية السياسية ولإيهام الناس أننا راضون عن سياسته . وانحنيت أمام آرائهم .

وفى مارس ١٩٨٢ علمت باصابة وينى فى حادث سيارة وبعد ذلك جاءنى محاميها ليطمئنى عليها وكانت الزيارة قصيرة . وعند عودتى إلى زنزانتى زارنى هناك مأمور القسم وكان ذلك أمرا غير معتاد . وأخبرنى المأمور أن على أن أجمع حاجياتى لأن الأوامر قد صدرت بنقلى ولم يفصح لى عن الجهة التى سأنقل إليها . وعلمت أن وولتر وريموند مهلابا وأندرو مالا نجينى قد صدرت اليهم نفس الأوامر .

وتساءلت : لقد مر على ثمانية عشر عاما فى الجزيرة ، فلماذا هذا القرار المفاجىء ؟ وحدث حالة اهتياج فى الممر عندما علم الآخرون أننا سنرحل ولكن لم نمنح الوقت لوداع رفاق السنوات الطويلة .

ونظرت من العبارة تجاه الجزيرة فقد اعتدت عليها . لقد عشت هناك قرابة عقدين من الزمان ورغم أنها لّم تكن أبدا لى موطنا فلقد كانت مكانا شعرت فيه بالراحة فإنى لا أشعر بالراحة مع التغيير ولم تكن الجزيرة استثناء لذلك .

وفى كيب تاون دفع بنا إلى شاحنة مدة لاتتعدى الساعة ووقفت وأمرنا بالسير فى الظلام وتسلقنا درجات إسمنتية

ودخلنا من أبواب معدنية إلى منطقة أخرى ، وحينما سألت الحارس عن المكان الجديد أجاب أنه سجن بولسمور .

الجزء العاشر

التحادث مع العدو

- ٨٧ -

ويقع سجن بولسمور للحالات الأمنية القصوى على حافة ضاحية بيضاء غنية تدعى توكاى إلى الجنوب الشرقى من كيب تاون . وتحيط بالسجن مناظر الكيب الخلابة . ولكن ذلك الجمال تحجبه عن السجناء أسوار اسمنتية وفي بولسمور فهمت مقولة اوسكار وايلد عن الخيمة الزرقاء التى يلقبها السجناء السماء .

وتم فصلنا هناك عن سجناء القسم العام ولم يكن هناك سجناء سياسيون غيرنا . وكانت معاملتنا مختلفة . فمنح أربعتنا ملحقا للسجن عبارة عن غرفة متسعة على السطح فى الطابق الثالث وكنا السجناء الوحيدين فى ذلك الطابق . وكانت الغرفة نظيفة وحديثة وكان بها ملحقاتها من الحمامات والمراحيض . وكان بالغرفة أربعة أسرة وضعت عليها ملاءات ومناشف وكان ذلك رفاهية لرجال قضوا الثمانية عشر عاما السابقة ينامون على الأرض . وكانت هناك شرفة ذات مساحة ضخمة سمح لنا بالخروج اليها أثناء النهار ولم يكن بإمكاننا

رؤية أى شىء سوى السماء نظرا لاسوارها العالية . ورغم وجودنا فى قلب القارة فقد شعرنا بالعزلة لأن الجزيرة بالنسبة لنا كانت مركز المعركة . وكان النقل على مايبدو استرتيجيا فقد أرادت السلطات قطع رأس المؤتمر على الجزيرة بنقل قادته لكى تحرم الجزيرة من أهميتها الرمزية بعد أن أصبحت إسطورة تدعم المقاومة . وكنت أنا ووولتر وريموند أعضاء فى القيادة العليا على الجزيرة فلماذا ملانجيين ؟ وتأكد حدسنا بعد أن لحق بنا كاثرادا بعد شهور قليلة . ثم لحق بنا شخص لم نكن نعرفه يدعى باتريك مافابيللا وكان محاميا شابا من المؤتمر من شرق الكيب تاون ومحكوم عليه بالسجن عشرين سنة وقد نقل من سجنه لنشاطه فى عمل تنظيمات سرية .

ورغم أننا كنا نعيش فى عالم من الأسمنت فقد كانت ميزات المكان الجديد أفضل فقد كان الطعام أحسن وكان بإمكاننا قراءة العديد من الصحف والمجلات التى كانت ممنوعة مثل التايم والجارديان من لندن وكان لدينا مذياع يتلقى المحطات المحلية فقط . وكانت الغرفة الرئيسية لها ملحق صغير استعمل كغرفة دراسة وبه مكتب وأرفف كتب . وكنت أقوم بممارسة الرياضة فى الغرفة الواسعة .

وحضرت وينى لزيارتى عقب نقلى وكانت مساحة الزيارة أفضل بكثير منها فى الجزيرة والرقابة أخف .

وكان مأمور السجن البريجادير مونرو شخصا بذل جهده لنحصل على ماكنا نطلبه . ورغم ذلك حدثت مشاكل ضخمت

لأضعاف حجمها . فقد شكوت مرة لوينى أن الحذاء الذى تسلمته أصغر من حجم قدمى وسمعت بعد ذلك أن التقارير الصحفية قالت أنه ستجرى لى عملية لبتر إصبع قدمى وجاءت هيلين سوزمان لزيارتى فى السجن وأريتها إصبعى سليما معافا . وحدث أن شكونا من رطوبة الغرفة ونشرت الصحف أن زنزانتنا قد أغرقتها المياه .

وفى مايو ١٩٨٤ حدث تغيير سبب لى الكثير من الارتياح فقد سمح لنا بالالتقاء المباشر مع الزائرين وحدث ذلك عند زيارة وينى وزينى وابنتها الصغرى حيث سمح لنا بالتواجد فى نفس الغرفة وعانقت زوجتى وابنتى لأول مرة منذ إحدى وعشرين عاما .

وفى بولسمور كنا على اتصال بالاحداث الخارجية وكنا نعلم أن المقاومة تتصاعد وكذلك مجهودات العدو . ففى عام ١٩٨١ قامت القوات الجوية لجنوب إفريقيا بالهجوم على مكاتب المؤتمر فى موزمبيق حيث قتل ثلاثة عشر من رجالنا . وفى ديسمبر ١٩٨٢ فجر رجال الـM.K وزرعوا قنابل فى مواقع عسكرية وأهداف للأبارتايد . وفى نفس الشهر هاجمت قوات جنوب إفريقيا مواقع للمؤتمر فى لوسوتو وقتلت اثنين وأربعين شخصا فيهم نساء وأطفال وفى ١٩٨٢ كانت المناضلة روث فيرست تفض خطابا لها حينما انفجرت فيها

متفجرات كانت داخل الخطاب . وكانت وقت ذلك تعيش فى مايوتو فى المنفى وكانت زوجة جو سلوفو ، وعاشت مناضلة مناهضة للآبارتايد وقضت شهورا عدة بالسجن وكانت ذات شخصية قوية جذابة وكنت قد التقيت بها أول مرة فى جامعة Wits

واستعملت M.K قنابل السيارات لأول مرة فى مايو ١٩٨٣ وكان ذلك ضد قوة دفاع جوى ومكتب عسكرى فى قلب بريتوريا انتقاما للهجوم على المؤتمر فى الخارج وتصعيدا للعمليات العسكرية وقتل تسعة عشر شخصا وجرح مايربو على المائتين . وعبر أوليفر عن الموقف فى ذلك الوقت قائلا إن المعركة العسكرية قد فرضت علينا بواسطة عنف نظام الأبارتايد .

وكانت الحكومة والمؤتمر فى ذلك الوقت يعملان فى اتجاهين : الاتجاه العسكرى والاتجاه السياسى . فعلى الصعيد السياسى كانت الحكومة تتبع سياسة فرق تسد لتفصل بين الهنود والملونين والأفارقة . فحاول بوتا أن يعطى الهنود والملونين امتيازات انتخابية ولكن ذلك لم يخدع الناس إذ قاطع ثمانون فى المائة منهم الانتخابات .

وتكونت حركات قاعدية سياسية جديدة فى داخل البلاد ذات صلات وثيقة بالمؤتمر مثل حركة الجهة الديمقراطية المتحدة التى نصبونى راعيا لها وضمت أكثر من ستمائة منظمة مناصفة للأبارتايد وكان لها نشاطات سياسية واسعة

وكان المؤتمر يشهد ميلادا وشعبية جديدين . وأثبتت استطلاعات الرأى أن المؤتمر يتصدر قائمة المنظمات الأخرى بين الأفارقة رغم حظره لربع قرن ويتفوق عليها بكثير . وكانت حركة الأبارتايد ككل قد حازت اهتمام العالم وفى عام ١٩٨٢ منح الأسقف توتو جائزة نوبل للسلام . وأصبحت السلطة تحت ضغط دولى متنام حيث أخذت الدول فى جميع أنحاء الأرض فى فرض الحظر الاقتصادى على بريتوريا .

وعلى مر السنوات كانت الحكومة ترسل لى مستطلعين بدءا بكروجر يحاولون معى أن أنتقل إلى ترانسكى . ولم تكن تلك محاولات للتفاوض بل وسائل لعزلى عن منظمتى ورغم عدم استجابتى لتلك المحاولات فقد كان بالامكان رؤية محاولاتهم للتفاوض بدلا من الهجوم مقدمة لتفاوضات حقيقية .

وأخذت الحكومة تختبر الموقف فخلال عامى ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ تلقيت زيارتين من رجلى دولة مهمين أولهما اللورد نيكولاس بثل عضو مجلس اللوردات البريطانى والبرلمان الأوروبى وثانيهما صامويل داش أستاذ القانون بجامعة جورج تاون والمستشار السابق للجنة مجلس الشيوخ بشأن ووترجيت .

وكانت كلتا الزيارتان قد صرح بهما وزير العدل الجديد كوبى كوتس الذى كان نوعا جديدا من القادة الأفريكان .

وتحدثت عن الأوضاع فى السجون مع لورد بثل وعن

بولسمور والمقاومة المسلحة وأخبرته أنه بإمكان الحكومة إنهاء أعمال العنف وقلت له أننا نستهدف المنشآت العسكرية وليس الأفراد . وفى لقائى مع البروفسور داش عرضت تصورى للحد الأدنى لجنوب إفريقيا لاعرقية تكون دولة موحدة دون مواطن للأعراق المختلفة وتجرى فيها انتخابات لبرلمان مركزى حيث يكون لكل فرد صوت انتخابى وأكدت أن مانريده هو المساواة السياسية وقلت له بصراحة أننا فى الواقع لانستطيع هزيمة الحكومة عسكريا ولكن بوسعنا جعل حكمها صعبا وزارنى رئيس تحرير الواشنطن بوست المحافظة التى كان هدفها ليس هو الاستماع لما أقول بقدر إثبات أننى شيوعى إرهابى وأننى لست مسيحيا لأن القس مارتن لوثر كونج لم يلجأ إلى العنف . فبينت له أن جنوب إفريقيا ليست دولة ديمقراطية مثل امريكا بل دولة دستورية يتوج دستورها عدم المساواة ويرد جيشها على عدم استعمال العنف بالقوة .

وفى مواجهة الاضطرابات فى الداخل والضغوط من الخارج اتخذ بوتا خطوة فاترة مترددة فقد أعلن فى البرلمان أنه مستعد لاطلاق سراحى إذا أنكرت العنف كأداة سياسية وقال إن ذلك ينطبق على جميع السجناء السياسيين الآخرين . وكان ذلك سادس عرض مشروط من الحكومة خلال عشر سنوات وبعد الاستماع إلى الخطاب طلبت السماح لزوجتى ومحاميى إسماعيل أيوب بالزيارة لاملاء الرد ولم يسمح لها بالزيارة إلا بعد اسبوع كنت فى خلاله قد كتبت الرد إلى وزير الخارجية بيك بوتا رفضت فيه أى اشتراطات لاطلاق سراحى

وأعدت إعلانا عاما حرصت فيه على ذكر عدة أشياء لأن هدف بوتا كان التفريق بينى وبين زملائى وقد أردت أن أؤكد للمؤتمر عامة وأوليفر خاصة ولائى الخالص للمنظمة وكنت أيضا أود افهام الحكومة إنه رغم رفضى العرض فإنى اعتقد أن المفاوضات وليست الحرب هى السبيل للحل . وكنت أيضا اوضح أننى اذا خرجت من السجن فى نفسى الظروف الذى اعتقلت فيها فاننى سأقوم بنفس الممارسات التى أدت الى سجنى .

وقابلت وينى وإسماعيل يوم الجمعة وكان يوم الأحد قد حدد لمظاهرة فى استاد سويتو يعلن فيها ردى . وأعطيت وينى واسماعيل الكلمة التى أعددتها وكنت أيضا أود أن أوجه شكرى الى الجبهة الديمقراطية المتحدة على أعمالها الرائعة وأهنىء الأسقف توتو على الجائزة . ويوم الأحد ١٠ فبراير ١٩٨٥ قرأت ابنتى زيندزى ردى على الجماهير المهللة التى لم يكن بإمكانها سماع أى كلمة منى فى أى مكان من جنوب افريقيا لمدة تربو على العشرين عاما .

وكانت زيندزى متحدثة ديناميكية مثل والدتها . وقالت إن والدها كان يجب أن يكون فى الاستاد ليتكلم بنفسه . وجاء فى كلمتى أننى عضو بالمؤتمر وسأظل عضوا فيه إلى وفاتى وأن أوليفر تامبو أكثر من شقيق لى وأعلم أنه من الممكن أن يضحى بحياته ليرانى حرا . وأضفت أن الشروط التى تريد الحكومة فرضها تسبب لى الدهشة لأننا لم نسلك طريق العنف إلا بعد أن سدت امامنا جميع طرق المقاومة . وأن على بوتا

أن يبرهن أنه مختلف عمن سبقوه ويترك العنف ويلغى الأبارتايد ويطلق سراح السجناء والمنفين لمعارضتهم للأبارتايد ويضمن حرية النشاط السياسى ليتمكن الشعب من تقرير من يحكمه . وقلت : إننى أحرص على حريتى لكنى أحرص بالتأكيد على حريتكم ولست أقل حبا منكم للحياة ولكني غير مستعد لبيع حق مولدى أو حق مولد شعب لأحصل على حريتى . فماذا تعنى تلك الحرية بينما تحظر المنظمة التى أنتمى إليها أو بينما يمكن أن يلقى القبض على لعدم حملى تصريحا للمرور أو بينما زوجتى منفية فى براندفورت او بينما . يجب أن أطلب تصريحا لأسكن فى منطقة مدنية أو بينما لاتحترم مواطنتى فى جنوب إفريقيا . إن الأحرار هم الذين يستطيعون التفاوض ولايمكن للسجناء الدخول فى اتفاقات . فأنا لا أستطيع ولن أتعهد بشىء فى وقت أنا وأنتم لسنا أحرارا فلايمكن الفصل بين حريتكم وحريتى . وسأعود .

- ٨٩ -

تقرر دخولى المستشفى فى عام ١٩٨٥ فى كيب تاون لاجلاء عملية البروستاتا تحت حراسة مشددة طارت وينى لرؤيتى قبل اجراء العملية . ولكنى تلقيت زيارة أخرى ادهشتنى فقد حضر كوبى كوتسى وزير العدل بحجة زيارة صديق له فى المستشفى ولقد كنت قد كتبت إليه خطابا دعوته

للقاء لمناقشة إجراء محادثات بين المؤتمر والحكومة . فقد كانت الحكومة قد تبينت أنها لابد وأن تصل الى اتفاق مع المؤتمر وكانت زيارتها هى غصن الزيتون .

وبعد شفائى حضر المأمور لاصطحابى وكان ذلك أمرا غير عادى . وأخبرنى أننى لن أذهب الى رفاقى بل سأقيم بمفردى . وعند وصولى إلى السجن ساقونى إلى زنزانة فى قسم مختلف تماما . فقد كانت عبارة عن جناح من ثلاث غرف وحمام ولم أستطع فى البداية استيعاب سبب التغيير . لكن فى الأسابيع التى تلت تفهمت وضعى الجديد الذى قررت أنا أن أستغله لبدء محادثات مع الحكومة فقد رأيت أن الوقت قد حان لدفع عجلة النضال من خلال المفاوضات مستغلا فرصة وحدتى .

فقد كان قد مر علينا خمسة وسبعون عاما من النضال ضد حكم الأقلية البيضاء . كما كان قد مر مايربو على عقدين على بدء القتال المسلح . وقد مات أناس كثيرون من الجانبين ، أما العدو فكان قويا وعنيدا . لكن رغم عنادهم فلابد وأنهم قد أدركوا أنهم على الجانب الخطأ من التاريخ ورغم أن الحق كان معنا لم نكن نملك القوة بعد وكان من الواضح أن النصر العسكرى بعيد إن لم يكن مستحيلا ولم يكن من الحكمة للجانبين أن يفقدوا الآلاف . ان لم يكن الملايين فى معركة غير ضرورية . ولابد أنهم أدركوا ذلك . وقد حان الوقت للحديث وكان كلا منّ الجانبين ينظر للنقاش على انه نوع من الضعف وكانت الحكومة قد أعلنت مرارا أن المنظمة ارهابية

شيوعية ولايمكن التحادث معها وكان المؤتمر قد أكد مرارا أن الحكومة فاشية عنصرية وأنه لايوجد موضوع نقاش حتى يرفع الحظر عن المؤتمر ويطلق سراح جميع المسجونين السياسيين بدون شرط وتنسحب القوات من المناطق الافريقية .

وكان يجب أن يتخذ القرار فى لوساكا ولكنى شعرت أن العملية يجب أن تبدأ وأنه ليس هناك وقت أو وسيلة للاتصال بأوليفر . وكان عزلى الجديد يوفر لى الحرية أن أتحرك تحت ستار من الجدية .

وقررت ألا أنبىء أحد بما فاعله حتى زملائى فى نفس السجن الذين كنت أعرف أنهم سيستنكرون اقتراحى ويحكمون على المباراة بالاعدام قبل أن تولد . وان هناك أوقاتا يجب على القائد أن يستبق الرعية ويسير فى اتجاه جديد وهو واثق أنه يقود السفينة فى طريق النجاة .

وكان عزلى أيضا يمكن منظمتى من التماس العذر فى حالة فشل المساعى بأن يقال أن الرجل العجوز كان منعزلا واتخذ خطواته بصفة شخصية وليس كممثل للمؤتمر .

وفى خلال أسابيع أرسلت لكوتس اقتراحا بأن نتحادث بشأن بدء مفاوضات وكالمرة السابقة لم أتلق ردا . وكتبت مرة

أخرى دون استجابة . وقررت أن أتحين فرصة أخرى وقد واتتنى فى بدء ١٩٨٦ .

ففى اجتماع الكومنولث فى اكتوبر ١٩٨٥ لم يستطع قادته التوصل الى قرار بشأن فرض العقوبات على جنوب افريقيا لمعارضة مارجريت تاتشر الشديدة لذلك . وللخروج من المأزق تقرر إرسال وفد على مستوى عال لزيارة جنوب إفريقيا لتقرير ما إن كانت العقوبات أداة صحيحة لانهاء الأبارتايد وفى بداية ١٩٨٦ وصلت مجموعة السبع أشخاص بقيادة الجنرال أوسانجو وهو قائد حربى سابق لنيجيريا ، ورئيس استراليا السابق مالكولم فريزر إلى جنوب إفريقيا لتقصى الحقائق .

وفى فبراير زارنى أوسانجو لبحث طبيعة تقرير الوفد وكان حريصا على أن يسجل لقائى بالمجموعة كلها وأدرجت المقابلة فى مايو بموافقة الحكومة . وبعد ذلك كان مقررا للمجموعة أن تتحدث إلى مجلس الوزراء ووجدت ذلك فرصة لاقتراح المفاوضات .

وقد رأت الحكومة أن اجتماعى مع المجموعة مناسبة غير عادية فزارنى البريجادير مونرو وبرفقته حائك لأخذ مقاساتى قبل الاجتماع بيومين . وقال إنهم يريدون لى أن أقابل هؤلاء الناس على وجه المساواة ولايريدون لى أن أقابلهم بثياب السجن . وبعد يومين أحضر الحائك حلة أنيقة كما منحت قميصا وربطة عنق وزوجا من الجوارب وملابس داخلية . وقال

المأمور يومها أننى أبدو رئيسا للوزراء وليس سجينا .

ولحق بنا مراقبان في لقائي مع المجموعة هما كوتسى وويلمس رئيس السجون . ولكن الأمر الغريب هو أنهما انصرفا عقب بداية الاجتماع وحاولت معهما أن يبقيا فرفضا وقلت لهما أن الوقت قد حان للتفاوض بدلا من الاقتتال وأن المؤتمر والحكومة يجب أن يجلسان للتحادث .

وجاءت المجموعة بأسئلة كثيرة تتصل بقضايا العنف والمفاوضات والعقوبات الدولية . وفى البداية أرست قواعد للمناقشة قائلا أننى لست رئيس الحركة وأن الرئيس هو أوليفر تامبو في لوساكا ولابد لهم من اللقاء به وأن آرائى شخصية وإنى لا أمثل حتى آراء زملائى فى السجن وبعد كل شىء فأنا أفضل أن يبدأ المؤتمر محادثات مع الحكومة .

وكان بعض أعضاء المجموعة قلقا بشأن ايديولوجيتى السياسية وماذا ستكون عليه جنوب إفريقيا تحت قيادة المؤتمر وشرحت لهم انتمائي القومى الافريقى وأننى غير شيوعى وأن القومية الافريقية تضم تحت لوائها أشخاصا من مختلف الأعراق والنحل وعن ايمانى بميثاق الحرية الذى يجسد مبادىء الديموقراطية وحقوق الانسان وذكرت اهتمامى بإن تشعر الأقلية البيضاء بالأمان فى جنوب افريقيا وايمانى أن المشاكل القائمة يمكن حلها عن طريق المفاوضات . وبينما لم أستنكر العنف فقد قلت لهم أن العنف لن يوجد الحل النهائى للوضع فى جنوب إفريقيا واقترحت أن تسحب الحكومة الجيش والشرطة من المناطق الافريقية .

وفى تلك الحالة يمكن للمؤتمر الموافقة على تعليق المعركة العسكرية تمهيدا للمفاوضات .

وكانت خطة المجموعة بعد ذلك أن تقابل أوليفر فى لوساكا ومسئولى الحكومة فى بريتوريا وكانت ملاحظاتى قد احتوت على رسائل للطرفين ثم تجتمع اللجنة بى مرة أخرى فى مايو وكنت متفائلا بعد أن زارت اللجنة لوساكا وبريتوريا من بدء المفاوضات . ولكن فى اليوم السابق للاجتماع بإعضاء مجلس الوزراء ، وبناء على أوامر الرئيس بوتا أغارت قوات دفاع جنوب افريقيا وقوات فدائييها على قواعد المؤتمر فى بوتسوانا وزامبيا وزيمبابوى مما سمم جو المحادثات .

دعا أوليفر تامبو ورجال المؤتمر شعب جنوب افريقيا أن يجعلوا البلد مكانا لايمكن السيطرة عليه وأطاع الناس الدعوة ووصلت حال القلق والعنف أقصاها واشتعلت الفوضى فى الأماكن الافريقية وكان الضغط الدولى يقوى كل يوم . وفى يونيو ١٩٨٦ فرضت الدولة حال الطوارىء كمحاولة للتحكم فى الاحتجاج وبدأت الظواهر تنبىء عن استحالة التفاوض . ولكن غالبا ماتكون اللحظات الأكثر احباطا هى المناسبة للمبادرات . وكتبت خطابا إلى ويلمس رئيس السجون لمقابلته وحينما التقينا قلت له أننى أرغب فى مقابلة وزير العدل لأبحث إمكانية التعاون فى كيب تاون وأنه سيدرس الامكانية وبعد مكالمة هاتفية مع الوزير أخبرنى أنه طلب منه أن يحضرنى اليه .

وقضيت مع الوزير ساعات ثلاث فى قصره وبدا مرحبا

ودودا منصتا . وكانت اسئلته تبين مدى إلمامه بالقضايا التى تفصل بين الحكومة والمؤتمر وسألنى عن الظروف التى نتطلبها لايقاف المعركة العسكرية وإن كنت أتحدث نيابة عن المؤتمر وإن كنت قد كونت تصورا عن الضمانات الدستورية للاقليات فى جنوب إفريقيا الجديدة . وسألنى عن الخطوة التى فقلت له إننى أريد أن ألتقى برئيس الجمهورية ووزير خارجيته بيك بوتا فقال إنه سيرسل طلبى عن طريق القنوات الصحيحة وصافحنى وعدت الى زنزانتى .

لم أبلغ أى أحد فقد أردت للامور أن تبدأ قبل اخبار الآخرين فأحيانا يكون من الضرورى أن يعرض المرء على زملائه خطة سياسية كأمر واقع وكنت أعرف أن زملائى فى بولسمور ولوساكا سيوافقوننى بعد دراسة الموقف لكن بعد تلك البداية المبشرة مرت شهور دون أن يأتينى رد من كوتس وكتبت له مرة أخرى .

- ٩١ -

رغم أننى لم أتلق ردا من كوتس فقد كانت هناك مؤشرات أخرى إلى أن الحكومة كانت تستعد لوجود مختلف . ففى اليوم السابق لكريسماس دخل نائب مأمور سجن بولسمور الى زنزانتى بعد الافطار وعرض أن يصطحبنى لنزهة فى المدينة ورغم عدم فهمى قبلت عرضه . وسرت أنا وهو خلال الخمس عشرة بوابة التى تفصل زنزانتى عن المدخل حيث كانت

سيارته في انتظارنا واخذ يتحول لى فى المدينة وشعرت كسائح متشوق فى بلاد غريبة مميزة . وسألنى ان كنت أريد شرابا باردا ولما أومأت اختفى فى محل وجلست بالسيارة متفردا لأول مرة منذ عشرين عاما بدون حراسة وراودتنى فكرة الهرب خاصة وأننى لاحظت منطقة غابات قرب المكان الذى توقفنا به ولكننى رأيت أن مثل ذلك الفعل غير حكيم ولامسئول بجانب خطورته . وشعرت بالراحة حينما عاد بعلبتين من شراب الكوكا كولا .

كانت تلك أول رحلة وخلال الأشهر التى تلت ذهبت مع نائب المأمور إلى المدينة مرارا وإلى أماكن سياحية خارج المدينة وإلى الشواطىء والجبال وبعد ذلك أخذ يسمح لضباط أقل رتبة بموافقتي وأخذنا نرتاد المقاهى وكنت حينئذ أحاول أن أرى إذا ماكان بالامكان لأحد أن يتعرف على ولكن لم يحدث ذلك فلم يحدث أن نشرت لى صورة منذ عام ١٩٦٢ .

وكان لتلك الرحلات أثرها التثقيفى فقد رأيت الحياة وقد تغيرت ونظرا لأننا كنا نذهب إلى مناطق البيض فقد رأيت الثراء غير العادى والرفاهية التى يتمتعون بها . ورغم الاضطرابات التى كانت تعم البلاد ورغم أن مناطق السود كانت على حافة الحرب المعلنة فلم تتأثر حياة البيض وسارت فى سلاسة واطمئنان .

وكنت أعلم أن السلطات لها دوافع غير تسليتى . فقد أحسست أنهم أرادوا لى أن أتأقلم على الحياة فى جنوب

افريقيا وفى نفس الوقت أعتاد على المتعة التى يوفرها لى ذلك القدر الضئيل من الحرية وأصبح متسعدا لتقديم التنازلات فى سبيل الحصول على حريتى كاملة .

- ٩٢ -

أعدت الاتصال بكوتس عام ١٩٨٧ وعقدنا عدة لقاءات سرية فى قصره . وفى الجزء الأخير من ذلك العام تقدمت الحكومة بأول مقترحات ملموسة لها . . فقال كوتس أن الحكومة تود أن تعين لجنة من كبار المسئولين لاجراء محادثات سرية معى وأن ذلك سيكون بعلم من رئيس الجمهورية وسيكون كوتس رئيسا لتلك اللجنة وستضم ويلمس مدير السجون ود . نيل بارنارد وهو أكاديمى سابق وكان يعمل رئيسا لجهاز المخابرات القومى وبما أن هؤلاء على علاقة بنظام السجون فلو حدث وتعثرت المفاوضات أو تسربت أنباؤها إلى الصحافة يصبح بالامكان تغطية الأمر بالقول أننا كنا نبحث أحوال السجون .

وكان وجود بارنارد من دواعى قلقى فقد كان على صلة بالمخابرات العسكرية فقد كان من الممكن تبرير مناقشاتى مع الآخرين لمنظمتى لكن وجوده كان سيجلب المشاكل ويتطلب برنامج عمل أكثر اتساعا وأخبرت كوتس أننى سأفكر فى الاقتراح تلك الليلة . ودرست تشعبات الموقف جميعها فقد كنت أعلم أن بوتا قد أوجد نظاما يدعى مجلس أمن الدولة وهو

سكرتارية مبهجة مكونة من خبراء أمنيين وبعض مسئولى المخابرات . وكان قد فعل ذلك ، كما قالت الصحف ، ليتحاشى سلطة مجلس الوزراء ويزيد من قوته . وكان د . بارنارد الشخص الأساسى فى ذلك التنظيم . وفكرت أننى إذا رفضت بارنارد فسأنفر بوتا وإذا لم ينضم رئيس الجمهورية للمباحثات فإن شيئا لن يحدث . وفى الصباح أخبرت كوتس أننى قبلت اقتراحه .

وكان أمامى أمور حرجة ثلاث علىَّ معالجتها : أولا استطلاع رأى زملائى فى الدور الثالث قبل بداية المحادثات وثانيها وكان أساسيا هو الاتصال بأوليفر فى لوساكا بشأن مايحدث ثم كتابة مذكرة لبوتا عن آرائى وآراء المؤتمر بشأن القضايا الحيوية التى تواجه البلاد تكون بمثابة نقاط محادثات لدى حدوث مناقشات مستقبلية .

وطلبت مقابلة زملائى ودهشت لرفض السلطات ورفعت الأمر الى مسئولين كبار وحصلت على الموافقة .

وعند لقائى بهم فى قسم الزيارات لم أذكر تفاصيل كثيرة وقررت أن استشيرهم فقط بشأن عقد مباحثات مع الحكومة دون ذكر أن هناك لجنة قد شكلت بالفعل . وكان رد وولتر فاترا وعلق أن يود لو أن المبادرة جاءت منهم بدلا من جانبنا وحاولت اقناعه ورأى أننى مصمم فقال أنه لن يقف في طريقي ولكنه يرجو أن أكون أعرف ما أنا بصدده . أما مهلابا فقد تساءل لماذا انتظرت طوال ذلك الوقت وكذلك كان رد

ملانجين . أما كاثرادا فقد وقف ضد الاقتراح وقال إننا بتقديم المبادرة نبدو كأننا نزعن وكان أكثر تصميما من وولتر واختتم قائلا إننى قد اتخذت الطريق الخطأ لكنه لن يقف فى سبيلى .

وبعد ذلك بقليل تلقيت رسالة مهربة من أوليفر تامبو قال فيها أنه قد سمع تقارير عن وجود مناقشات سرية بينى وبين الحكومة وأنه قلق وأنه يعلم أننى قد ظللت وحيدا بعيدا عن زملائى لفترة من الوقت . وكانت مذكرته مقتضبة وفى لب الموضوع وكان يود أن يعرف ما أتباحث بشأنه ولم ترد احتمالية الشك فى خيانتى لكن لهجته كانت تدل على اعتقاده أننى أخطأت الحكم .

وأرسلت إليه خطابا مختصرا جدا أخبرته فيه أننى كنت أتباحث مع الحكومة حول نقطة واحدة فقط واحدة وهى عقد لقاء بين اللجنة المركزية للمؤتمر وحكومة جنوب إفريقيا ولم أخبره بالتفاصيل حيث أننى لم أكن أثق فى سرية المراسلات . وببساطة أخبرته أن الوقت قد حان للتفاوض وأننى لن أورط المؤتمر بأية طريقة .

- ٩٣ -

وعقد أول لقاء رسمى فى نادى الضباط الفخم الملحق ببسلمور فى مايو ١٩٨٨ ولم أكن قد رأيت فان ديرميروى أو بارنارد من قبل . وكان الأول هادئا متزنا لايتكلم إلا عندما

يكون لديه مايقوله أما بارنارد فكان فى منتصف الثلاثينات وكان شديد الذكاء والتحكم فى النفس . واستمرت اللقاءات تعقد كل إسبوع لعدة أشهر وبعد ذلك كانت تعقد على فترات غير محددة وكانت تقل أحيانا وتتكلم أحيانا أخرى وكانت الحكومة هى التى تنظم الاجتماعات ولكنى كنت أحيانا أطالب بعقد جلسة واكتشفت أنه خلافا لبارنارد لم يكن أحد من أعضاء اللجنة يعلم الكثير عن المؤتمر وكان جميعهم أفريكان متفتحى الأفق لكنهم كانوا ضحية الدعايات لذا كان من الضرورى تصحيح بعض النقاط .

وشرحت لهم تاريخ المؤتمر ومواقفنا من القضايا الرئيسية الأمر الذى يجعلنا نختلف مع الحكومة وبعد ذلك بحثنا الكفاح المسلح والتحالف مع الشيوعيين وهدف حكم الأغلبية وفكرة التآلف العرقى .

واستغرقنا شهورا فى مناقشة الكفاح المسلح حيث أصروا على أن يتخلى المؤتمر عن العنف قبل أن توافق الحكومة على المفاوضات وقبل أن ألتقى بالرئيس بوتا وأجبتهم بأن الدولة مسئولة عن العنف لأنها تستعمله وفى حالتنا فهو دفاع مشروع عن النفس وقلت أن الدولة إذا لجأت إلى طرق سلمية فسنستخدم طرقا سلمية ورغم أنهم بدأوا يتفهموا تلك النقطة فقد بدت العقبات العملية للموقف . فقد كان حزب القوميين قد أعلن أنه لن يتفاوض مع منظمة تستخدم العنف فإن بدأوا مثل تلك المفاوضات فقدوا مصداقيتهم وقالوا إنه لكى نصل الى نقطة بدء فعلى المؤتمر أن يقدم تنازلات لتستطيع الحكومة

مواجهة شعبها . ورغم تفهمى لموقفهم فلم أقدم لهم الحل قائلا بان مهمتى ليست حل مشاكلهم فأن عليهم أن يخبروا مواطنيهم أنه لن يكون هناك سلام بدون مفاوضات مع المؤتمر . أما بشأن تحالفنا مع الشيوعيين فقد بينت لهم أن المؤتمر والحزب منظمتان مختلفتان مستقلتان رغم اشتراكهما فى الأهداف القريبة المدى ولكن أهدافنا البعيدة المدى مختلفة . واستمرت المناقشة حول تلك النقطة أشهر وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أنه بما إن معظم الشيوعيين بيض أو هنود فإنهم بالتالى يتحكمون فى أعضاء المؤتمر السود وحاولت دحض هذا الادعاء بالبراهين لكنهم لم يقتنعوا . وأخيرا انفجرت قائلا أنه برغم كونهم أربعة بيض وأنهم ينظرون لأنفسهم على أنهم أذكياء فقد مضت أشهر دون أن يفلحوا فى تغيير رأيى .

وكانوا أيضا قلقين بشأن قضية التأميمات التى فكرت فى ميثاق الحرية فذكرت لهم إننا نهدف إلى توزيع اكثر عدالة لعائد بعض الصناعات التى هى فى الواقع احتكارات وأن التأميمات ستنتصر على ذلك فقط وذكرتهم بما كتبته فى صحيفة ليبراشن من أن الميثاق ليس اعلان مبادىء للاشتراكية لكن لرأسمالية إفريقية وأننى لم أغير رأيى منذ ذلك الوقت .

وتناقشنا حول الأقليات تحت حكم الأغلبية وكيف للمؤتمر أن يضمن حقوقها فذكرت لهم أن المؤتمر هو المنظمة الوحيدة،

فى جنوب إفريقيا التى تسعى إلى توحيد كل الأعراق وأنها تعتبر البيض إفريقيين ولاتريد أن تلقيهم فى البحر .

- ٩٤ -

وكانت النتيجة الايجابية للمحادثات أننى علمت فى صيف ١٩٨٨ أن رئيس الجمهورية يخطط لزيارتى قبل نهاية أغسطس . وكانت البلاد فى حالة من الاضطرابات وأعادت الحكومة فرض قانون الطوارىء في ١٩٨٧ ، ١٩٨٨ وكان الضغط الدولى يتعاظم وترك عدد أكبر من الشركات جنوب افريقيا وأقر الكونجرس الأمريكى قانون مقاطعة شاملة .

وفى عام ١٩٨٧ احتفل المؤتمر بعيد ميلاده السابع والخمسين وحضر مؤتمره فى تنزانيا وحضره مندوبون عن أكثر من خمسين أمة وأعلن أوليفر أن المقاومة ستتعاظم حتى تعلن الحكومة استعدادها للمفاوضة لالغاء الأبارتايد .

كان قد تم قبل عامين الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على الميثاق تم أثناؤها انتخاب اعضاء من أعراق مختلف للجنة المركزية ووعدت اللجنة ألا تتم أى مناقشات مع الحكومة حتى يفرج عن قادة المؤتمر .

وعلى الجانب الآخر زادت قوة الحزب القومى وكسب أغلبية ساحقة فى انتخابات ١٩٨٧ واحتل المحافظون بدل الحزب التقدمى مقاعد المعارضة وكانوا يتهمون القوميين بالتراخى مع المعارضة السوداء .

ورغم تفاؤلى بشأن المحادثات السرية فقد كانت الأوقات صعبة وزارتنى وينى وأخبرتنى أن بيتنا في أورلاندو قد حرق وقد خسرنا بعض وثائق الأسرة القيمة . ومرضت بعد ذلك وقرر الطبيب نقلى إلى مستشفى تايجر بيرج الجامعى فى كيب تاون وسط حراسة مشددة وبعد إخلاء المدخل تماما رافقونى إلى طابق كان قد أخلى أيضا ووضع به عدد كبير من الحرس خوفا من تعاطف الطلبة معى وأخبرنى الطبيب أن إصابتى خفيفة وأننى يمكننى مغادرة المستشفى فى اليوم التالى .

وفى الصباح حضر طبيب آخر وفحصنى وقال إنه توجد مياه برئتى ثم نقلت الى غرفة العمليات حيث تم تخديرى وسحب ٢ لتر من المياه من صدرى وبعد فحص السائل اكتشفت به جرثومة سل ولكن مرضى كان مايزال فى المرحلة الأولى وقال الطبيب أنه لن يلزمنى أكثر من شهرين للشفاء ثم نقلت بعد اسبوعين الى عيادة فخمة قرب بولسمر لم يدخلها أسود من قبل . وفى صباح يوم لى هناك تلقيت زيارة مبكرة من كوتس برفقته الميجور ماريس الذى كان مسئولا عن حراستى .

وبعد استقرارى فى المستشفى بدأت الاجتماعات مرة أخرى بينى وبين كوتس وأعضاء اللجنة . وأثناء وجودى هناك صرح كوتس بأنه يريد أن يضعنى فى موقف أكون فيه فى منتصف الطريق بين حالة التحفظ والحرية . وشعرت ان ذلك يعنى خطوة على سبيل الحرية .

وكان المستشفى مريحا . واستمتعت لأول مرة بفترة نقاهتى . وكانت الممرضات البيض والملونات يفرطن فى تدليلى وكن يأتين لزيارتى حتى فى أوقات راحتهن . وحدث أن أخبرتنى إحدى الممرضات أنهن سيقمن حفلة ولابد أن أحضرها لكن سلطات الأمن منعت ذلك . فأقامت الممرضات الحفلة فى غرفتى .

- ٩٥ -

وفي بداية ديسمبر ١٩٨٨ شددت الحراسة على جناحى فى المستشفى وفى مساء ٦ ديسمبر أخبرنى رئيس الحرس أن أجهز نفسى للرحيل ولما سألته إلى أين أجاب أنه لايعرف .

وغادرت المستشفى على عجل وبعد ساعة فى الطريق أخذت إلى سجن فيكتور فيرستر فى الكيب القديمة التى تبعد حوالى خمسة وثلاثين ميلا إلى الشمال الشرقى من كيب تاون . وكان سجنا نموذجيا ودخلناه بالسيارة حتى وصلنا إلى كوخ من طابق واحد يقع خلف جدار أسمنتى وتظلله أشجار التنوب الطويل . وبالداخل كان هناك غرفة جلوس متسعة ومطبخ كبير وغرفة نوم أكثر اتساعا فى الجزء الخلفى . كما كان هناك حوض للسباحة فى الفناء الخلفى وغرفتى نوم صغيرتين إضافيتين . أما الشىء الوحيد الذى أفسد تلك الرعاية فكان الجدار الذى تعلوه الأسلاك الشائكة .

وبعد الظهر زارنى كوتس وأحضر معه هدية بمناسبة انتقالى للمنزل الجديد وتفقد المنزل وقال إن الجدار يجب أن يرتفع أكثر لضمان عزلتى وقال إن سبب نقلى هو إيجاد مكان لاجراء مباحثات فى جو من السرية والراحة .

وكان المكان يوهم الفرد بالحرية فقد كان بإمكانى أن أنام أو أستيقظ حسب ما أريد ، وأن أسبح ، وآكل حينما أشعر بالجوع وكانت تلك مشاعر لذيذة . فقد كان من البهجة أن يتمكن المرء أن يخرج أثناء النهار للنزهة حينما يريد . ولم يكن هناك قضبان أو مفاتيح تصلصل أو أبواب توصد وتفتح . لكني لم أنس قط أنه قفص ذهبى .

وأمدتنى السلطات بطاه وكان يعمل سابقا فى جزيرة روبن . وكان ماهرا ويعد ولائم فخمة لمن يزوروننى وكان عددهم قد بدأ فى التزايد .

واستمرت اجتماعات اللجنة وتعثرنا بسبب نفس القضايا التى كانت قد منعت تقدمنا وهى المعركة المسلحة والحزب الشيوعي وحكم الأغلبية . وأخذت أحث كوتس على ترتيب اجتماعي بالرئيس بوتا وكانت السلطات قد سمحت لى باجراء اتصالات أولية مع زملائى فى بولمسور وجزيرة روبن والمؤتمر فى لوساكا فلم أكن أريد أن أتقدم على الطريق بمفردى .

وفى يناير ١٩٨٩ زارنى رفاقى الأربعة من بولسمور وناقشنا المذكرة التى كنت على وشك إرسالها لرئيس الجمهورية وكانت ترديدا للنقاط التى ناقشتها مع اللجنة ولكنى أريد التأكد من أن رئيس الجمهورية قد سمعها منى مباشرة واقترحت فيها معالجة مطالب الحكومة الثلاثة من المؤتمر كشرط لبدء المفاوضات وذكرت أن وقف أعمال العنف من قبل المؤتمر ليس هو المشكلة ولكن المشكلة هى أن الحكومة غير مستعدة بعد لمشاركة السود فى القوة السياسية وشرحت أسباب عدم رغبتنا فى الانفصال عن الحزب الشيوعى ذاكرا أننا لسنا تحت سيطرتهم ثم ذكرت أنه ليس هناك شخص شريف يتخلى عن صديق حياته نتيجة لاصرار عدو مشترك ويبقى على مصداقيته مع الشعب وأضفت أن رفض حكم الأغلبية من قبل الحكومة هى محاولة للابقاء على السلطة واقترحت عليه أو يواجه الواقع ذاكرا أن حكومة الأغلبية والسلام هما وجهان لعملة واحدة وعلى جنوب افريقيا البيضاء أن تقبل ذلك وفى النهاية تقدمت باطار مبدئى للمفاوضات وهو معالجة قضيتين أساسيتين وهما مطلب حكومة الأغلبية والثانى قلق جنوب افريقيا البيضاء من هذا المطلب بالاضافة إلى أصرار البيض على ضمانات بنيوية لضمان ألا تسود الأغلبية السوداء الأقلية البيضاء . وأضفت أن المهام الحرجة التى ستواجه الحكومة والمؤتمر هى محاولة التوفيق بين الموقفين . ثم اقترحت أن يتم ذلك على مرحلتين أولهما اجراء مناقشات لخلق ظروف مناسبة للمفاوضات وثانيهما اجراء المفاوضات ذاتها .

وكان أن حدث تأخير فقد أصيب الرئيس بوتا فى يناير بجلطة وهى إن كانت لم تعجزه فقد أضعفته أصبح طبقا لوزرائه شخصا سريع الغضب ثم فجأة استقال كرئيس لحزب القوميين فى شهر فبراير وكان ذلك موقف لم يحدث مثيله فى تاريخ جنوب افريقيا حيث يصبح رئيس الأغلبية فى البرلمان رئيسا للجمهورية .

واستمرت أعمال العنف السياسية والضغط الدولى فى التعاظم . وقام المسجونون السياسيون فى جميع انحاء البلاد باضراب عن الطعام ـ نتج عنه الافراج عن تسعمائة متهم وفى ١٩٨٩ كونت الجبهة الديمقراطية المتحدة تحالفا مع مجلس الاتحادات التجارية لجنوب إفريقيا وكونا الحركة الديمقراطية الجماهيرية M.D.M ' التى بدأت فى تنظيم حملة تحد وعصيان فى جميع أنحاء البلاد لتحدى قوانين الأبارتايد . وعلى الجانب الدولى أجرى أوليفر تامبو مباحثات فى بريطانيا والاتحاد السوفييتى وفى يناير ١٩٨٧ التقى بوزير الدولة الأمريكى جورج شولتز فى وشنطن واعترف الامريكيون بالمؤتمر عنصرا لايمكن الاستغناء عنه فى أى حل فى جنوب إفريقيا وتزايدت العقوبات ضد جنوب أفريقيا .

وكان للعنف السياسى جانبه المأساوى فبازدياد أعمال العنف فى سويتو سمحت زوجتى لمجموعة من الشباب أن يكونوا حرسا خاصا لها أثناء تحركاتها فى المنطقة وكان أولئك الشباب غير مدربين وغير منظمين وتورطوا فى نشاطات غير لائقة بحركة التحرر . ونتيجة لذلك تورطت وينى من الناحية

القانونية فى محاكمة أحد حراسها الذى اتهم بقتل زميله . وقد تسبب ذلك الموقف فى ارباكي الشديد حيث أن فضيحة كتلك عملت على تفريق الحركة وقد كانت الوحدة شيئا أساسيا . وقد أيدت زوجتى تأييدا تاما وأكدت أنها رغم حكمها السليم في الموضوع فإنها بريئة من أى تهمة خطيرة .

وفى يوليو ، وفى عيد ميلادى الحادى والسبعين زارنى جميع أفراد أسرتى فى السجن وكانت تلك أول مرة أجتمع فيها بزوجتى وأبنائى وأحفادى فى مكان واحد وكانت مناسبة عظيمة . وأعد الطباخ وليمة فخمة وكان ذلك مصدر سعادة عميقة لى رغم ألمى لأننى لم أنعم أبدا بمثل تلك المناسبات لسنوات طويلة .

وفى ١٤ يوليو زارنى جنرال ويليمس وأخبرنى أننى سأذهب لمقابلة رئيس الجمهورية فى اليوم التالى ووصف الزيارة بأنها للمجاملة . وطلبت حلة وربطة عنق من أجل المناسبة حيث أن الحلة الأخرى كانت قد اختفت . وأعددت نفسى بكل ما أملك وراجعت مذكرتى والملاحظات المطلوبة التى ألحقتها بها وقرأت صحفا كثيرة ومطبوعات للتأكد أننى على علم بما استجد فقد حدث بعد استقالة الرئيس من رئاسة الحزب القومى أن انتخب دى كلارك مكانه وكان هناك حديث عن مناورات كثيرة بين الاثنين . وأخذت أتدرب على

المحاورات التى قد يأتى بها رئيس الدولة وعلى ردودى عليها . فعند لقاء خصم فعلى المرء أن يتأكد أنه ترك الأثر الذى يبغيه .

وكان بوتا يعرف بالتمساح الكبير وتخيلته نموذجا للأفريكانى المتكبر المتحجر الذى لايناقش الأمور مع قادة افريقيين بل يملى عليهم مايريد .

وفى الخامسة والنصف صباحا حضر مأمور القسم إلى غرف الجلوس حيث وقفت أمامه فى حلتى الجديدة للفحص وسار حولى ثم اعترض على الطريقة التى ربطت بها رباط عنقى حيث قد نسيت كيف أعالجها نظرا لطول إقامتى فى السجن . وقام المأمور بحلها وإعادة ربطها .

وذهبنا بالسيارة الى منزل جنرال ويلمس فى بولسمور حيث قدمت زوجته لنا طعام الافطار ثم ذهبنا إلى المكتب الرسمى لرئيس الجمهورية حيث أوقفوا السيارة فى الجراح تحت الارض لكيلا يرانا أحد وقاموا بتهريبى إلى جناح رئيس الجمهورية وهناك قابلنا كوتس وبارنارد ومجموعة من مسئولى السجون وكان كوتس وبارنارد فى محادثات سابقة قد نصحانى أن أتحاشى القضايا الجدلية مع الرئيس وبينما ننتظر نظر بارنارد إلى أسفل ولاحظ أن ربطة حذائى لم تكن كما يجب فركع على الأرض وقام بربطها وفتح الباب ودخلت وأنا أتوقع الأسوأ .

وفي الاتجاه المقابل في مكتبه الفخم سار بوتا نحوى وكان قد خطط لسيره جيدا حيث التقينا في منتصف الغرفة تماما . ومد إلى يده مبتسما وفي الحقيقة فقد سرني منذ اللحظة الأولى فقد كان مجاملا مبجلا وودودا .

وبسرعة وقفنا لالتقاط صورة لنا نحن الاثنين ونحن نتصافح وبعد ذلك لحق بنا كوتس وويلمس وبارنارد على المائدة المستطيلة وبدأنا الحديث ، وبدونا كما لو كنا في حلقة دراسية ولسنا في مناقشة سياسية مربكة ولم نناقش القضايا الجوهرية بقدر حديثنا عن تاريخ وحضارة جنوب إفريقيا وذكرت أنني قد قرأت مؤخرا مقالا في مجلة أفريكانية عن ثورة الأفريكان عام ١٩١٤ وعن احتلالهم لمدن في الولاية الحرة وذكرت لهم أنني أرى في حركتنا توازيا مع تلك الحركة . وكانت وجه نظرهم أن عصيانهم كان شجارا بين أخوين أما معركتنا فهي ثورية فقلت أنه ممكن النظر اليها على أنها معركة بين أخوين من لونين مختلفين ولم يستمر الاجتماع أكثر من نصف ساعة وكان مليئا بالود واللطف حتى النهاية . وهنا أثرت قضية الافراج عن جميع السجناء السياسيين وكانت تلك هي لحظة الارتباك الوحيدة في الاجتماع وأجاب بوتا أنه لايستطيع أن يفعل ذلك

ثم ناقشنا بإيجاز مايجب قوله إذا تسربت أنباء الاجتماع وقمنا بكتابة بيان موجز قلنا فيه إننا تقابلنا لتناول الشاي في محاولة لنشر السلام في البلاد . وبعد ذلك صافحني بوتا

وشكرته وذهبت بالطريقة التى أتيت بها . وشعرت أنه رغم عدم تقدم المباحثات فلا مجال للعودة للوراء .

وبعد أكثر من شهر بقليل ذهب بوتا إلى التليفزيون القومى ليعلن استقالته من منصب رئيس الجمهورية واتهم فى خطابه الوداعى أعضاء وزارته بأنهم يتيحون الفرص لأعضاء المؤتمر . وفى اليوم التالى حلف دى كلارك اليمين كقائم بأعمال رئيس الجمهورية واكد التزامه بالاصلاح والتغيير .

وبالنسبة لنا فلم يكن دى كلارك يعنى شيئا ولم يكن هناك فى تاريخه مايشير الى روح الاصلاح . وكوزير للتعليم فقد حاول منع الأفارقة من الالتحاق بجامعات البيض . ومن خطاباته وكلماته بعد توليه رئاسة الحزب القومى تبينت أنه ليس شخصا ايديولوجيا بل شخصا براجماتيا ، رجل رأى أن التغيير ضرورى ولا محالة منه .

وفى اليوم الذى حلف فيه اليمين كتبت له خطابا أطلب مقابلته . وكان قد قال فى خطابه الأول أن حكومته ملتزمة بالسلام ومستعدة للتفاوض مع أى مجموعة تلتزم بالسلام . ولكنه برهن على التزامه بنظام جديد حينما نظمت مسيرة بعد تنصيبه للاحتجاج على وحشية الشرطة بقيادة الأسقف توتو والمبجل الآن بوساك وكانت مثل تلك المسيرة لابد وأن تمنع تحت حكم بوتا وكان المشتركون لابد وأن يتحدوا المنع مما كان سيؤدى إلى أعمال عنف . لكن الرئيس الجديد نفذ ماوعد به وسمح للمسيرة أن تحدث فقط طلب من المشتركين أن تظل المسيرة سلمية .

وبعد تولى دى كلارك الرياسة استمرت الاجتماعات بينى وبين اللجنة ولحق بنا جيريت فيلجون وزير التطورات الدستورية وكان رجلا نابها ويحمل الدكتوراه فى الكلاسيكيات وكان دوره أن يؤطر مناقشاتنا فى إطار دستورى .

وأعدت مطلبى بشأن اطلاق سراح المسجونين السياسيين فى بولسمور وجزيرة روبن بدون شروط ذاكرا أن للحكومة أن تتوقع منهم تصرفات نظامية بعد اطلاق سراحهم كما أثبت ذلك جوفان مبيكى وكان قد أطلق سراحه فى نهاية ١٩٨٧ .

وفى اكتوبر ١٩٨٩ أعلن دى كلارك اطلاق ريموند مهلابا وأحمد كاثرادا وأندروا ملانجيين وإلياس موتسوليدى وجيف ماسيمولا وولتن مكوايبى وأوسكار مبيثا . وفى ذلك الصباح زارنى وولتر وكاثرادا وريموند وأندرو وكانت لحظة مشحونة بالعواطف . ولكنى كنت أعرف أن دورى قد أقترب .

وكان الافراج عنهم مقرونا بعدم الحظر أى أنه كان بامكانهم التحدث باسم المؤتمر مما كان يعنى رفع الحظر عن المنظمة نفسها .

وبدأ دى كلارك يهدم قوالب بناء الأبارتايد ففتح شواطىء جنوب افريقيا للمواطنين من جميع الألوان ووعد بالغاء القانون الذى لايسمح بالاختلاط فى الحدائق والمسارح والمطاعم

والحافلات والمكتبات والمراحيض وغيرها من المنشآت العامة وفى نوفمبر أعلن حل ادارة الأمن القومى السرية التى كان قد أنشأها بوتا لمجابهة قوى المعارضة للأبارتايد .

وفى أوائل ديسمبر أبلغت بأننى سأقابل دى كلارك فى الثانى عشر من الشهر وأنه يمكننى فى تلك الأثناء التشاور مع زملائى القدامى والجدد وعقدت إجتماعات معهم ومع قادة المنظمات الأخرى الموالية للمؤتمر ومع رجال المؤتمر من جميع الأقاليم . ومن بين قابلتهم كان سيرل رامفانوسا السكرتير العام للاتحاد القومى لعمال المناجم وأحد أقدر قيادات الجيل الجديد كما زارنى زملاء من جزيرة روبن ومن بين هؤلاء « رعب » ليكوتا وطوكيو سيكسويل .

وبإرشاد عدد من الزملاء كتبت خطابا لدى كلارك يماثل ذلك الذى كتبته لبوتا عن المباحثات بين الحكومة والمؤتمر وذكرت عدم قبولنا اشتراطات مسبقة للمفاوضات وخاصة وقف الكفاح المسلح . وذكرت أن أول خطوة للتوافق هى هدم الأبارتايد وجميع مايدعمه . ثم أضفت أنه لم يتخذ خطوات لدعم الأمل الذى أحياه خطابه الافتتاحى ولكن بدلا من ذلك فإن الحكومة تعقد المحادثات مع القيادات السوداء للمواطن الافريقية ، تلك القيادات الظالمة التى ترفضها جماهير جنوب افريقيا السوداء . ورددت اقتراحى بشأن مرحلتى المحادثات وقلت أننى أؤيد الخطوط التى تبناها المؤتمر فى اعلان هرارى لسنة ١٩٨٩ الذى حمل الحكومة مسئولية إزالة العقبات التى أوجدتها الدولة من طريق المحادثات وأن تلك المطالب تتضمن

الافراج عن المسجونين السياسيين ورفع الحظر عن المنظمات والأشخاص وانهاء حالة الطوارىء ونقل القوات من المناطق الافريقية وقلت أن اتفاقا لوقف اطلاق النار من الجانبين يجب أن يكون أول خطوة فى العمل . وسلم الخطاب الى دى كلارك قبل اجتماعنا بيوم .

ومن البداية لاحظت أن دى كلارك كان ينصت لما أقول . وأكدت فى حديثى معه على خطة الخمس سنوات لحزب القوميين الخاصة بحقوق المجموعات والتى ترتكز حول فكرة عدم أحقية أى مجموعة عرقية فى التفوق على أى مجموعة أخرى .

ورغم تعريف الخطة « لحقوق المجموعات » على أنها وسيلة لحماية حقوق الأقليات فى جنوب إفريقيا الجديدة فإن الهدف الحقيقى منها كان الحفاظ على سيادة البيض . وأخبرت دى كلارك أن ذلك أمر لايقبله المؤتمر وأضفت أن ذلك يعطى انطباعا أنه يريد تحديث الأبارتايد دون التخلى عنه ، وأن النظام الظالم لايمكن اصلاحه ولكن يجب التخلى عنه . وأضفت أن المؤتمر لم يقاوم الأبارتايد لمدة خمس وسبعين عاما لكى يخضع لشكل مستتر منه .

وكانت من مميزات دى كلارك أنه أنصت لما قلت دون أن يناقش ثم قال لى إن هدفه لايختلف عن هدفى وذكر أن مذكرتى إلى بوتا ذكرت أن علينا معالجة مخاوف البيض من سيادة السود وأن قانون حقوق المجموعات هى طريقته

لمعالجة تلك المشكلة . ولكنى قلت إن الفكرة تزيد من مخاوف السود أكثر من ازالتها لمخاوف البيض فرد قائلا ان عليه إذن تغيير القانون .

ثم ناقشت بعد ذلك موضوع حريتى وقلت له إن كان يتوقع أن أذهب الى المراعى بعد الافراج عنى فهو خاطىء ذاكرا أنه إذا تم الافراج عنى تحت نفس الظروف التى دخلت فيها السجن فإننى سأفعل مافعلت وأدى بى إلى السجن .

وقلت له إن أفضل مايمكن عمله هو رفع الحظر عن المؤتمر والمنظمات الأخرى ورفع حالة الطوارىء والافراج عن السجناء والسماح للمنفيين بالعودة فإنه إن لم ترفع الحكومة الحظر عن المؤتمر فإنى سأعمل لمنظمة محظورة بعد الافراج عنى .

ورد قائلا أنه سيتدارس الأمر لكنه لايستطيع الوعد بشىء . وكانت المقابلة استطلاعية حيث كنت أعرف أنه لن يتخذ قرارا ذلك اليوم . وكتبت إلى زملائى فى لوساكا قائلا أن دى كلارك يمثل تغييرا عمن سبقوه فى قيادة الحزب القومى ثم اقتطفت ماقالته تاتشر عن جورباتشوف من أنه رجل يمكن العمل معه .

فى ٢ فبراير ١٩٩٠ وقف دى كلارك ليلقى خطاب الافتتاح

أمام البرلمان وفعل حينئذ ما لم تفعله أى رئيس لجنوب أفريقيا من قبل فقد بدأ فى هدم نظام الأبارتايد ووضع أسس جنوب افريقيا الديمقراطية . فقد أعلن بطريقة درامية رفع الحظر عن المؤتمر والـ P.A.C والحزب الشيوعى الأفريقي وإحدى وثلاثين منظمة أخرى قانونية والافراج عن السجناء السياسيين المحجوزين بسبب نشاطات غير أعمال العنف وتعليق عقوبة الاعدام ورفع كافة التقييدات المفروضة بسبب حالة الطوارىء ثم قال إن الوقت قد حان للتفاوض . وبذلك ، وبخطوة شاملة واحدة طبع دى كلارك الوضع فى جنوب إفريقيا وتغيرت الحياة فى ليلة واحدة .

واستحسن العالم خطوات دى كلارك الجريئة . لكن وسط تلك الأنباء الطيبة احتج المؤتمر على عدم رفع حالة الطوارىء رفعا تاما وعلى عدم سحب القوات من المناطق الافريقية .

وفى يوم ٩ فبراير أبلغت أنى سأقابل دى كلارك ووجدته مبتسما فى مكتبه وتصافحنا وأبلغنى أنه سيفرج عنى فى اليوم التالى . فأجبته قائلا أنه بالرغم من أننى قد أبدو ناكرا للجميل فإننى أفضل أن أبقى فى السجن إسبوعا آخر حتى تستعد أسرتى ومنظمتى لاطلاق سراحى لأن إطلاق سراحى بتلك الطريقة قد ينجم حالة من الفوضى . وأدهشت إجابتى دى كلارك ولكنه استمر فى تفاصيل خطة الافراج عنى وقال إن الحكومة ستنقلنى بالطائرة إلى جوهانسبرج وسيتم الافراج عنى رسميا هناك . ولكنى عارضت ذلك فقد كنت أريد أن أخرج من بوابة سجنى الحالى لأتمكن من شكر هؤلاء

الذين رعوني هناك وأحيي أهل كيب تاون فرغم أنني من جوهانسبرج فقد كانت كيب تاون موطنا لى لما يقرب من ثلاثة عقود وكنت أريد أن أجد طريقى الى جوهانسبرج حينما أريد وليس فى الوقت الذى تريده الحكومة . فقلت له إننى أعرف كيف أرعى نفسى حينما يطلق سراحي مما أصابه بالدهشة مرة أخرى فترك مكتبه للتشاور مع الآخرين وعاد قائلا إن الوقت قد تأخر بالنسبة لتغيير الخطة فرددت مطالبى وكانت لحظة حرجة ولم يتمكن أحد منا وقتها أن يرى المفارقة الناتجة عن طلب السجين عدم الافراج عنه بينما يحاول السجان تنفيذ الافراج . وخرج من الغرفة مرة أخرى وعاد بعد عشر دقائق ليقول أنه بالرغم من إمكانية الافراج عنى من سجني الحالى فإن عملية الافراج لن تتأجل فقد تم إبلاغ الصحافة الأجنبية بموعد الافراج . وقبلت .

ولم أعد إلى كوخى إلا قبيل منتصف الليل حيث أبلغت زملائى فى كيب تاون نبأ الافراج عنى وبعثت رسالة إلى وينى وتحدثت هاتفيا مع وولتر فى جوهانسبرج وفى ذلك المساء حضر أعضاء ماعرف بلجنة الاستقبال القومية من المؤتمر إلى الكوخ لكتابة البيان الذى سألقيه صباح اليوم التالى وذهبوا فى ساعات الصباح الأولى .

الجزء الحادى عشر

الحرية

- ١٠٠ -

استيقظت يوم إطلاق سراحى بعد نوم استمر سويعات قليلة . وكان يوم ١١ فبراير يوما مشرقا من أيام نهاية الصيف فى كيب تاون . وقمت بعمل تدريباتى الرياضية ، واغتسلت وأفطرت ثم تكلمت بالهاتف مع عدد من أعضاء المؤتمر والجبهة الديمقراطية فى كيب تاون أدعوهم للحضور ليعدوا للافراج عنى ويراجعوا كلمتى . وحضر طبيب السجن لفحصى . وكانت هناك أمور عديدة يجب مناقشتها وتقريرا أمرها فى ذلك الوقت القصير . وكان عدد من أعضاء لجنة الاستقبال من بينهم سيرل رفاموسا وتريفور مانويل قد وصلوا . وكان أول شىء يجب تقريره هو أين أقضى أول ليلة بعد الافراج عنى وكان بودى قضاؤها فى منطقة الملونين والسود فى كيب تاون لاظهار تضامنى معهم ولكن زوجتى وأعضاء اللجنة رأوا أن أقضى الليلة فى منزل الأسقف توتو الفخم فى ضاحية بيضاء غنية لم يكن ليسمح لى بالعيش فيها قبل ذهابى إلى السجن ورأيت أن ذلك قد يكون مؤشرا خاطئا ولكن أعضاء اللجنة قالوا إن المنطقة فى وجود الأسقف أصبحت متعددة الأعراق ورمزا للانفتاح اللاعرقى .

وكان موعد الافراج عنى قد حدد له الساعة الثالثة لكن وولتر وويني وآخرين الذين كان مقررا وصولهم على طائرة مؤجرة من جوهانسبرج لم يصلوا إلى ما بعد الثانية وكان هناك عشرات في المنزل وأخذ الجمع مظهر الاحتفال وأعد الطاهي وجبة نهائية لي وشكرته ليس فقط على الطعام بل على رفقته لي لمدة عامين وحضر حارسي جيمس جريجوري وعانقته بحرارة فقد كان قد رعاني منذ بولسمور وحتى سجني الحالي ولم يحدث أن تناقشنا قط في السياسة لكن الرابطة بيننا كانت بلا كلمات .

وكان رجال كهؤلاء قد دعموا ايماني بجوهر الانسان حتى بالنسبة لهؤلاء الذين أبقوني خلف الجدران لسبعة عشرين عاما .

كانت الخطة أن أخرج أنا وويني من البوابة الأمامية بالسيارة وكنت قد أخبرت السلطات أني أود وداع الحراس والسجانين الذين رعوني وقد طلبت أن يتواجدوا هم وأسرهم عند البوابة لأتمكن من شكرهم بنفسي .

وبعد الثالثة بدقائق اتصل بي مسئول معروف من إذاعة جنوب افريقيا وطلب أن أنزل من السيارة بعيدا عن البوابة كي يمكنهم التقاط فيلم لي وأنا أسير نحو الحرية ووافقت .

وبدأت أقلق في الثالثة والنصف حيث أننا كنا قد تأخرنا . وقبل الرابعة تحركت السيارات في موكب صغير وقبيل البوابة بما يقرب من ربع ميل ترجلت وويني لنسير في اتجاه البوابة .

وفى البداية لم أتبين ماكان يحدث أمامنا ولكن حين اقتربت رأيت اضطرابا هائلا وجموعا غفيرة . فقد كان هناك مئات المصورين وكاميرات تليفزيونية ورجال صحافة وعدة آلاف من المؤيدين . وتملكنى الذهول والانزعاج فلم أكن أتوقع ذلك .

فقد ظننت أنه سيكون هناك بضع عشرات بما فيهم السجانون وأسرهم . ولكن فقد كانت تلك فقط البداية ولم نكن أعددنا لما كان على وشك أن يحدث .

وأخذت الكاميرات تحدث أصواتها المعدنية وأخذ المراسلون يتصايحون بأسئلتهم كما بدأت فرق التليفزيون فى التزاحم وكان مؤيدى المؤتمر يتصايحون ويهتفون .

كانت حال من الفوضى السعيدة . وحينما دفع الى فريق تليفزيونى بشيء غامق فروى المملس تراجعت قليلا ظنا منى أن ذلك سلاح تم إختراعه أثناء تواجدى فى السجن فأخبرتنى وينى أنه مكبر للصوت .

وحينما توسطت الجمع رفعت قبضتى اليمنى وحدث صخب هائل فلم أكن قد تمكنت من فعل ذلك منذ سبعة وعشرين عاما وأمدنى ذلك بفيض من القوة والبهجة ومكثنا قليلا وسط الجموع قبل أن نسرع إلى سيارتنا مر أخرى لنذهب باتجاه كيب تاون وبعد عبور البوابة ركبنا عربة أخرى خارجها . وشعرت وكنت فى الحادية والسبعين أن حياتى تبدأ من جديد . فقد انتهت الأيام العشرة آلالف لسجنى .

وكانت كيب تاون تقع على بعد خمسة وثلاثين ميلا إلى الجنوب الشرقى . لكن نظرا للازدحام لكن ما أدهشنى رؤية العديد من الأسر البيضاء تقف على جانب الطريق للقائى قد سمعوا فى الاذاعة أننا قد غيرنا مسارنا ، ورفع قليل منهم قبضاتهم بتحية المؤتمر وأمدنى هؤلاء الشجعان الذين ينتمون لأسر محافظة فى منطقة ريفية والذين عبروا عن تضامنهم باحساس هائل بالشجاعة . وعند نقطة معينة أوقفت السيارة وخرجت وحييت شاكرا أسرة من هؤلاء وأخبرتهم أن مؤازرتهم قد أمدتنى بالالهام . وجعلنى ذلك أرى أن جنوب إفريقيا التى أنا عائد إليها تختلف تماما عن تلك التى تركتها .

وعند حدود المدينة كان بإمكانى رؤية الناس وهم يتدفقون نحو الوسط . فقد نظمت لجنة الاستقبال حشدا فى الميدان الرئيسى وسط كيب تاون وكان مقررا أن أخطب فيهم من شرفة بلدية المدينة التى كانت تطل على كل المنطقة وكنا قد سمعنا ان جموعا غفيرة كانت تنتظر هناك منذ الصباح .

وحينما اقتربنا من الميدان كان بإمكاننا رؤية الحشود الهائلة وكان من المفروض أن يدور السائق حول المبنى ولكن بدلا من ذلك اخترق الجموع وفى الحال اندفعت الحشود وأحاطت بالعربة وحاولنا السير لمدة دقيقة أو اثنتين لكننا اجبرنا على الوقوف بقوة ضغط الأجساد . وبدأ الناس يضغطون على السيارة ثم بدأوا فى انفعالهم يقفزون عليها ثم أخذ البعص يهزونها حتى انتابنى للحظة شعور بالقلق وشعرت

أن من الممكن لحب الناس أن يقتلنا . وحاول البعض إيجاد طريق وإزاحة الجموع عن السيارة لكن لم ينجحوا . ولمدة تربو على الساعة بقينا داخل السيارة حيث سجننا مؤيدونا وكنا قد تجاوزنا منذ فترة ميعاد القاء الخطاب .

وفى النهاية حضر عشرات من رجال الشرطة لانقاذنا ونجحوا أن يخلوا طريقا للسيارة وسار السائق بسرعة كبيرة فى اتجاه مخالف للمبنى وسألته إلى أين نحن ذاهبون فأجاب أنه لايعرف فلم يكن قد خبر شيئا مثل ذلك من قبل .

وحينما هدأنا وصفت له منزل صديقى ومحاميى دولله عمر الذى كان يسكن فى القسم الهندى من المدينة ولحسن الحظ كان متواجدا هو وعائلته وبدل أن يحيينا سألونا بقلق عن سبب عدم تواجدنا فى الميدان الكبير .

ولم يمض علينا هناك دقائق حتى اتصل الأسقف توتو تليفونيا وكان حزينا وقال إن علىَّ أن أحضر الى الميدان فى الحال لأن الناس أصابهم القلق وقال إنه لايضمن مايمكن أن يحدث من إضطرابات إن لم أعد فوعدته بالعودة وبعد جهد أقنعنا السائق بالعودة . ولم يكن الازدحام شديدا عند المدخل الخلفى للمبنى . وصعدت وخرجت الى الشرفة ورأيت جموعا لامتناهية من الجماهير المحتفية المهللة التى كانت ترفع الأعلام والشعارات وتهتف وتصفق وتضحك .

ورفعت قبضتى للجمهور ورددت الجموع بهتاف هائل وتبادلنا الهتافات لافريقيا واشتعلت روح المقاومة داخلى .

وبعد أن هدأت الجموع قرأت خطابى الذى حييت فيه الشعب باسم السلام والديمقراطية والحرية للجميع وذكرت اننى لا أقف بينهم كنبى ولكن كخادم متواضع لهم أضع السنوات الباقية من حياتى بين أيديهم .

كنت أتحدث من القلب وأردت إبلاغ الناس أننى لست مسيحا ولكن رجلا عاديا أصبح قائدا بسبب الظروف غير العادية وأردت فى الحال أن أشكر جميع الناس فى أنحاء العالم الذين ضغطوا من أجل الافراج عني وشكرت شعب كيب تاون وحييت أوليفر تامبو والمؤتمر وM.K والحزب الشيوعى والجبهة الديمقراطية ومجلس شباب جنوب افريقيا والاتحادات التجارية والحركة الجماهيرية واتحاد طلبة جنوب افريقيا والحركة النسائية وأعلنت عرفانى بالجميل لزوجتى وأسرتى . وقلت لهم أنه لامستقبل للأبارتايد فى جنوب إفريقيا وأن عليهم ألا يتركوا حمل العمل الجماهيرى . ثم أكدت أننى لم يحدث أن تحدثت مع الحكومة بشأن مستقبل البلاد الا لأصر على إجتماع بين المؤتمر والحكومة . ثم أشرت إلى شروطى لبدء المفاوضات الحقة . وأخبرتهم أن دى كلارك اتخذ خطوة أكثر من أى قائد قومى آخر لتطبيع الموقف ثم أضفت أن دى كلارك رجل يلتزم بقوله . وقد أرقتنى هذه العبارة فيما بعد ووجهت بها حينما لم يحافظ دى كلارك على وعده .

وقد كان حيويا لى أن أبرهن للشعب والحكوم أننى لم يفت عضدى ولم تنحن هامتى وأن المعركة لم تنته ولكنها بدأت من

جديد بشكل مختلف وأكدت كونى عضوا وفيا مطيعا للمؤتمر وشجعت الناس على العودة وراء المتاريس وتصعيد المعركة وقلت لهم إننا سنسير الميل الأخير معا .

وعند عودتى شاهدت مئات من الوجوه السوداء تنتظر لتحيينى وتعانقت بحرارة من الأسقف توتو فقد كان رجلا ألهم أمة بأكملها بكلماته وشجاعته فى ظروف حالكة . وكان فى المنزل ينتظرنى جمع من الأصدقاء والأهل ، لكن اللحظة الرائعة كانت عندما أخبرت أن هناك مكالمة لى من استوكهولم وكان صوت أوليفر ضعيفا وملأتنى الفرحة لسماعه بعد كل تلك السنوات وكان أوليفر فى السويد يستشفى بعد جلطة أصابته فى أغسطس ١٩٨٩ . واتفقنا على أن نلتقى فى أسرع وقت .

وكان المؤتمر قد خطط لعقد مؤتمر صحفى لى عصر اليوم بعد الافراج . والتقيت فى الصباح بعدد من زملائى للتباحث بشأن الاستراتيجية . وكان قد وصل تل صغير من برقيات ورسائل التهنئة من أنحاء العالم من رؤساء ووزارات لكنى أتذكر بالذات برقية من رب منزل فى كيب تاون قال فيها : « إنى مسرور جدا لأنك الآن حر بين أصدقائك وعائلتك . لكن خطابك أمس كان مملا » .

وبعد ظهر ذلك اليوم كان هناك عدد كبير من الصحفيين من بلاد مختلفة حتى أنى لم أكن أعلم مع من أتكلم وسرنى أن

أرى نسبة الصحفيين السود . وفى المؤتمر الصحفى عملت على تأكيد كوني عضوا في المؤتمر وكنت أعرف أن قيادات مؤتمر فى الخارج ستشاهد وقائع الافراج عنى وستحاول تقدير ولائى وكنت أيضا أعلم أنهم سمعوا شائعات عن تحولى وعن تنازلات قدمتها وودت أن أطمئنهم وحينما سئلت عن الدور الذى سأقوم به فى المؤتمر أجبت أننى سأقوم بأى دور تحدده المنظمة وقلت أنه ليس هناك أى تعارض لتأييدى الكفاح المسلح وتمسكى بالمفاوضات فإن الكفاح المسلح هو الذى أتى بالحكومة إلى حافة المفاوضات وحينما سئلت عن العقوبات أجبت أن الظروف التى أوجبت العقوبات مازالت قائمة وهى غياب الحرية السياسية للسود ورغم أنه قد أطلق سراحى فإني لست حرا .

وسئلت عن مخاوف البيض وكنت أعلم أن الناس يتوقعون أن أكون غاضبا من البيض ولكن سنوات سجنى خففت مدى غضبى على البيض رغم أن كراهيتى للنظام تنامت وكنت أود لجنوب إفريقيا أن ترى أنى أحب حتى أعدائى رغم كراهيتى للنظام . وأردت أيضا أن يفهم الصحفيون أهمية البيض فى أى نظام جديد فلم نكن نود تدمير البلاد قبل أن نحررها وكانت مغادرة البيض تعنى خراب البلاد فقلت أن هناك نقط تلاق بين البيض والسود وأن المؤتمر سيوجدها وأن البيض مواطنون جنوب أفارقة وأودهم أن يشعروا بالاطمئنان وأن يعرفوا أننا نقدر مساهمتهم فى تقدم البلاد وأن جنوب افريقيا اللاعرقية ستكون وطنا للجميع .

وبعد المؤتمر تلقيت مكالمة من زوجة الأسقف توتو فى جوهانسبرج قائلة إن على الحضور الى هناك فورا نظرا لأن الناس بدأوا يقلقون وكان الخوف أن تحدث اضطرابات اذا لم أعد فورا . وذهبنا إلى هناك ولكنى أبلغت أن هناك ألوفا تحاصر منزلى فى أورلاندو وقضيت الليلة مع وينى فى منزل أحد الأصدقاء فى شمال جوهانسبرج .

وفى الصباح ذهبنا بطائرة عمودية إلى إستاد البنك الأهلى فى سويتو وكان بإمكانى من الطائرة أن أرى الفقر المدقع الذى تعيشه غالبية الجماهير السوداء التى تقطن المنطقة وكانت مظاهر الفقر قد اشتدت عما كانت عليه قبل ذهابى إلى السجن .

وهبطنا وسط الاستاد بالطائرة الذى كان قد ازدحم فيه مايقرب من ١٢٠٫٠٠٠ شخص وخاطبتهم قائلا إننى مبتهج بعودتى إلى سويتو ولكن أيضا يغمرنى الحزن لما يعانونه تحت نظام لا إنسانى من نقص المساكن وأزمة المدارس وبطالة ومعدل مرتفع للجريمة . وأكدت على هدف المؤتمر من إقامة مجتمع لاعرقى .

وعدت تلك الليلة إلى منزلى فى أورلاندو وتحققت أن ماتشوقت إليه دائما وهو الحياة العادية فى منزلى لن يمكن تحقيقه . فإنه فى تلك الليلة ولمدة أسابيع وشهور ظل المنزل محاصرا بمئات المهنئين الذين أخذوا فى الغناء والرقص والتهليل ولم أجد مفرا من مشاركتهم وكان ذلك على حساب أسرتى مرة أخرى .

وكانت مسئوليتى الأولى هى الذهاب إلى قيادة المؤتمر فى لوساكا . وذهبت هناك فى ٢٧ فبراير لحضور اجتماع اللجنة المركزية وكان لقاء رائعا مع رفاق لم أرهم لعقود من الزمن وكان هناك عدد من رؤساء الدول الإفريقية . وتحدثت مع الرئيس موجابى رئيس زيمبابوى وكينث كاوندا رئيس زامبيا وجوسين ادواردو دموس سيمانتوكا رئيس انجولا وكوين ، ماسير رئيس بوتشوانا وجاكيم شسانو رئيس موزمبيق ويويرى موسافينى رئيس أوغندا . وكانت التساؤلات تبدو فى عيون أعضاء اللجنة عما إذا كان منديللا مازال نفس الشخص الذى عرفوه من قبل . وشرحت لهم بدقة طبيعة محادثاتى مع الحكومة ومطالبى منها والتقدم الذى تم احرازه وقد كنت سمعت عن الوشايات التي نقلها بعض من تم الإفراج عنهم وسعيت إلى دحضها عن طريق المصارحة بكل شىء فعلته . وفى تلك الجلسة تم انتخابى نائبا لرئيس المنظمة بينما انتخب الفريد نزو رئيسا بالنيابة حتى يتم شفاء أوليفر . وفى مؤتمر صحفى أعلنت أننى أرى أن الوقت لم يحن بعد لتعليق الكفاح المسلح لأننا لم نصل إلى الهدف الذى بدأنا من أجله فإن إسكات مؤيدى دى كلارك اليمينيين ليس مهمة المؤتمر .

وبدأت رحلة فى أفريقيا شملت عدة دول وفى كل مكان ذهبت إليه كنت أقابل بالجماهير المتحمسة التى بلغ عددها نصف مليون فى دار السلام . وفى القاهرة ، وفى اليوم التالى

للقاء خاص مع رئيس الجمهورية ، كان من المقرر أن أخطب فى حشد كبير فى قاعة محلية . ولما وصلت بدت الجموع تفيض من القاعة ولم تكن هناك احتياطات أمنية كافية فذكرت لرجل الشرطة أنه يجب دعم القوة ولكنه هز كتفيه . وانتظرت ووينى فى غرفة خلف المبنى وفى الساعة المحددة أشار إلى رجل الشرطة أن أدخل وطلبت منه أن يرافق بقية الوفد أولا خوفا من حدوث جلبه بعد دخولى ولا يتمكنوا هم من اللحاق بى . لكن رجل الشرطة حثنى على الدخول أولا ، وفعلا ، وبمجرد دخولى القاعة تزاحمت الجماهير مندفعة إلى الأمام وتغلبت على كوردون الشرطة ، وفى حماسهم دفعوا بى ، واهتز توازنى وفقدت فردة حذائى فى تلك الفوضى . وبعد أن بدأت الأمور تهدأ وبعد عدة دقائق لم أعثر على حذائى أو على زوجتى . وفى النهاية ، وبعد حوالى نصف ساعة أحضروا وينى معى على المسرح ، وكانت غاضبة لما حدث . ولم أستطع مخاطبة الجمهور لأنهم ظللو يهتفون "مانديللا ، مانديللا" بصخب لدرجة لم يستطع معها أحد سماع صوتى وغادرت المكان فى النهاية بدون حذائى وكانت زوجتى صامتة على غير العادة .

وأثناء وجودى فى القاهرة عقدت مؤتمرا صحفيا قلت فيه أن المؤتمر على استعداد لدراسة وقف أعمال العنف وكان ذلك مؤشرا للحكومة فقد كان كل من المؤتمر والحكومة يحاولان خلق مناخ لبدء المفاوضات وبينما كان المؤتمر يطلب من الحكومة تطبيع الموقف بإنهاء حالة الطوارىء والافراج

عن المعتقلين وإلغاء قوانين الأبارتايد كانت الحكومة مصرة على أن يعلق المؤتمر الكفاح المسلح وكنا نود أن نمنح دى كلارك فرصة ليواصل استراتيجيته الاصلاحية وكنا نعرف أننا لابد وأن نعلق الكفاح المسلح لتسهيل المفاوضات الجدية ولتمكين دى كلارك من أن يبرهن لناخبيه على نجاح سياسته .

وبعد ذلك ذهبت إلى ستوكهولم لزيارة أوليفر ولم يكن بصحة جيدة . وحين التقينا كنا كصبيين صغيرين يستمدان الحب من أحدهما الآخر . وكان أول شيء قاله لى أوليفر بعد أن انفردنا أنه علىَّ أن أتولى رياسة المؤتمر لأنه كان يحتفظ بها لى . وكان ردى أنه قد تم إنتخابه وعلينا الإنتظار حتى تحين الإنتخابات ولم أحد عن موقفى .

وفى إبريل ١٩٩٠ ذهبت إلى لندن لحضور حفل موسيقى اقيم على شرفي واشترك فيه فنانون دوليون كان معظمهم غير معروف لى وأذيع الحفل بالتليفزيون فى جميع أنحاء العالم وانتهزت الفرصة لشكر القوى المعارضة للأبارتايد فى العالم التى أوجبت العقوبات وطالبت بالافراج عنى وعن زملائى وعلى التأييد والتضامن مع الشعب المقهور فى بلدى .

- ١٠٣ -

حينما خرجت من السجن كان الرئيس مانجستو بوتيليزى زعيم حزب إنكاثا للحرية ورئيس وزراء كوا زولو أحد الشخصيات السياسية على المسرح السياسى لجنوب إفريقيا ولكنه لم يكن يتمتع بشعبية فى دوائر المؤتمر . وقد كان أحد

أحفاد ملك الزولو سيتيوايو الذى كان قد هزم البريطانيين سنة ١٨٧٩ . وكان وهو شاب طالبا فى فورت هير وبعد ذلك التحق بتظيم شباب المؤتمر وكنت أتوسم فيه صفات الشخصية القيادية للمستقبل . وكان قد أصبح رئيسا لوزراء كوازولو بمؤازرة المؤتمر . وحتى حينما أنشأ الانكاثا كمنظمة حضارية للزولو لم يعارضه المؤتمر . ولكن بمرور السنوات تباعد الرئيس بوتيليزى عن المؤتمر . ورغم أنه كان يعارض الأبارتايد بشدة ورفض جعل الكوازولو موطنا مستقلا كما أرادت الحكومة فقد كان شوكة فى جانب الحركة الديموقراطية فقد كان يعارض المقاومة المسلحة وانتقد انتفاضة سويتو عام ١٩٧٦ وقاد حملة ضد العقوبات الدولية وكان يتحدى فكرة جنوب إفريقيا موحدة . ورغم ذلك كان الرئيس بوتيليزى يدعو بانتظام للافراج عنى ورفض التفاوض مع الحكومة حتى يتم الافراج عن المعتقلين السياسيين . وكان أول من تحدثت معهم على الهاتف لأشكره على مساندته طويلة الأجل . وكان رجائى هو أن ألتقى به سريعا لأحسم خلافاتنا . واقترحت تلك المقابلة فى لوساكا لكن لم يتم الموافقة عليها . وحينما كنت فى السجن دعا ملك الزولو جودويل زويليثينى ولتر لزيارة أولندى عاصمة الكوازولو وشجعته على قبول الدعوة ظنا منى أنها مناسبة ممتازة للتأثير فى رئيس إحدى أكثر الأسر المالكة احتراما وأقراها فى البلاد . ووافق المؤتمر مبدئيا على أن يذهب ولتر إلى قصر الملك فى نونجوما لاعتقادهم أن ذهابه إلى أولندى هو اعتراف بسلطة المواطن المستقلة .

وعند عودتى من لوساكا حادثت رئيس الوزراء والملك هاتفيا وقلت أن وولتر يستعد للقاء الملك فى نونجوما وليس فى أولندى ويرد الملك أنه لن يقبل أن يزوره وولتر فى أى مكان آخر سوى العاصمة وأضاف أنه قد دعاه لزيارته فى أولندى وليس من حقه تحديد مكان الزيارة ورددت قائلا أننا نواجه معارضة من أعضاء المنظمة الذين لايرغبون فى ذهاب وولتر إلى كوازولو كلية . ورفض الملك أن يقابل وولتر.

وسأت العلاقات بعد ذلك وفى مايو أقنعت المؤتمر بالحاجة لأن أزور الملك وبوتيليزى ووافق الملك ولكن قبل الزيارة باسبوع تلقيت خطابا منه يقول فيه أن علىَّ أن آتى منفردا وكانت تلك آخر قشة ورفضت اللجنة المركزية . وقلت للملك أننى لا أستطيع القدوم إلا فى رفقة زملائى واعتبرها اهانة وألغى الزيارة . وكان هدفى تكوين علاقة مستقلة لأن الملك كان القائد التقليدى للزولو الذين كانوا يحبونه ويحترمونه وكان الإخلاص للملك فى كوازولو أكثر انتشارا من الولاء لإنكاثا .

وفى تلك الأثناء كانت ناتال قد أصبحت منطقة اقتتال . فقد اعلن مؤيدو انكاثا المسلحون الحرب على معاقل المؤتمر فى منطقة وسط ناتال وحول بيترماريتزبرج وتم احراق قرى بأكملها وقتل العشرات وجرح المئات وأصبح اللاجئون يعدون بالآلاف . وفى ناتال كان الزولو يقتلون زولو آخرين لأن أعضاء المؤتمر هناك من الزولو . وبعد الإفراج عنى بإسبوعين ذهبت إلى دربان وخطبت فى جمع يربو على المائة ألف شخص

كانوا كلهم تقريبا من الزولو وطلبت منهم إلقاء السلاح والتوافق . لكن دعوتى لم تلق استجابة . وأصبحت قلقا لدرجة أننى كنت على استعداد لاتخاذ الخطوات اللازمة لزيارة الرئيس بوتيليزى . وفي مارس وبعد نوبة شديدة من أعمال العنف أعلنت بصفتي الشخصية أننى سوف أزوره فى قرية خارج بيترماريتزبرج ولكن قيادة المؤتمر فى ناتال عارضت الزيارة معارضة شديدة ورفضتها .

- ١٠٤ -

وفى مارس وبعد مفاوضات كثيرة مع أحزابنا رتبنا للإجتماع وجها لوجه مع دى كلارك وحكومته لاجراء محادثات بشأن المفاوضات فى اجتماعات تبدأ فى إبريل ولكن فى ٢٦ مارس وفى منطقة إفريقية فى جنوب جوهانسبرج فتحت الشرطة النيران بدون تحذير على متظاهرين من المؤتمر وقتلت اثنى عشر وأصابت المئات الذين جرح معظمهم فى ظهورهم وهم يقومون بالفرار . وبما أن حق التجمع والتظاهر لتأييد مطالبنا العادلة ليس منحة تسبغها علينا الحكومة وقت ماتريد فقد أغضبنى ذلك التصرف وقلت للحكومة أن كل شرطى أبيض يرى فى كل شخص أسود هدفا له . وبعد استشارة المؤتمر أعلنت تأجيل المحادثات .

ولكن رغم التأجيل وبموافقة القيادة تقابلت سرا مع دى كلارك فى كيب تاون لدفع عملية إلمحادثاتت وركزنا على تحديد ميعاد آخر ولم تكن الحكومة فى عجلة من أمرها فقد

كانوا يريدون للوقت أن يمر لكى أفشل وأبرهن للناس أن السجين السابق الذى ظنه الناس مخلصا هو إنسان لايعلم شيئا عن الوضع الحالى . أما دى كلارك ، فرغم خطواته التقدمية فهو لم يكن محررا فقد كان يتحرك ببطء . وكان أيضا برجماتيا ليس فى نيته التخلى عن مركزه بل على العكس كان قد اتخذ تلك الخطوات لضمان قوة الأفريكان فى ظروف جديدة ولم يكن مستعدا للتفاوض لانهاء الحكم الابيض .

وكان هدفه خلق نظام لاقتسام القوة مبنى على حقوق المجموعات الذى يحافظ على سلطة الأقلية البيضاء . ورغم أنه كان على استعداد أن يسمح للأغلبية السوداء بالادلاء بالأصوات وبعمل التشريعات لكنه أراد أن يبقى على حق الفيتو للأقلية . وعارضت الخطة منذ البداية ووصفتها بأنها أبارتايد مستتر .

وكانت استراتيجية القوميين للتغلب هى التحالف ضدنا مع انكاثا واجتذاب الملونين الناطقين بالافركاينية فى الكيب لعضوية حزب قومى جديد وحاولوا نشر الرعب بين الملونين بترويج شائعة عداء المؤتمر للملونين . وأيدوا خطة بوتيليزى للحفاظ على قوة الزولو وهويتهم فى جنوب إفريقيا الجديدة بأن أقنعوه بمبدأ حقوق الجماعات والفيدرالية .

وبدأت الجولة الأولى للمفاوضات فى مايو وكان وفدنا يتكون من وولترسيسولو وجوسلوڤو والفريد نزو وثابو مبيكى واحمد كاثرادا وجو موديسى وروت ممباتى وآرشى جوميد

والمبجل بيرسى نودى وتشريل كارلوس وأنا وعقدت الاجتماعاتت فى قصر قديم بالكيب .

وكانت المحادثات فى حد ذاتها علامة مميزة فى تاريخ بلدنا فلم يكن الاجتماع يمثل فقط ما أراده المؤتمر كل تلك السنوات ولكنه كان يمثل نهاية علاقة السيد بالخادم التي كانت هى علاقة الرجل الأبيض بالأسود فى جنوب إفريقيا . ولم نأت الاجتماعات كمتسولين بل كمواطنين لنا الحق فى مكان متساو على المائدة .

وكان الاجتماع الأول درسا فى تاريخ المؤتمر . أما دى كلارك فقد قال إن نظام التنمية المستقلة كان قد تولد عن نوايا طيبة ولكنه لم ينجح على أرض الواقع . وكانت أول قضية نوقشت هى تعريف المعتقلين والمنفيين السياسيين وكانت الحكومة تريد تعريفا فى حدود ضيقة ولكننا أردنا تعريفا شاملا ينطوى تحته كل من أدين فى تهمة كان دافعها سياسيا وبذلك ينطبق عليه العفو . ولم نتوصل إلى اتفاق . وفى نهاية الأيام الثلاثة توصلنا إلى خطة يتفق على أساسها الطرفان بأن يلتزما بعملية التفاوض السلمى وتلتزم الحكومة برفع حالة الطوارىء وقد نفذت ذلك واستثنى إقليم ناتال نظرا لأعمال العنف السائدة هناك وبخصوص القضايا الدستورية فقد أبلغنا الحكومة أننا نطلب مجلسا منتخبا لصياغة دستور جديد . ولكن قبل انتخاب المجلس رأينا أن تشكل حكومة جديدة انتقالية تشرف على عملية الانتقال حتى تنتخب الحكومة الجديدة وتبنينا فكرة ايجاد مؤتمر تفاوضى من كل

الأحزاب يشكل الحكومة الانتقالية . كما اتفقنا على تكوين فريق عمل مشترك للتغلب على الصعوبات .

- ١٠٥ -

ولم أتمكن من الذهاب إلى قونو بعد الإفراج عنى حتى شهر إبريل . وبعد اتخاذ احتياطات الأمن واعداد الكلمات التى سألقيها ذهبت إلى هناك حيث زرت قبر أمى المتواضع . وحين ذهبت إلى قريتى راعنى مارأيت من التغيير وعدم التغيير . فخلافا عن ما خبرته عندما كنت صغيرا من تقبل الأهل للحياة كما هى وعدم وجود دراية سياسية سمعت أطفال المدارس ينشدون أغنيات عن أوليفر تامبو وM · K وأقلقنى فقر القرويين المدقع ، فقد بدوا أكثر فقرا مما كانوا عليه فى الماضى . كانوا مازالوا يعيشون فى الأكواخ البسيطة ذات الأرضية الترابية حيث لا توجد كهرباء ولا مياه جارية . فحينما كنت صغيرا كانت القرية مرتبة والمياه صافية والعشب اخضر لكن الآن بدت القرية غير نظيفة والمياه ملوثة .

وفى ذلك الشهر زرت جزيرة روبن لاقناع خمسة وعشرين من رجال M.K بأن يقبلوا عفوا من الحكومة ويتركوا الجزيرة . لكنهم قالوا أنهم سيقبلون العفو فقط فى حالة الانتصار فى المعركة الحربية وليس على مائدة المفاوضات وكانت معارضتهم شديدة لأن الحكومة طلبت منهم الاعتراف بجرائمهم قبل العفو . وبعد مناقشات قبلوا عرض الحكومة .

وفى يونيو كان مقررا لى أن أذهب فى جولة فى أوروبا

وأمريكا لمدة ستة أسابيع . وحاول دى كلارك اقناعى بإسكات الدعوة لمد العقوبات لكننى قلت له أننا لن نفعل ذلك حتى ينتهى الأبارتايد وتكون حكومة انتقالية وكنت أعلم أن الاتحاد الأوروبى كان راغبا فى تخفيف العقوبات . وبينما أنا فى فرنسا ألغت الحكومة حالة الطوارىء وسررت رغم علمى أن الخطوة كانت قد اتخذت لتقويض دعوتى لمد العقوبات . وذهبت الى سويسرا وايطاليا وهولندا وانجلترا حيث زرت أوليڤر وزوجته . وكانت أمريكا هى وجهتى بعد ذلك لأننى كنت سأتوقف فى انجلترا مرة أخرى فى طريق عودتى للاجتماع بتاتشر .

وفى نيويورك ازدحم حوالى مليون شخص لمشاهدة موكبنا . وقد اشعرتنى مظاهر التأييد والحماس للمعركة ضد الأبارتايد بالتواضع الجم . وفى اليوم التالى ذهبت الى هارلم وكما قالت زوجتى إن هارلم هى سويتو أمريكا وتحدثت إلى حشد كبير فى استاد يانكى وأخبرتهم أننا جميعا أطفال إفريقيا وذكرت لهم كيف ألهمنى هؤلاء الذين دافعوا عن حقوق السود فى أمريكا . ثم ذهبت إلى ممفيس وبوستون وبعد ذلك إلى واشنطون لالقاء خطاب فى الكونجرس والاجتماع بالرئيس بوش وحديثى أمام الكونجرس ذكرت العقوبات ودعوت الكونجرس إلى عدم تخفيفها لعلمى أن بوش كان يريد ذلك .

وحتى قبل التقائى ببوش كنت قد كونت انطباعا إيجابيا عنه فقد كان أول قائد يحادثنى تليفونيا بعد مغادرتى السجن كما أنى كنت ضمن قائمته القصيرة من زعماء العالم الذى يخبرنى بالقضايا الهامة . وكان أثناء لقائى معه ودودا رغم اختلافنا تماما بشأن قضايا الكفاح المسلح والعقوبات .

ثم ذهبت إلى كندا وأيرلندا وبعد ذلك إلى انجلترا حيث اجتمعت وتاتشر لمدة ثلاث ساعات ولم أستطع أن أتقدم خطوة معها بخصوص العقوبات .

- ١٠٦ -

وعدت إلى جنوب افريقيا بعد توقف فى أوغندا وكينيا وموزمبيق وطلبت لقاء مع دي كلارك وكانت أعمال العنف فى البلاد قد ساءت وبلغ عدد القتلى سنة ١٩٩٠ ، ١٥٠٠ فردا . وبعد تشاورات مع زملائى قررنا الاسراع بعملية السلام .

وكانت قوات الحكومة قد اعتقلت أربعين من المؤتمر بدعوى أنهم ضمن أعضاء مؤامرة للحزب الشيوعى للاطاحة بالحكومة . ودعانى دى كلارك إلى اجتماع عاجل وقرأ علىّ من وثائق ادعى أنها صودرت أثناء الغارة . واتصلت بجو سلوفو الذى قال لى أن ماقرأه دى كلارك كان مقتطعا من السياق وأن العملية التى يتحدثون عنها هى عملية قديمة وأن هدف الحكومة هو فصل الحزب الشيوعى عن المؤتمر وابعاد جوسلوفو عن المفاوضات . وعدت إلى دى كلارك وأخبرته أن شرطته قد خدعته وأننا لاننوى التخلى عن الحزب الشيوعى وأن سلوفو سيشارك فى المفاوضات . وفى منتصف يوليو وقبل اجتماع لجنة المؤتمر المركزية عرض على سلوفو ايقاف العمليات العسكرية لتهيئة الجو للمفاوضات ولمنح دى كلارك فرصة ليثبت لناخبيه أن سياسته قد نجحت . وعارضت الأمر في البداية لكنى بعد تفكير رأيت أن علينا أن نأخذ المبادرة وأن تلك هى أفضل وسيلة . وبعد مناقشة المسألة عدة ساعات فى اللجنة المركزية تمت الموافقة عليها .

وفى ٦ أغسطس وقع المؤتمر والحكومة فى بريتوريا ماعرف فيما بعد باسم مذكرة بريتوريا التى اتفقنا فيها على ايقاف العمليات العسكرية ولكننا لم ننه المعركة المسلحة . وحددت المذكرة مواعيد الافراج عن المعتقلين السياسيين واصدار أنواع معينة من العفو واتمام عملية العفو فى مايو ١٩٩١ . ووافقت الحكومة أيضا على اعادة النظر فى قانون الأمن الداخلى

وكانت أكثر العوامل عرقلة هى تصاعد أعمال العنف . وكانت الشرطة وقوات الأمن لاتلقى القبض إلا على القليل من مرتكبى تلك الأعمال وكان سكان المناطق الإفريقية يتهمون الشرطة بمساعدة وإثارة العنف وأصبح من الواضح أن هناك تواطؤا من جانب الشرطة وقوات الأمن .

وقال لى سكان مناطق الافارقة أن الشرطة تقوم بمصادرة الأسلحة من جهة ثم تقوم الانكاثا بالهجوم عليهم بنفس الأسلحة المصادرة . وفى سبتمبر ألقيت خطابا قلت فيه أن هناك يدا خفية ثالثة وراء أعمال العنف تستهدف المؤتمر ومعركة التحرير .

وكنت قد وصلت إلى تلك النتيجة بعد أن خبرت شخصيا حادثين متماثلين . ففى يوليو ١٩٩٠ تلقى المؤتمر معلومات أن ساكنى أحد بيوت الشباب المملوكة للإنكاثا كانوا يخططون لهجمة كبيرة على أعضاء من المؤتمر فى منطقة إفريقية يوم ٢٢ يوليو وقمنا بابلاغ وزير العدل ومدير الشرطة وقائد الشرطة المحلى عن طريق محامينا طالبين اتخاذ الاجراءات

وطلبنا من الشرطة أن تمنع اعضاء الانكاثا من دخول المنطقة لحضور تجمع لهم . وفى ٢٢ يوليو دخلت المنطقة حافلات محملة برجال الانكاثا المسلحين ترافقهم عربات شرطة فى وضح النهار . وبعد التجمع ذهب الرجال المسلحون فى حالة هرج وقتلوا مايقرب من ثلاثين شخصا فى هجوم رهيب وقد قمت بزيارة المنطقة فى اليوم التالى ورأيت مناظر لم أرها من قبل ولا أتمنى أن أراها بعد ذلك فقد رأيت جثثا قطعت إربا حتى مات أصحابها وكانت هناك امرأة قد قطع ثدياها بمدية .

وطلبت لقاء مع دى كلارك فى اليوم التالى وسألته غاضبا إيضاحا . ولم يجب ولم يقدم تفسيرا .

وكان الحادث الثانى مماثلا إلا أنه بالاضافة إلى القتل قام الإنكاثا بطرد أفراد المؤتمر من معسكر مقام على قطعة أرض فى احدى مناطق الزولو واحتلوا أكواخهم واستولوا على ممتلكاتهم وقرر سكان المنطقة أن قوات الشرطة كانت ترافق الانكاثا .

وفى خلال تلك الفترة قامت الحكومة بفعل أشعل الوضع فقد أقرت حمل الزولو لما يسمى بأسلحتهم التقليدية وهى عبارة عن الرماح والعصى ذات الرؤوس الغليظة التى كانوا يقتلون بها رجال المؤتمر .

وقد استفاد من تيارات العنف تلك هؤلاء الذين كانوا يعارضون التفاوضات وعملوا على إشعال حرب بين المؤتمر والانكاثا . وعمد رجال الحكومة ومن بينهم دى كلارك إلى تجاهل الوضع ولم يكن هناك شك أن مسئولى الشرطة على أعلى مستوى كانوا يساعدون تلك القوة الثالثة وتأكدت

الشكوك حينما ظهرت تقارير صحفية كشفت أن شرطة جنوب إفريقيا كانت تمد الإنكاثا بالدعم المادى .

وتصاعد العنف . وبدأت أراجع قرار تعليق الكفاح المسلح . وتململ الكثيرون من أعضاء المؤتمر .

- ١٠٧ -

وفى ديسمبر ١٩٩٠ عاد أوليڤر إلى جنوب إفريقيا بعد ثلاثة عقود فى المنفى . وذهب لحضور اجتماع استشارى للمؤتمر فى جوهانسبرج حضره أكثر من ألف وخمسمائة مندوب من جميع المناطق فى الداخل والخارج .

وتكلمت مادحا أوليڤر رجلا قاد المؤتمر إبان ساعاته الحالكة ولم يترك الشعلة تخبو وقادنا إلى مستقبل يبدو مضيئا ومليئا بالأمل . وكان هو الذى أنقذ المؤتمر خلال الأعوام السبعة والعشرين التى قضيتها فى السجن ، وانشأ منظمة دولية ذات قوة وتأثير فقد كان جنديا ودبلوماسيا ورجل دولة .

واحدث خطاب أوليڤر عاصفة فقد دعا إلى إعادة تقييم العقوبات وقال إن المؤتمر يواجه تهديدا بالتهميش الدولى إذا لم يأخذ المبادرة لتخفيف العقوبات وأن منظمة الوحدة الأوروبية قد بدأت فعلا فى تخفيف العقوبات وأن دول الغرب خاصة بريطانيا وأمريكا تريد مكافأة دى كلارك على إصلاحاته . ورغم أننا شعرنا بخطأ تلك الاستراتيجية فقد كان علينا الاعتراف بالواقع الدولى .

ورغم أن خطاب أوليڤر نوقش ووفق عليه من قبل المؤتمر إلا أن اقتراحه قوبل بالغضب من مناضلى المؤتمر الذى اصروا

على تبقى العقوبات كما هى . واتهمنى هؤلاء واتهموا المفاوضين بعدم التلاحم مع القاعدة وبأننا نقضى وقتا مع قادة الحزب القومى أطول من ذاك الذى نقضيه مع شعبنا . كما وجه إلى النقد فى الإجتماع للدخول فى ديبلوماسية شخصية وعدم إبلاغى جميع الأعضاء بما يحدث . وتقبلت ذلك النقد مبديا موافقتى عليه ولكنى كنت أعلم حساسية المحادثات وأن أى اتصالات نصل إليها تعتمد جزئيا على سريتها . لكنى عرفت أن علىَّ إن أخبر عددا أكبر من الأشخاص بما يحدث .

وكانت الصحف تمتلىء كل يوم بتقارير جديدة عن أعمال العنف الدموية فى مناطق الأفارقة . وفى أماكن عدة جعل خليط من الجريمة والتنافس السياسى ووحشية الشرطة وفرق الموت الحياة قاسية لاتحتمل .

ولمواجهة ذلك اتصلت بالرئيس بوتيليزى والتقينا فى دربان فى يناير وتحدث بوتيليزى الى المندوبين المجتمعين وإلى الصحافة وفتح جروحا قديمة وذكر قائمة بالهجوم اللفظى للمؤتمر عليه وانتقد مطالب المؤتمر فى المفاوضات . وحينما تكلمت شكرته على مجهوداته طوال السنين للافراج عنى وذكرت أمورا توحد منظماتنا بدلا من أن تفرقها .

وحدث تقدم أثناء محادثاتنا الفردية ووقعنا إتفاق قواعد للسلوك لكل من المنظمتين وكان اتفاقا عادلا كان من الممكن أن يوقف نزيف الدم لو نفذ . ولكن انكاثا لم تحاول تنفيذ الاتفاق . واستمر العنف بين المنظمتين ولم تفعل الحكومة شيئا للقبض على المعتدين . والتقيت مرة أخرى فى أبريل ببوتيليزى وأصدرنا بيانات ووقعنا اتفاقية أخرى أغرقت هى

الأخرى في الدماء . وكنت مقتنعا أن الحكومة وراء كثير من أعمال العنف .

وفى إبريل وفى اجتماع اللجنة المركزية الذى استمر يومين ناقشت شكوكى بشأن دى كلارك . وفى خطاب مفتوح الى الحكومة دعونا الى فصل ماجناس مالان وزير الدفاع وأدريان ثلوك وزير العدل والنظام وإلى منع حمل الأسلحة التقليدية وغير ذلك من الاقتراحات بما فيها تكوين لجنة مستقلة لبحث شكاوى سوء التصرف لقوات الأمن . وأعطينا الحكومة مهلة إلى مايو لإجابة مطالبنا ورد دى كلارك بالدعوة إلى مؤتمر لجميع الأحزاب يعقد فى مايو لمناقشة العنف ولكننى رددت بأن ذلك عديم الجدوى لأن الحكومة تعرف تماما ما عليها فعله لانهاء العنف . وفى مايو أعلنا تعليق المحادثات مع الحكومة .

وفى يوليو ١٩٩١ عقد حزب المؤتمر مؤتمره السنوى داخل جنوب إفريقيا لأول مرة منذ ثلاثين عاما . وحضر المؤتمر ٢٢٤٤ مندوبا لهم حق التصويت تم انتخابهم بطريقة ديموقراطية فى أفرع المؤتمر فى الداخل والخارج وتم انتخابى رئيسا للمؤتمر وانتخب سيرل رامفوسا سكرتيرا عاما وكان ذلك دليلا على أن الشعلة بدأ تمريرها الى القيادات الشابة .

وفى خطابى ذكرت أن النقطة التى يجب فهمها بوضوح هى أن المعركة لم تنته وأن المفاوضات نفسها مسرح للمعركة .

وكان لابد أن نبدأ المفاوضات فلم يكن فى مصلحتنا تمديد عذاب الأبارتايد فقلت إن من الضرورى تكوين حكومة انتقالية فى أسرع وقت

وفى المؤتمر تم تحديد أكثر المهام أهمية وصعوبة وهى تحويل حركة التحرير السرية غير القانونية الى حزب سياسى جماهيرى . وكان علينا إعادة هيكلة منظمة بكاملها من أصغر فرع محلى إلى اللجنة القومية المركزية فى خلال شهور .

وعاد جزء كبير من قيادات المؤتمر والحزب الشيوعى من المنفى لحضور المؤتمر ولم يكونوا يعرفون جنوب إفريقيا الجديدة فقد كانت أرضا تم إكتشافها حديثا بالنسبة لى ولهم وكان هناك حصاد من القيادات الشابة من الجبهة الديموقراطية والاتحادات التجاربة الذين بقوا داخل البلاد وكانوا على إلمام بالوضع السياسى بطريقة لانعرفها نحن . وكانت تلك المنظمات بديلة للمؤتمر فى الثمانينيات وكان على المؤتمر دمج هؤلاء النساء والرجال فى المنظمة .

وكانت هناك المشاكل الفلسفية أيضا فإنه بالامكان توحيد الحركة أثناء حرب مع العدو المشترك لكن إيجاد سياسة على مائدة المفاوضات أمر مختلف فإنه كان علينا ليس فقط أن ندمج مجموعات عديدة فى المؤتمر ولكن أيضا آراء مختلفة .

وخلال السبعة عشر شهرا الأولى من النشاط القانونى أمكن للمؤتمر ضم ٧٠٠,٠٠٠ عضو وكان ذلك عددا لا بأس به ، لكن نسبة الأعضاء من المناطق الريفية ، تلك المناطق التى ظل المؤتمر فيها ضعيفا ، كانت قليلة ، وفى نفس الوقت فتح حزب القوميين أبوابه لغير البيض محاولا استقطاب الهنود والملونين .

ومنذ الإفراج عنى استمرت حملة الدولة لتشويه سمعة

زوجتى . فبعد حادث اختطاف الشباب الأربعة المزعوم ووفاة أحدهم تم تشويه سمعتها بحملة شائعات وبعد ذلك وجهت إليها أربع اتهامات خطف وتهمة اعتداء . وبلغ التشهير بها درجة أصبحنا معه ننتظر يوم محاكمتها لتظهر براءتها .

وبدأت محاكمة زوجتى فى فبراير فى محكمة راند العليا فى جوهانسبرج وقد حضرت المحاكمة فى يومها الأول وكذلك حضرها عدد من كبار أعضاء المؤتمر وتوالى حضورى كلما استطعت وفعلت ذلك لمؤازرتها لإظهار إيمانى ببراءتها . وتولى جورج بيزوس الدفاع عنها باقتدار . وحاول إثبات أن وينى لم تتورط فى عملية الخطف أو الضرب . وبعد ثلاثة أشهر ونصف حكم القاضى بإدانتها فى اتهامات الخطف وتحريضها على الاعتداء وحكم عليها بالسجن ست سنوات لكن أفرج عنها بكفالة انتظارا لاستئنافها . أما فيما يخصنى فلم تكن براءتها أبدا موضع شك .

وفى ديسمبر ١٩٩١ بدأت المفاوضات الحقيقية فى جوهانسبرج فى مركز التجارة الدولى وعقد "المؤتمر من أجل جنوب إفريقيا ديموقراطية" وسمى CODESA ، أول اجتماع للمفاوضات الرسمية بين حزب المؤتمر وأحزاب جنوب إفريقية أخرى والحكومة وكان الاجتماع يضم ثمانية عشر وفدا تمثل جميع الاتجاهات السياسية فى جنوب إفريقيا بالاضافة الى مراقبين من الأمم المتحدة والكومنولث والمجموعة الأوروبية ومنظمة الوحدة الأفريقية . وكان غالبية الممثلين من السود .

وكان وفد الاعداد برئاسة سيريل رامافوسا وعضوية جوسلوفو وفالى موسى قد عقد اجتماعات إسبوعية مع الحكومة حول قضايا الانتخابات والدستور والمجلس التأسيسى والحكومة الانتقالية . وكانت وفود عشرين حزبا مختلفا بما فيهم حكومات المواطن قد اتفقوا على أسس المؤتمر .

وقاطعت الـ P.A.C الإجتماعات متهمة حزب القوميين والمؤتمر بالتآمر لاقامة حكومة متعددة الأعراق كما قاطع الرئيس بوتيليزى المحادثات بحجة أنه لم يسمح له بإرسال ثلاثة وفود .

ولم يسد المركز التجارى الدولى احساس بالتاريخ فقط بل أيضا إحساس بالاعتماد على الذات . فخلافا لمفاوضات فى دول إفريقية أخرى استلزمت وجود وسطاء خارجيين كنا فى جنوب إفريقيا نسوى تلافاتنا بأنفسنا . وتحدث دى كلارك عن الحاجة إلى حكومة إنتقالية تتقاسم فيها السلطة على أساس ديموقراطى .

وفى ملاحظاتى الافتتاحية ذكرت أنه مع فجر CODESA فإن التقدم فى جنوب إفريقيا أصبح لا رجعة فيه فقد اجتمعنا لايجاد سلطة شرعية وأضفت أن CODESA علامة على بداية الطريق إلى مجلس منتخب يكتب دستورا جديدا . وأننى لا أرى سببا للوحدة الوطنية للإشراف على الانتخابات ولمراقبة وسائل الاعلام والجيش ولتشرف على الإنتقال إلى جنوب إفريقيا جديدة ديموقراطية لاعرقية .

وفى اليوم الأول تم الاتفاق على إعلان نوايا تلتزم فيه جميع الأطراف بتأييد جنوب إفريقيا غير مقسمة قانونها الأعلى دستور يضمن سلامته نظام قضائى مستقل . وأن يضمن النظام القانونى للبلاد المساواة أمام القانون وأن يوضع ميثاق لحماية الحقوق والحريات المدنية . والخلاصة أن تكون هناك ديموقراطية تعددية .

وأوجد المؤتمر خمسة فرق عمل تجتمع فى أوائل ١٩٩٢ لتمهيد الطريق لجولة أخرى من CODESA فى مايو ١٩٩٢ . وكان على المجموعات بحث مسألة خلق مناخ حرية سياسية ، ومستقبل المواطن ، وبحث مبادىء دستورية مختلفة كالفيدرالية وإعادة تشكيل هيئة إذاعة جنوب إفريقيا وتشكيل حكومة إنتقالية ووافقت الأحزاب على أن تتخذ القرارات بناء على الإجماع الكافى .

وكان دى كلارك قد طلب منى أن تكون له الكلمة الختامية التى كان من المفروض أن ألقيها أنا فى نهاية اليوم وأقنعت اللجنة المركزية بذلك رغم معارضتها . وفى كلمته بدأ دى كلارك الهجوم على حزب المؤتمر لعدم محافظته على الاتفاقات التى عقدها مع الحكومة ووبخه على عدم الكشف عن مخابىء الأسلحة وعلى الابقاء على جيش خاص وعلى الـ M.K وبلهجة شديدة أبدى تشككه فيما إذا كان لدى المؤتمر من الشرف ما يجعله يلتزم بأى اتفاق يوقعه .

وقررت ألا تكون كلمته هى الأخيرة . فسرت إلى المنصة وفى صوت نم عن غضبى قلت إننى منزعج من تصرف دى كلارك فإنه لم يكن أمينا فى هجومه . فحتى رئيس لنظام

سيىء السمعة وغير شرعى كنظامه لابد وأن يلتزم بمعايير أخلاقية . فإن رجلا يأتى إلى اجتماع من هذا النوع ويمارس تلك الألاعيب السياسية لايود أن يتعامل معه إلا القليلين جدا . وأضفت أن أعضاء الحكومة أقنعونا أن تكون لهم الكلمة الختامية واتضح الآن لماذا أرادوا ذلك فقد أساء دى كلارك استعمال مركزه لأنه كان يأمل ألا أجيب ولكنه أخطأ . ثم مضيت أعدد خرق الحكومة جميع الاتفاقيات كما سبق ذكره . وأضفت أننى قد أخبرته أننا سنسلم أسلحتنا فقط حينما نصبح جزءا من الحكومة التى تتولى جمع تلك الأسلحة . وأضفت أن للحكومة جدولين مختلفين للأعمال فهى لا تستعمل المفاوضات لاقرار السلام ولكن لتحقيق أهدافها السياسية التافهة فقد كانت أثناء المحادثات تمول منظمات ارتكبت أعمال عنف ضدنا وذكرت ماكان قد تكشف حديثا عن دفع مليون راند لانكاثا الأمر الذى ادعى دى كلارك أنه لايعرف شيئا عنه وإن كان ذلك صحيحا فإنه غير أهل ليكون فى منصبه . واختتمت قائلا أننى على استعداد للعمل معه رغم أخطائه . وفى الجلسة النهائية فى اليوم حاول كلانا التظاهر أن ماحدث ليس شيئا لايمكن تقويمه وتصافحنا فى بداية الجلسة لكن كثيرا من الثقة كانت قد فقدت وسادت المحادثات حالة من الفوضى .

وبعد أسابيع من افتتاح CODESA خسر القوميون مقعدا فى دائرة محافظة كانت تعتبر إحدى معاقلهم لصالح حزب المحافظين الذى كان يعارض سياسة التفاوض مع المؤتمر . وبدت نتيجة الانتخابات وكأنها تلقى بظلال الشك على سياسة دى كلارك الاصلاحية والتفاوضية .

وقرر دى كلارك أن يغامر فأعلن أنه سيدعو إلى استفتاء يوم ١٧ مارس لكل البيض فى أنحاء الأمة للتصويت على سياسته وقرر أنه إذا هزم فسيستقيل من منصبه . وفى نهاية الحملة صوت ٦٩٪ من البيض لصالح المفاوضات . ومع شعوره بقوة مركزه تشدد الحزب القومى فى مركزه التفاوضى .

- ١٠٩ -

فى ١٣ إبريل وفى مؤتمر صحفى جلس فيه أوليڤر ووولتر إلى جانبى أعلنت انفصالى عن زوجتى فقد أصبح الموقف من الصعوبة لدرجة أننى شعرت أنه لمصلحة كل الأطراف : المؤتمر وويني والأسرة أن نفترق . ورغم أننى ناقشت الموضوع مع المؤتمر فقد كان الانفصال لاسباب شخصية . وبعد أن استعرضت فى بيانى تاريخ علاقتنا والتضحيات التى تحملها وشجاعتها وإخلاصها أضفت أنه نظرا للتوترات التى نشأت فى علاقتنا فى الشهور الأخيرة بشأن خلافنا على عدد من القضايا فقد اتفقنا على الانفصال وأن خطوتى تلك لم يدفعنى إليها الاتهامات ضدها فى وسائل الإعلام لأنها كانت ومازالت تثق فى تأييدى الذى لم يتزعزع خلال تلك اللحظات الصعبة فى حياتها .

وأضفت أننى ربما كنت قد عميت عن أشياء بعينها بسبب الألم الذى كنت أشعر به لعدم قدرتى على القيام بدور الزوج والأب . ولكنى مقتنع أن حياة زوجتى أثناء وجودى فى السجن كانت أصعب من حياتى وكانت عودتى أكثر صعوبة بالنسبة لها . فقد تزوجت رجلا سرعان ماتركها وصار ذلك الرجل إسطورة وعند عودة الاسطورة إلى المنزل ظهر أنه مجرد رجل .

وفى مايو ١٩٩٢ عقد المجلس المتعدد الأطراف دورته الثانية فى المركز التجارى الدولى وكان قد تم الاعداد لـ CODESA عن طريق اجتماعات سرية بين المتفاوضين .

وكانت الحكومة قد تعرضت لفضيحتين قبل يومين من بداية CODESA وكانت الأولى تتضمن كشف فساد هائلا ورشوة في مصلحة مساعدة التنمية المسئولة عن تحسين حياة السود في المواطن والثانية كانت تخص تورط مسئولي أمن كبار فى مقتل أربعة من مناضلي الجبهة الديموقراطية المتحدة عام ١٩٨٥ وأشهرهم مايثوجونيوى هذا بالاضافة عن دلائل تورط الشرطة في أعمال القتل فى ناتال والشكوك حول قيام المخابرات العسكرية بتدبير عمليات سرية ضد المؤتمر وبينما قوضت هاتين الفضيحتين مصداقية الحكومة فانهما أدتا إلى تقوية مركزنا .

وبعد مناورات مع الحكومة توصلت فرق الحكومة والمؤتمر الى اتفاق مبدئى يتعلق بفترة إنتقال من مرحلتين تقود إلى جنوب إفريقيا ديموقراطية تماما .

وفى المرحلة الأولى يعين مجلس تنفيذى متعدد الأحزاب من قبل CODESA تكون وظيفته إنشاء حكومة مؤقتة ليمهد المجال لجميع الأحزاب ويأتى بدستور انتقالى . وفى المرحلة الثانية تجرى انتخابات لمجلس تأسيسى وتشريعى حيث تشترك جميع الأحزاب التى تحصل على ٥٪ من الأصوات فأكثر فى مجلس للوزراء ويتم انتخاب نصف المجلس على

أساس قومى ونصفه الآخر على أساس إقليمى ويعطى المجلس سلطة صياغة دستور جديد وإجازة التشريعات .

وكانت هناك نقاط خلاف عديدة بين المؤتمر والحكومة واعاقت تلك النقاط CODESA وفى نهاية اليوم الأول وصل الاجتماع الى طريق مسدود وشهد اليوم الثانى نفس النهاية رغم المحاولات وكان ذلك فى رأيى لعدم رغبة حزب القوميين أن يخضعوا قدرهم لارادة الأغلبية .

وفى النهاية انهار ، CODESA بسبب أربع نقاط رئيسية وهى اصرار الحكومة على نسبة كبيرة غير مقبولة من الأصوات فى المجلس للموافقة على الدستور ، ووجود قوى إقليمية راسخة ملزمة فى الدستور ، وقيام مجلس شيوخ غير ديموقراطى وغير منتخب يتمتع بقوة الفيتو على تشريعات المجلس الأساسى ، والتصميم على جعل الدستور الانتقالى دستورا دائما .

ورغم ذلك وافقت الحكومة والمؤتمر على مواصلة المحادثات الثنائية لكن أمورا تدخلت لجعل ذلك مستحيلا .

وبتوقف المحادثات اتفق المؤتمر وحلفاؤه على عمل جماهيرى يبرهن للحكومة مدى مؤازرة الجماهير لنا وعلى أن شعب جنوب افريقيا غير مستعد للانتظار إلى الأبد ليحصل على حريته . وكانت تلك الأعمال تتكون من اضرابات مظاهرات ومقاطعات . واختير يوم ٢٦ يونيو ١٩٩٢ لبدء الأعمال الجماهيرية ، وهو يوم ذكرى ثورة سويتو وتقرر أن

تصل الحملة ذروتها باضراب عام يومى ٣ ، ٤ أغسطس .

ولكن وقعت حادثة قبل ذلك سببت شقاقا أكبر بين الحكومة والمؤتمر ففى ليلة ١٧ يونيو ١٩٩٢ أغارت قوة مسلحة من الإنكاثا سرا على منطقة للأفارقة من المؤتمر وقتلت ٤٦ شخصا معظمهم من الأطفال والنساء ولم تفعل الحكومة شيئا لمنع الجريمة أو للقبض على مرتكبيها . ووجدت أن تلك هى القشة الأخيرة .

وتحدثت الى جمهور من عشرين ألفا من مؤيدى المؤتمر الغاضبين بعد الجريمة بأربعة أيام وقلت لهم أننى أصدرت الأوامر إلى سيريل رامافوسا السكرتير العام للمؤتمر بايقاف أى تعاملات مع الحكومة وأعلنت عن اجتماع عاجل للجنة التنفيذية وحذرت دى كلارك أنه إن حاول فرض إجراءات جديدة لتقييد المظاهرات أو التعبير الحر فإن المؤتمر سيبدأ حملة تحد على مستوى الأمة اكون أنا فيها أول المتطوعين .

وكانت اللافتات التى حملها المتجمهرون تنادى باستعمال السلاح والتخلى عن المحادثات وتفهمت عواطف الجماهير التى كانت تريد إسقاط الأبارتايد وكانت قد سئمت المفاوضات . وكان العمل الجماهيرى فى تلك اللحظة طريقا وسطا بين المفاوضات والكفاح المسلح .

وأبلغنا الحكومة أننا قد أوقفنا المحادثات وأرسلنا إلى دى كلارك مذكرة بأسبابنا وبالاضافة إلى طلبنا حل القضايا الدستورية التى أعاقت CODESA طالبنا بتتبع المسئولين

عن العنف ومحاكمتهم . ورد دى كلارك بطلب اجتماع معى فرفضت .

وبلغت الحملة الجماهيرية ذروتها يوم ٣ ، ٤ أغسطس بالاضراب مساندة لمطالب المؤتمر فى المفاوضات واحتجاجا على أعمال العنف التى تساندها الدولة وامتنع أربعة ملايين عامل عن الذهاب إلى أعمالهم وكان ذلك أكبر اضراب فى تاريخ جنوب إفريقيا ثم نظمنا مسيرة من مائة ألف فرد إلى مقر الحكومة فى بريتوريا حيث عقدنا تجمعا هائلا خارج المبنى قلت فيه للجماهير أننا سنحتل يوما تلك المبانى كأول حكومة ديموقراطية منتخبة فى تاريخ جنوب إفريقيا .

وهدد دى كلارك باتخاذ خطوات مضادة فحذرته أن أى عمل غير ديموقراطى سيكون له عواقب خطيرة . واضفت أنه بسبب مثل تلك التهديدات يجب إقامة حكومة انتقالية .

وبعد حدوث مذبحة أخرى فى بيشو بين المتظاهرين من أنصار المؤتمر من قبل رجال حكومة إحدى البانتوستانات اجتمعت ودى كلارك لمحاولة ايجاد أرضيه مشتركة لتحاشى تكرار مثل تلك المأساة .

وبدأ المتفاوضون فى الاجتماع بانتظام . وفى ٢٦ سبتمبر جتمعت أنا ودى كلارك فى قمة رسمية وفى ذلك اليوم وقعنا تفاقا كان بمثابة قالب لكل المفاوضات التى تلته واتفقنا على. ماطالب به المؤتمر لمنع أعمال العنف ولكن الأهمية الحقيقية تلك الاتفاقية هى أنها فتحت الطريق المسدود الذى وصلت إليه CODESA ووافقت الحكومة على مطالبنا الدستورية ولم

يبق سوى تحديد يوم الانتخابات للمجلس التأسيسى ونسبه الأغلبيات اللازمة لاتخاذ قراراته . وقد حفزت الاتفاقية الانكاثا على الانسحاب من المفاوضات وقطع الرئيس بوتيليزى علاقته بالقوميين وكون تحالفا مع مجموعة من قادة البانتوستانات المشبوهين ومع أحزاب يمينيه بيضاء كان هدفه إقامة مواطن للأفريكان .

وتقدم چوسلوڤو بمبادرة لتكوين حكومة وحدة وطنية . وكان قد نشر بحثا فى إكتوبر قال فيه إن المفاوضات مع الحكومة ليست مفاوضات وقف قتال نملى فيه شروطنا على عدو تم قهره . فإن المؤتمر قد يحتاج إلى سنوات للامساك بجميع نواصى امور الحكومة فى جنوب إفريقيا حتى بعد اجراء انتخابات وأن حكومة من المؤتمر ستحتاج كثيرا من الموظفين المدنيين الحاليين لتسيير أمور البلاد . واقترح جو إضافة فقرة تسمح بإقامة حكومة وحدة وطنية تتضمن تقاسم السلطة مع حزب القوميين لفترة ينص عليها ، مع عفو عام عن ضباط الأمن واحترام لعقود الموظفين المدنيين . وكان تعبير تقاسم السلطة فى ذلك السياق يعنى فقط أن القوميين سيشاركون فى أى حكومة منتخبه طالما حصلوا على أصوات كافية .

وبعد مناقشات عديدة أيدت اقتراح چو ووافقت عليه اللجنة المركزية فى ١٨ نوفمبر على شرط عدم السماح بالڤيتو لأحزاب الأقلية . وبدأنا محادثات ثنائية مدتها خمسة أيام وكانت حرجة لأنها سارت على الأسس التى أقرتها الاتفاقية المبدئية . واتفقنا مبدئيا على حكومة وحدة وطنية مدتها خمس سنوات تشترك فيها كل الأحزاب التى تحصل على أكثر من

خمسة فى المائة من الأصوات بنسبة تمثيل فى مجلس الوزراء . وبعد السنوات الخمس تصبح الحكومة حكومة أغلبية عادية . وفى فبراير أعلن المؤتمر والحكومة اتفاقهما على مبدأ حكومة الوحدة الوطنية لخمس سنوات وعلى مجلس وزراء متعدد الأحزاب وعلى إيجاد مجلسى تنفيذى انتقالى واجراء الانتخابات بنهاية ١٩٩٣ .

- ١١١ -

وكنت قد قررت بناء منزل لى فى قونو وتم البناء فى فبراير ١٩٩٣ وذهبت هناك فى إبريل لاجازة قصيرة . وفى صباح ١٠ ابريل تلقيت مكالمة هاتفية عاجلة وعلمت أن كريس هانى أحد أعضاء M.K السابقين البارزين وأحد أعضاء المؤتمر ذوى الشعبية الكبيرة قد توفى إثر إطلاق الرصاص عليه فى جوهانسبرج وكان موته لطمة لى وللمؤتمر فقد كان جنديا للمهام الصعبة وكان بطلا لشباب جنوب إفريقيا يتحدث لغتهم وينصتون إليه . وكان هناك خوف من ثورة شباب انتقامية فأسرعت أولا بالذهاب لتعزية والده فى ترانسكى وعند عودتى علمت أن الشرطة قد ألقت القبض على أفريكانى من المهاجرين البولنديين بعد أن أبلغت امرأة افريكانية شجاعة عن رقم سيارته . وكان المقصود من الاغتيال تعطيل المحادثات وحاول المؤتمر تهدئة الموقف فطلب منى أن أتحدث إلى الأمة . وفى حديثى ذكرت أن القاتل رجل أبيض ملىء بالكراهية جاء إلى بلادنا وارتكب عملا قبيحا شريرا وأن إمرأة بيضاء جازفت بحياتها ليلقى القاتل جزاءه وأن الوقت قد حان لجميع مواطنى جنوب إفريقيا أن يتحدوا لتحقيق مابذل

كريس هانى حياته من أجله وهو الحرية لنا جميعا .

وكان اغتيال كريس محاولة من جماعات سيادة البيض لوقف ما لا مفر من حدوثه فقد كانوا يفضلون أن تعانى البلاد حربا أهلية من أن تحكم الأغلبية عن طريق الوسائل السلمية . ولنمنع أنفجار أعمال العنف نظم المؤتمر تجمعات وتظاهرات فى كل أنحاء البلاد ليعبر من خلالها الناس عن احباطاتهم . وعلمنا بعد أيام أن أحد أعضاء حزب المحافظين قد ألقى القبض عليه لعلاقته بالجريمة وكان ذلك تأكيدا لوجود قوة ثالثة . وبعد اسبوعين حدث أمر هزنى شخصيا فقد توفى أوليڤر بجلطة مفاجئة .

يصنف أفلاطون الناس الى ثلاث مجموعات من الذهب والفضة والرصاص . وكان أوليڤر ذهبا خالصا سواء فيما يختص بتألقه الفكرى أو دفئه أو آدميته أو تسامحه وكرمه أو فى ولائه وتضحيته . وكنت أحبه كرجل بالقدر الذى كنت أحترمه كقائد وشعرت بالحرمان لفقده ورغم أننا لم نكن فى السلطة فقد أردت لأوليڤر جنازة رسمية . ونظم المؤتمر الجنازة ونظم أيضا تجمعا فى استاد سويتو حضره العديدون من الشخصيات الأجنبية الذين جاءوا ليقدموا الواجبات الأخيرة للرجل الذى أبقى المؤتمر حيا أثناء سنوات نفيه .

وفى يوم ٢٧ إبريل عام ١٩٩٤ وفى مؤتمر متعدد الأحزاب فى المركز التجارى حدد موعد أول انتخابات وطنية لاعنصرية قائمة على أساس صوت لكل فرد . وكان قد تم الاتفاق على

انتخاب أربعمائة من الممثلين لمجلس تأسيسى يقوم بوضع الدستور ويكون برلمانا ويكون أول عمل له انتخاب رئيس للجمهورية . وكان قد اشترك فى الاجتماع ستة وعشرون حزبا من ضمنها انكاثا و P.A.C والمحافظين . وكان الرئيس بوتيليزى يطالب بسلطة أقوى للأقاليم بينما كان الحزب المحافظ يرى أن قراراتنا السابقة تعادى مصالح الأفريكان وتكون ما عرف بالجبهة الشعبية للأفريكان للمطالبة بوطن للبيض . وفى ١٨ نوفمبر تم الاتفاق على دستور انتقالى وأصبحنا على أعتاب مرحلة جديدة .

ولم أكن أبدا أهتم بالجوائز الشخصية فإنه لايليق بالمقاتل من أجل الحرية أن يأمل فى كسب جوائز . ولكن حينما أخبرت أنى نلت جائزة نوبل للسلام بالاشتراك مع دى كلارك تأثرت كثيرا لأن للجائزة معنى خاصا فى جنوب إفريقيا حيث كانت قد منحت للرئيس لوثولى عام ١٩٦٠ كما منحت للأسقف توتو الذى حارب شرور العرقيه إبان الأيام الرهيبة للأبارتايد .

وكنت أكن احتراما كبيرا لشعبى النرويج والسويد فأثناء الخمسينيات والستينيات رفضت جميع الدول الغربية مساعدتنا ومنحنا اعانات . ولكننا لقينا ترحيبا حارا فى السويد والنرويج ومنحنا مساعدات ومنحا دراسية وأموالا للدفاع القانونى ومعونات انسانية للمسجونين السياسيين .

وبدأنا حملتنا الانتخابية بعد اقرار الدستور الجديد ولم يمنحنا ذلك فرصة كبيرة لأن القوميين كانوا قد بدأوا حملتهم فى اليوم الذى تم فيه الإفراج عنى . ورغم أن استطلاعات الرأى أثبتت تفوق المؤتمر فلم ننظر للنصر على أنه أمر مسلم

به وكنت أنصح الجميع بعدم التفاؤل الزائد . فقد كنا فى مواجهة حزب منظم وممول جيدا .

وقاد حملتنا الإنتخابية بوبو موليف "ورعب" ليكوتا وكيتسو جوردهان وكلهم من مناضلى الجبهة الديموقراطية السابقين وكانوا خبراء فى تعبئة الجماهير . وكانت المهمة صعبة . فقد قدرنا عدد الناخبين بعشرين مليونا كان معظمهم يدلى بصوته لأول مرة وكان الكثير من أصحاب الأصوات لدينا أميين وكان من الممكن أن يصيبهم الخوف من مجرد فكرة التصويت . وقررنا أن ندرب أكثر من مائة ألف شخص للمساعدة فى تثقيف الناخبين .

وكانت المرحلة الاولى تعرف باسم مؤتمرات الشعب حيث يسافر مرشحو المؤتمر فى جميع أنحاء البلاد ليعقدوا اجتماعات فى المدن والقرى لكى يستمعوا الآمال ومخاوف وشكاوى شعبنا . وكنت أحضر ثلاثة أو أربع مؤتمرات يوميا . وكان الناس أنفسهم يستمتعون بها . فلم يحدث أن ذهب أحد إليهم ليسألهم عما يجب فعله فى بلدهم . وبعد جمع الاقتراحات كنا نسافر لننقل للناس رسالتنا وكنا قد قررنا أن نقدم لهم تصورنا عن جنوب إفريقيا التى نودها بدلا من أن نطالبهم أن ينتخبونا على أساسس أننا حررناهم فقد كنت أشعر أن حملتنا يجب أن تكون عن المستقبل وليس عن الماضى .

وقد صاغ المؤتمر وثيقة من مائة وخمسين صفحة عرفت باسم برنامج اعادة البناء والتنمية الذى لخص خطتنا فى خلق وظائف عن طريق الأشغال العامة وبناء مليون منزل جديد

مزودة بالكهرباء والصرف الصحى وتوسيع مدى الرعاية وعشر سنوات من التعليم المجانى لجميع مواطنى جنوب إفريقيا واعادة توزيع الأرض عن طريق محكمة استحقاقات للأرض والغاء الضرائب على المواد الغذائية الأولية وقد أعيد ترجمة تلك الوثيقة بطريقة مبسطة على هيئة مانيسفتو سمى "حياة أفضل للجميع" وأصبح ذلك شعار حملة المؤتمر .

وشعرت أيضا أننا يجب أن نخبر الشعب بما لن نستطيع عمله . فقد كان الجميع يشعرون أن الحياة يمكن أن تتغير فى أعقاب انتخابات ديموقراطية حرة . ولذلك كنت أخبر الجماهير أنهم يجب ألا يتوقعوا أن يتملكوا سيارة مرسيدس ويكون لديهم حوض سباحتهم الخاص بعد الانتخابات . فكنت أقول لهم أنه لن يكون هناك تغيير مفاجىء سوى احترامهم لأنفسهم كمواطنين فى أرضهم وأنهم قد ينتظرون خمس سنوات لتؤتى الخطة ثمارها كما كنت أقول لهم إن عليهم أن يعملوا بجد إن أرادوا حياة أفضل "فلن نفعل ذلك لكم ولكنكم أنتم الذين ستحققونه بأنفسكم"

أما الجمهور الأبيض فكنت أقول لهم أننا نحتاجهم ولا نريدهم أن يغادروا البلاد لأنهم جنوب إفريقيين مثلنا وهذه أرضهم ولم أوفر الكلمات بشأن أهوال الأبارتايد لكنى كنت أردد أن علينا نسيان الماضى والتركيز على بناء مستقبل أفضل .

- ١١٣ -

لم يكن الطريق إلى الحرية أبدا سلسا . فقد انسحبت بعض الأحزاب من المجلس التنفيذى الانتقالى ورفضت انكاثا

المشاركة فى الانتخابات وقررت تبنى سياسة المقاومة ودعا الملك كوتليثيزى بمؤازرة الرئيس بوثيليزى إلى وجود استقلالى لكوازولو وحاول إثناء أهل إقليمه عن التصويت . وسمى اليمين الأبيض الانتخابات خيانة وطالب بوطن مستقل للبيض .

وكان ١٢ فبراير ١٩٩٤ اليوم الأخير للتسجيل فى الأنتخابات بالنسبة للأحزاب . ولم يسجل الانكاثا والمحافظون والجبهة الشعبية الأفريكانية كما رفضت حكومة موطن بوفوثا تسوانا الاشتراك وقاومت دمجها فى جنوب إفريقيا موحدة . وكمحاولة للتسوية أدخلنا تعديلات تضمن سلطات أكبر للأقاليم . وإعادة تسمية إقليم ناتال بإقليم كوازولو ناتال مع التأكيد عن أن مبدأ تقرير المصير سيتضمنه الدستور للمجموعات التى لها حضارة ولغة مشتركة .

واستعددت للقاء الرئيس بوتيليزى فى دربان فى ١ مارس وقلت أننى مستعد للركوع والتوسل إلى أولئك الذين يودون جر البلاد إلى نزيف الدم ووافق الرئيس على تسجيل مشروط فى الانتخابات مع وعد بإحالة خلافاتنا الدستورية الى الوساطة الدولية ووافقت . وقبل انتهاء موعد التسجيل سجل الجنرال فيلجون قائد جبهة الأفريكان تحت اسم جديد وهو جبهة الحرية .

وبالرغم من أن لوكاسى مانجوبى رئيس بوفوثاتسوانا قرر أن يبقى موطنه خارج الانتخابات فقد ثارت الجماهير ضده

وعم الاضراب والفوضى واشتعلت المعارك فى الشوارع بين الشرطة الاقليمية والطلبة والعمال وبعد ذلك تخلت عنه قواته وبعد اسابيع تم عزله وطلب الزعيم الجديد من جنوب إفريقيا تسلم موطنه . أما العنف فى ناتال فقد زاد وعمل مؤيدو انكاثا على وقف مجهودات حملتنا فى ناتال وتم قتل وتقطيع خمسة عشر من فريق العمل الانتخابى . ولكى نبرهن على قوتنا فى ناتال قام المؤتمر بتنظيم مسيرة جماهيرية وسط دربان وحاولت انكاثا القيام بنفس العمل فى جوهانسبرج مما كان له عواقب وخيمه . فقد نظمت انكاثا مسيرة من أعضائها وهم يلوحون بحرابهم وعصيهم وساروا فى لب جوهانسبرج الى مركز للتجمع وفى نفس الوقت حاولت مجموعة منهم اقتحام مبنى شل وهو مقر المؤتمر فمنعهم الحراس وأطلقت النيران ونجم عن ذلك مقتل ثلاثة وخمسين شخصا وأضحت البلاد على شفا حرب أهلية . وكانت انكاثا تحاول تأجيل الانتخابات ولكنى دى كلارك لم يتزحزح فقد كان الموعد مقدسا .

ووافقت على وساطة دولية برئاسة اللورد كارينجتون وكيسنجر ولكن حينما علمت انكاثا بعدم تغيير ميعاد الانتخابات لم يقابل أحد منهم الوفود التى عادت أدراجها . وعند ذلك قبل بوتيليزى الدعوة الى دور دستورى لمملكة الزولو ووافق على الاشتراك .

وقبل التصويت بعشرة أيام تقرر عقد مناظرة تليفزيونية بينى وبين دى كلارك وأجرينا فى المؤتمر تجربة له حيث قام الصحفى اليستر سباركس بدورى كلارك .

وفى المناظرة الحقيقية هاجمت حزب القوميين ذاكرا انهم ينشرون الكراهية العرقية بين الملونين والافارقة فى الكيب بتوزيع كتاب مثير جعلوا فيه شعار المؤتمر "اقتل ملونا .. اقتل مزارعا" . وحينما انتقد دى كلارك خطة المؤتمر لانفاق بلايين الدولارات على الاسكان والبرامج الاجتماعية نهرته قائلا أنه يخشى أن نكرس كثيرا من ثرواتنا للسود . وفى النهاية شعرت أننى كنت عنيفا مع الرجل الذى سيكون شريكى فى حكومة وحدة وطنية فقلت أن هناك حقيقة هامة وهى أنى أعتقد ان دى كلارك وانا مثال ساطع لاناس من اعراق مختلفة لهم ولاء واحد وحب مشترك لبلدهم رغم انتقاداتى له . ومددت إليه يدى مصافحا وانا أقول له أننى أفخر بأن أمسك بيده لنسير إلى الأمام معا . وبدا دى كلارك مندهشا لكنه كان مسرورا .

- ١١٤ -

وأدليت بصوتى يوم ٢٧ إبريل فى إقليم ناتال لأبرهن للناس هناك أنه ليس هناك خطر من الذهاب الى صناديق الانتخاب . وبينما كنت أسير الى مركز التصويت أخذت أفكر فى الأبطال الذين سقطوا من أجل أن أكون حيث أنا فى ذلك اليوم وفى النساء والرجال الذين ضحوا من أجل القضية التى كتب لها أخيرا النجاح : فى أوليفر تامبو وكريس هانى والرئيس لوثولى وبرام فيشر وتذكرت أبطالنا الأفارقة العظام من أمثال جوشيا جيومبيدى . وج . م فيكر ، ود/ عبدالله عبدالرحمن ، وليليان

نجوثى وهيلين جوزيف ويوسف داود وموسيس كوتانى فلم أذهب فى ذلك اليوم إلى مركز الانتخابات بمفردى ولكنى كنت أعطى صوتى معهم جميعا .

وسارت صفوف طويلة من المواطنين الصابرين فى الطرق غير المعبدة فى المدن والقرى وكانت هناك العجائز من النساء اللاتى انتظرن طول حياتهم ليشعرن بآدميتهن وكان هناك البيض من الرجال والنساء الذين قالوا إنهم فخورون أن يعيشوا أخيرا فى بلد حر .

وتوقفت أعمال العنف وكأنما البلد قد ولدت من جديد .

وفاز المؤتمر بنسبة ٦٢,٦٪ من الأصوات أقل بقليل من ثلثى الأصوات اللازمة لكى نضع الدستور بمفردنا . وشعرت بالراحة لأننا لو كنا تمكنا من وضع الدستور بمفردنا لأصبح من الممكن أن يقال أنه دستور المؤتمر وليس دستور جنوب إفريقيا . فقد أردت حكومة وحدة وطنية .

وفى مساء ٢ مايو ألقى دى كلارك خطاب تنازل لبق .. فبعد أكثر من ثلاثة قرون تقبلت الأقلية البيضاء الهزيمة وسلمت السلطة للأغلبية السوداء وفى المساء أقام المؤتمر حفلا بالانتصار فى قاعة الرقص فى فندق كارلتون ونصحنى الأطباء بعدم الذهاب حيث كنت قد أصبت بالإنفلونزا ولكنى ذهبت حوالى التاسعة والتقيت بأوجه باسمه سعيدة . وكانت هناك على المنصة السيدة كورتينا سكوت كنج أرملة مارتن لوثر

كينج المناضل الأمريكى ونظرت اليها وأشرت الى كلمات زوجها وقلت :

إن تلك لمن أهم اللحظات فى حياة بلدنا وإنى أقف هذا أمامكم مليئا بالفرح والفخر بمواطنى هذا البلد المتواضعين العاديين . فلقد أبديتم تصميما هادئا صبورا أن تستعيدوا هذا البلد والآن يمكن أن نعلن فرحين من أسطح المنازل "لقد أصبحنا أخيرا أحرارا .. أخيرا أحرارا" .

ومنذ اللحظات التى أعلنت فيها النتيجة رأيت أن مهمتى هى التوفيق وخلق الثقة . وكنت أعرف أن كثيرا من الأقليات وخاصة البيض والملونين كانوا يشعرون بالقلق بشأن المستقبل واردت أن أشعرهم بالأمان . وذكرت الناس مرارا أن معركة التحرير ليست معركة ضد مجموعة معينة أو لون معين لكنها ضد نظام طاغ .

- ١١٥ -

وأشرق يوم ١٠ مايو ساطعا . وكنت فى الأيام القليلة السابقة سعيدا بحصار الأفراد المرموقين وقادة العالم الذين توافدوا ليعبروا عن احترامهم قبل حفل الافتتاح وكان للافتتاح أن يشهد أكبر تجمع لقادة العالم على أرض جنوب إفريقيا .

وأقيم الاحتفال فى مبنى الاتحاد فى بريتوريا الذى ظل لعقود مقرا لسيادة البيض وأصبح الآن مكانا للقاء مختلف

الألوان والأمم لقيام أول حكومة ديموقراطية لاعنصرية فى جنوب إفريقيا .

ورافقتنى ابنتى زينانى فى ذلك اليوم . وعلى المنصة حلف دى كلارك اليمين كنائب ثان للرئيس ثم حلف مبيكى اليمين كنائب أول . ولما كان دورى تعهدت باطاعة والتمسك بالدستور وأن أكرس نفسى لخير الجمهورية وشعبها وخاطبت الضيوف قائلا :

.. إننا نحن الذين كنا خارجين على القانون لوقت قريب قد منحنا اليوم امتياز استضافة أمم العالم على أرضنا ..

فقد حققنا أخيرا سيادتنا السياسية ونتعهد أن نحرر شعبنا من استمرار العبودية للفقر والحرمان والمعاناة العرقية ومختلف أنواع التمييز .

فلتسد يحدث أبدا أبدا أن تتعرض تلك الأرض الجميلة لطغيان أحد على الآخر . فلن تغرب الشمس عن انجاز انسانى كهذا .

فلتسد الحرية .. وليبارك الله فى افريقيا .

وبعد لحظات رفعنا جميعا أعيننا فى خشوع حيث حلقت الطائرات الحربية لجنوب إفريقيا فى تشكيلات رائعة فوق مبنى الاتحاد ولم يكن ذلك عرضا للدقة والقوة العسكرية ولكنه اثبات لولاء الجيش للديمرقراطية لحكومة جديدة انتخبت بحرية وعدالة . وقبل ذلك بدقائق كان الجنرلات الكبار من قوة دفاع جنوب إفريقيا وشرطتها قد أدوا لى التحية العسكرية

وتعهدوا بولائهم ولم أكن قد نسيت انهم منذ سنوات لم يكونوا يحيوننى ، بل كانوا يلقون القبض على .

وبعد ذلك رسمت طائرات الچيت اللون الأسود والأحمر والأخضر والأزرق والذهبى لعلم جنوب إفريقيا بدخانها .

فى يوم الافتتاح اجتاحنى إحساس بالتاريخ ، ففى العقد الأول من القرن العشرين رتقت شعوب جنوب أفريقيا البيضاء خلافاتها وأسست نظاما للتمييز العنصرى ضد البشرة السمراء فى أرضهم وكان النظام الذى أسسوه أساسا لمجتمع من أكثر المجتمعات التى عرفها العالم شراسة ولا إنسانية والآن ، وفى العقد الأخير من القرن ، وعقدى أنا الثامن ، أقتلع هذا النظام الى الأبد واستبد بآخر يعترف بحقوق وحريات جميع الشعوب بغض النظر عن لون بشرتهم . وقد أتى ذلك اليوم عن طريق تضحيات لا يمكن تصورها من جانب الآلاف من شعبى . ذلك الشعب الذى لايمكن تقدير أو مجازاة شجاعته . وشعرت ذلك اليوم ، كما شعرت فى أيام أخرى كثيرة أننى بساطة نتاج كل أولئك الوطنيين الأفارقة الذين سبقونى والمنى أننى لم أكن باستطاعتى شكرهم ولم يكن باستطاعتهم رؤية ماحققته شجاعتهم .

لقد أوجدت سياسة الأبارتايد جرحا غائرا مستديما فى شعبى وسيقضى كثير منا سنوات عديدة إن لم يكن أجيالا لنشفى منها . لكن عقود الظلم الوحشية كان لها أثرها الذى لم تقصده . فقد أتت بأناس مثل أوليڤر تامبو وولتر سيسولو

والرئيس لوثولى ويوسف دادو وروبرت سوبوكوى وبرام فيشر ، رجال ذوى شجاعة غير عادية وحكمة وكرم الذين قد لا يعرف لهم مثيل مرة أخرى . إن بلدى غنى بالمعادن والأحجار الكريمة المدفونة تحت أرضها لكنى كنت أعرف دائما أن ثروتها الحقيقية فى أناسها . وأنه لمن أولئك الرفاق فى المعركة قد تعلمت معنى الشجاعة فقد كنت أرى مرارا نساء ورجالا يضحون بحياتهم من أجل فكرة وقد رأيت رجالا يواجهون هجمات وتعذيبا دون أن يهنوا مظهرين قوة واحتمالا يفوق الخيال . وتعلمت أن الشجاعة ليست هى انعدام الخوف لكن الانتصار عليه .

ولم أفقد الأمل أبدا أن التغيير لابد أت ليس فقط بسبب هؤلاء الأبطال لكن بسبب شجاعة النساء والرجال العاديين من شعبى . فلا يوجد أحد يكره شخصا بسبب لونه أو خلفيته أو دينه فإن الناس لابد أن يتعلموا أن يكرهوا وإن كانوا قادرين على تعلم الكراهية فلابد وأنهم قادرون على تعلم الحب . ففى أحلك أوقات السجن حينما كنت ورفاقى نساق الى حافة القدرة على الاحتمال كنت أرى وميضا من الانسانية فى أحد الحراس ، ربما لمدة ثانية ، لكن كان ذلك الوميض يطمئننى .

وقد اخترنا المعركة وأعيننا مفتوحة ولم تكن لدينا أوهام أن الطريق سيكون سهلا . وعن نفسى فلم أندم أبدا على التزامى بالمعركة ، لكن أسرتى دفعت ثمنا رهيبا نتيجة لالتزامى .

ففى بلد مثل جنوب إفريقيا كان من المستحيل القيام بالالتزام نحو الأسرة ونحو قومى وبلدى بسبب مولدى ولونى .

ففى جنوب إفريقيا كان الشخص الذى يحاول أن يفى بواجبه تجاه شعبه ينزع من أسرته ومنزله ويجبر على أن يعيش منفصلا فى وجود غير محدد من السرية والعصيان ولم أختر فى البداية أن أضع شعبى فوق أسرتى ولكنى لأنى حاولت أن أخدم شعبى وجدت أننى منعت من تأدية واجبى نحو أسرتى كإبن وأخ وأب وزوج .

ولم أولد وعندى فهم للحرية فلقد ولدت حرا قدر معرفتى عن الحرية . كنت حرا أن أجرى فى الحقول قرب كوخ والدتى وحرا فى أن أسبح فى القناة الصافية فى قريتى وأمارس النشاطات الصبيانية الأخرى .

ولكن فى جوهانسبرج رأيت ببطء ليس فقط أننى لست حرا بل إن جميع من هم لونى لايتمتعون بالحرية . والتحقت بالمؤتمر الوطنى الافريقى وعند ذلك تبدل فهمى لحريتى بفهم أكبر لحرية شعبى .

وكان خلال تلك السنوات الطويلة الوحيدة أن تحول فهمى لحرية ناسى الى فهم لحرية كل الناس بيضا وسودا . فقد كنت أعلم أنه لابد من تحرير الظالم من الكراهية والتحيز وضيق الأفق . .

وحينما خرجت من السجن كانت مهمتى هى تحرير الظالم والمظلوم وقد يقول البعض أنه قد تم انجاز ذلك ولكنى أعلم أن هذا غير صحيح فقد خطونا الخطوة الأولى فقط على طريق أطول وأصعب ـ فلأن تكون حرا لايعنى فقط أن تلقى بقيدك

لكن أيضا أن تعيش بطريقة تحترم وتعلى من حريات الآخرين .

ولقد سرت ذلك الطريق الطويل نحو الحرية وحاولت ألا أتعثر ولكننى اتخذت خطوات خاطئة على الطريق . وقد اكتشفت السر أنه بعد أن يكمل الإنسان تسلق تل يكتشف أن هناك تلالا أخرى كثيرة عليه تسلقها . لقد أخذت لحظة هنا للراحة لأسترق النظر الى ذلك المشهد المجيد الذى يحيط بى وأنظر خلفى الى المسافة التى قطعتها . ولكنى لا أتسطيع التوقف سوى لحظة لأن مع الحرية تأتى مسئوليات . ولا أستطيع الإطالة . لأن مسيرتى لم تنته بعد .

الفهـــــرس

الجـزء السادس :

الجـزء السابع :

الجـزء الثامن :

الجـزء التاسع :

الجـزء العاشر :

الجـزء الحادى عشر :

رقم الايداع
٩٥ /٥٢٥١
I.S.B.N
977 - 07 - 0405.9

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

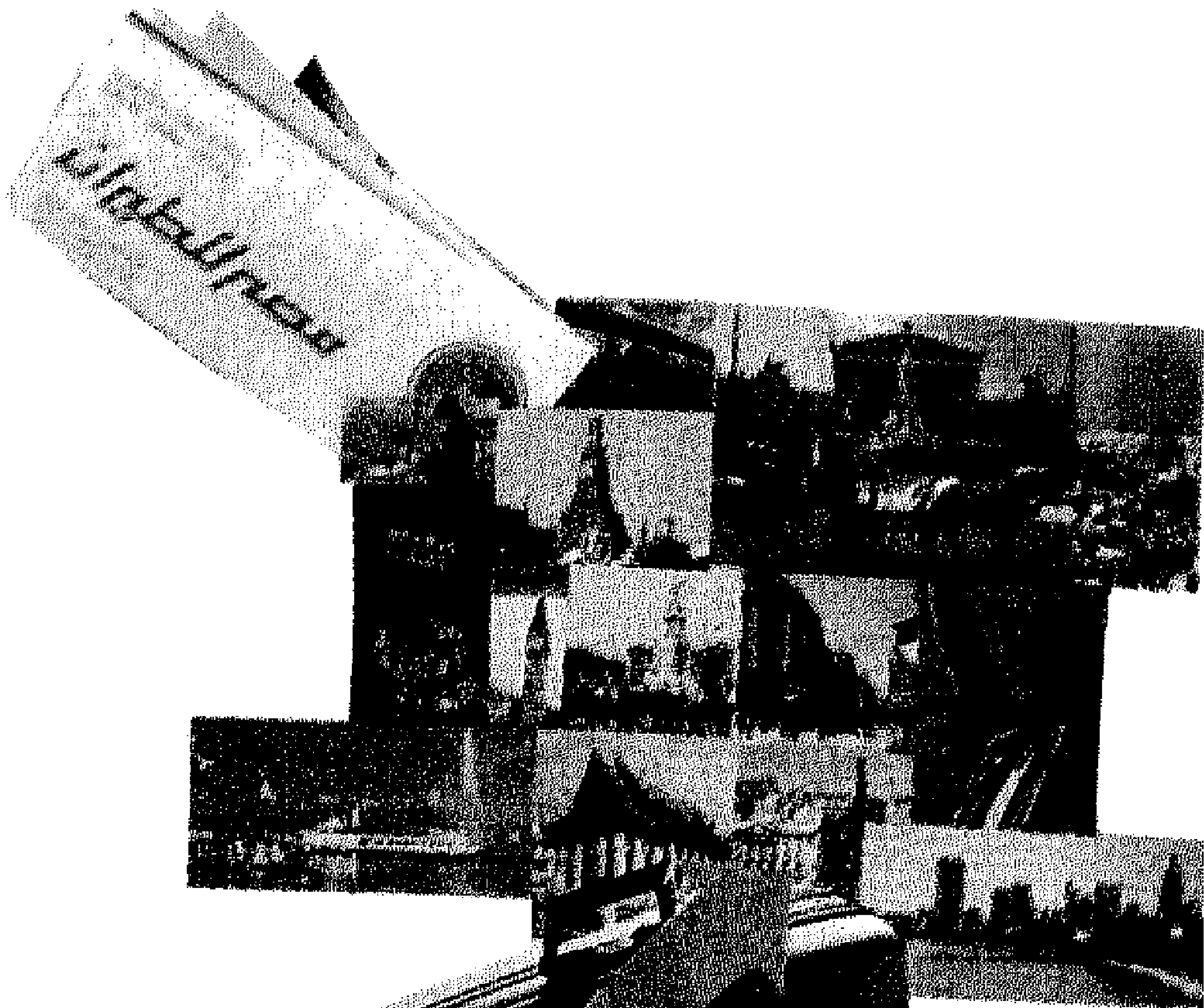
الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

يعرض د . عمر الفاروق .. فى هذا الكتاب .. لثلاثة من أعمال المفكر الجغرافى جمال حمدان ، يعرضها مجمعة لأول مرة .. بإعتبارها تكون ثلاثيته الجغرافية الوطيدة ، ثلاثية تتكامل أضلاعها .. من الوطن إلى القومية إلى العقيدة ، يتناول فى الأول منها الوطن .. فى « شخصية مصر » .. بالدراسة الواسعة المستفيضة ، ويأتى الثانى منها « دراسات فى العالم العربى» . عن القومية فى إطارها الجغرافى ، ويكمل ثلاثيته بكتابه « العالم الإسلامى المعاصر » .. عن حضارة العقيدة ، توحد بينها رؤيته .. وتجمعها فى بناء متماسك ، رؤية تصيغها جماع قوة (الوطنية × القومية × حضارة العقيدة) فقد ثبت أن تغليب أى منها .. إنما يوهنها جميعها ، ويحولها إلى عملية طرح وقسمة . بدلا من مجموع قوة متصاعد ، وماأحوجنا لهذه الرؤية .. فى غابة عالمنا المعاصر .

ويأتى عرض الكتب الثلاثة .. من زواياه المعتمدة جميعها ، يدلل عليها بإقتباسات من متن كل عمل منها .. بما يحقق أيضا أكبر قدر من المشاركة للقارىء .. مقترنة بأشكال تبسط منظومتها .. وتقدمها فى سياقها الفكرى والموضوعى ، ويمهد لدراستها .. بتحليل مسهب عن حمدان . كفيلسوف للمكان .. وكأكبر جغرافى معاصر ، يغوص فيه فى عقلية هذا المفكر .. يمكنه من ذلك تخصصه الجغرافى .. وعمق ادراكه لقيمة هذا المفكر فى الثقافة المصرية بعامة .


مصر للطيران

